بسم الله الرحمن الرحيم

ميقات الحج

العدد: ٥٢

شهر محرم الحرام ١٤٤١ هـ

السنة : ٣٧

Issn : 2538 - 1733

مجلة نصف سنويّة تعنى بالشؤون الثقافية
والتّاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

هيْئةُ التَّحْريـر:

الشيخ محمد جواد الفاضل اللنكراني

الشيخ محمد القايني

الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي

الشيخ رضا المختاري

المُـديـرُ المسؤُول:

السيّد عبدالفـتّـاح نـواب

مُـديـرُ التحْـرِير:

محمدعلي المقدادي

الفهرس:

ما رُخّص للنساء ليلة العيد ٥

الشيخ عليّ فاضل الصدديّ

تقصير النساء وزيارتهنّ للبيت ليلة العيد ١٥

مهدي الساجدي

مختصر الشمائل النبوية ﷺ (١) ٣٣

الحسن بن صادق الحسيني آل المجدِّد الشيرازي

علم المناسبة (٢) آيات الحجّ نموذجاً ٦١

محسن الأسدي.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٣) مالك الأشتر رجلٌ كاد أن يُبدّل وجه التاريخ ! ١٠٥

محمد سليمان.

التشيع الإمامي بالمدينة المنورة في العصور الإسلامية الوسطى دراسة تاريخية موجزة ١٦٧

أحمد خامه يار

أوروبيّون في الحرمين من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ٢٠١

أ.د. عبد الله عقيل عنقاوي

ملاحظات :

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم، النقاط التالية:

١. أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيل.

٢. أن تكون المقالة مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.

٣. أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسس فنيّة وليس لأسباب أخرى.

٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر وآراء كتّابها.

٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.

٩. ترحّب إدارة التحرير في مجلة «**ميقات الحج**» بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

ما رُخّص للنساء ليلة العيد

الشيخ عليّ فاضل الصدديّ

ملخّص البحث:

إنّ من رخِّص له في الإفاضة من المشعر إلى منى ليلاً فكما قد رخِّص له في رمي جمرة العقبة ليلاً، رخِّص له في التقصير بعد التوكيل في الذبح، كما رخِّص له في إتيان أعمال مكّة الخمسة ليلاً، فمن كان عليه ذبح فلا يقصِّر حتى يذبح إلّا إذا وكَّل من يذبح عنه فإنّ له أن يقصِّر ليلاً.

على أنّ مصير علَمين من أعلام مراجعنا وهما سماحة السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم وسماحة الشيخ محمّد إسحاق الفياض(سلَّمهما الله)، يكون إلى هذا الرأي،[1] ولكنّ سماحة الشيخ محمّد إسحاق الفياض في مناسك الحج: (الأمر الخامس) اقتصر على ذكر ترخيص الحلق أو التقصير، ولم يتعرّض إلى ترخيص العود إلى مكّة ليلاً لأداء مناسكهم.[2] على أنّ مرجع الطائفة سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ الحسينيّ السيستانيّ- وبموجب استفتاءين- استشكل في جواز التقصير ليلاً وحسب.

---

١. لاحظ مناسك الحج والعمرة، السيد محمدسعيد الحكيم : ١٧٧ م٤٢٥ ط الثامنة(١٤٢٢هـ)، وتعاليق مبسوطة، للفيَّاض ١٠: ٤٨٩ .

٢. مناسك الحج، للفيَّاض : ٢١١ ـ ٢١٤

مـن أفعـال الحج تمتّعاً، رمي جمـرة العقبة، وذبح الهـدي أو نحره، والحلـق أو التقصير، كلّ ذلـك بعد الإحرام والوقوفين بعرفات والمشـعر.

وهنا مسائل أربع تتعلّق بالنساء وكذا بسائر من رخّص له في الإفاضة من المزدلفة:

المسألة الأولى: في جواز إفاضتهن من المزدلفة ليلة العيد:

لا خـلاف في جـواز إفاضتهـن مـن المزدلفـة ليلـة العيـد بعـد وقوفهـن بها شـطراً من الليـل، وفي المنتهـى: هـو قـول كلّ من يُحفظ عنـه العلـم،[1] وفي المدارك: هـذا الحكم مجمع عليـه بـين الأصحاب.[2]

والأصل في الجواز هو الروايات المتعدّدة:

منهـا: صحيحـة أبي بصـير قـال: سـمعت أبـا عبـد الله عليه السلام يقـول: «لا بأس بـأن يقدّم (تقـدِّم) النسـاء إذا زال الليـل، فيقفنَ عند المشـعر سـاعة، ثـمّ ينطلق بهـنَّ إلى منى فيرمين الجمـرة، ثـمَّ يصـبرن سـاعة، ثمّ يقـصِّرن وينطلقـن إلى مكّة فيطفـن، إلّا أن يكـنّ يردن أن يُذبـح عنهنّ فإنهـنّ يوكِّلن مـن يَذبـح عنهنّ».[3]

ومنهـا: صحيحتـه الأخرى عن أبي عبـد الله عليه السلام قال: «رخَّص رسـول الله صلى الله عليه وآله للنسـاء والضعفـاء أن يفيضـوا مـن جُمـع بليـل، وأن يرمـوا الجمـرة بليـل، فـإذا أرادوا أن يزوروا البيـت وكَّلوا مـن يذبـح عنهنّ»[4]

ومنهـا: صحيحتـه الثالثـة عـن أبي عبد الله عليه السلام قـال: «رخَّـص رسـول الله صلى الله عليه وآله للنسـاء

---

١. منتهى المطلب٢: ٧٢٦.

٢. مدارك الأحكام٧: ٤٢٧.

٣. وسائل الشيعة١٤: ٣٠ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٧.

٤. وسائل الشيعة١٤: ٣٠ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٦.

والصبيان أن يفيضوا بليل، وأن يرموا الجمار بليل، وأن يصلُّوا الغداة في منازلهم، فإن خفن الحيض مضين إلى مكّة، ووكَّلن من يضحّي عنهن».[1]

ومنها: صحيحة سعيد الأعرج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «جعلت فداك، معنا نساء فأفيض بهنّ بليل، فقال: نعم، تريد أن تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: نعم، قال: أفِض بهنّ بليل، ولا تفض بهنّ حتى تقف بهنّ بجَمْع، ثم أفض بهنّ حتى تأتي(بهنَّ) الجمرة العظمى فيرمين الجمرة، فإن لم يكنّ عليهن ذبح فليأخذن من شعورهن ويقصِّرن من أظفارهن، ويمضين إلى مكّة في وجوههن، ويطفن بالبيت، ويسعين بين الصفا والمروة، ثمّ يرجعن إلى البيت ويطفن أسبوعاً، ثمّ يرجعن إلى مِنى وقد فرغن من حجّهن، وقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أرسل معهنّ أسامة».[2]

ويستفاد من صحيحة أبي بصير الثالثة أنّ هذا الحكم للصبيان أيضاً، ويستفاد من صحيحة الأعرج أنّ هذا الحكم لمن يرافق النساء أيضاً، ويستفاد من صحيحة أبي بصير الثانية أنّ هذا الحكم للضعفاء أيضاً، كما هو مدلول صحيحة معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام في بيان حجّ النبي صلى الله عليه وآله، ومنها: ثمّ أفاض وأمر الناس بالدّعة حتّى إذا انتهى إلى المزدلفة، وهي المشعر الحرام، فصلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثمّ أقام حتى صلّى فيها الفجر، وعجّل ضعفاء بني هاشم بالليل، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة جمرة العقبة حتّى تطلع الشمس..،[3] ويدخل في عنوان الضعفاء المرضى والشيوخ.

ويستفاد من قوله عليه السلام في صحيحة أبي بصير الأولى: «لا بأس بأن يقدّم (تقدِّم) النساء إذا زال الليل...»، أنّ وقت الإفاضة بعد منتصف الليل، وبقيّة الروايات ساكتة

---

١. وسائل الشيعة١٤: ٢٨، ٢٩ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح٢.
٢. وسائل الشيعة١٤: ٢٨ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح ٢.
٣. وسائل الشيعة١١: ٢١٦ ب٢ من أبواب أقسام الحجّ ح٤.

عـن هـذه الحيثية فـلا تنـافي دلالـة الصحيحة.[1]

المسألة الثانية: في جواز رميهن جمرة العقبة ليلة العيد:

ولا خـلاف أيضـاً في ذلـك، ويـدلّ عليـه مـا تقـدّم مـن صحـاح أبي بصـير الثـلاث وصحيحـة الأعـرج.

وهـذا الحكـم كـما هو للنسـاء هـو للصبيان أيضـاً؛ لصحيحـة أبي بصـير الثالثـة، وأمّا رفيـق النسـاء فلامقتضي لهـذا الحكم في حقّـه، وأمّا الضعفاء فـإنّ ظاهر الصحيحـة الثانية لأبي بصـير وإن كان هـو جـوازه لهـم إلّا أنّ قولـه عليه السلام في صحيحـة ابـن عـمّار المتقدّمـة: «وعجّـل ضعفاء بني هاشـم بالليـل، وأمرهم أن لا يرمـوا الجمرة جمرة العقبـة حتّى تطلع الشـمس»، ظاهـر في عـدم الرخصـة لهـم في الرمـي ليـلاً، وبعـد انعقـاد ظهـوره الثانويّ في الإرشـاد إلى شرطيّـة أن يكـون رميهـم بعـد طلـوع الشـمس فـلا يمكـن والحـال هذه التـصرّف في مثلـه بحملـه على الاسـتحباب.

المسألة الثالثة ـ وهي عمدة هذه المسائل ـ : في جواز أن يقصّرن ليلة العيد:

المشـهور تعـيّن إيقـاع التقصـير أو الحلـق في نهار العيـد لا ليلته حتـى ممّن لـه أن يرمي جمـرة العقبـة ليـلاً، وأفاد الإمـام الخوئـي قدس سره بحسـب (المعتمد على المناسـك) بـأنّ الظاهر كـون عـدم جـواز تقديم الحلـق أو التقصـير على نهـار العيد ممّا قطـع به الأصحـاب ـ على حـدٍّ تعبـيره ـ ،[2] وقـد اسـتَدلّ قدس سره لعدم جـواز التقديم بأمـور أربعة:[3]

---

١. قـال في الجواهـر١٩: ٧٩: > نعـم ينبغـي للمعذوريـن أن لا يفيضـوا إلّا بعـد انتصـاف الليـل<، وقد احتـاط بذلـك لزومـاً بعـض الأعـلام، انظـر: تحريـر الوسـيلة١: ٤٤١ – القـول في الوقوف بالمشـعر الحـرام، مسـألة١ –، كلمـة التقـوى (ك. الحـجّ): ٤٣٩، المسـألة ٩٢٦.

٢. المعتمد على المناسك بقلم السيّد رضا الخلخاليّ٢ = موسوعة الإمام الخوئيّ٢٩: ٣١٦.

٣. انظر: المعتمد على المناسك٢ = موسوعة الإمام الخوئيّ٢٩: ٣١٧.

الأوّل: السيرة القطعيّة على إيقاعه في النهار؛ [إذ لو ساغ التقديم لوقع ـ ولو مرّةً واحدة ـ من المعصوم أو أحد أصحابه، ولنُقِل إلينا بطبيعة الحال، فيكشف عدم الوقوع خارجاً عن عدم الجواز قطعاً].[1]

الثاني: مفهوم الشرط في صحيحة سعيد الأعرج الآتية، فالصحيحة بمفهومها تدلّ على أنّ من كان عليه ذبح لا يقصِّر حتى يذبح.

الثالث: الروايات الآمرة بالبدأة بالرمي،[2] ومحلّه النهار،[3] ولازم ذلك وقوع الحلق أو التقصير في النهار بعد الرمي؛ لترتّبهما على الرمي.

الرابع: ما دلّ من الروايات على تأخّر الحلق أو التقصير عن الذبح أو النحر،[4] وبما أنّ لزوم الذبح أو النحر في نهار العيد أمرٌ معلوم، فلا يسوغ تقديم الحلق أو التقصير على النهار.

وفيما عرضناه مجال واسع للمناقشة،[5] والواضح جواز التقصير في حقّ من جاز له الإفاضة من المشعر إلى منى ليلاً، بعد رميه جمرة العقبة، وبعد أن يوكِّل في ذبح الهدي

---

١. ما بين المعقوفتين من (مستند الناسك في شرح المناسك) بقلم الشيخ مرتضى البروجرديّ٢: ٢٤٦، ومن (الواضح) بقلم الشيخ محمّد الجواهريّ٥: ١١٨.

٢. وسائل الشيعة١٤: ١٥٥ ب٣٩ من أبواب الذبح ح٤، ٦، ٢١٥: ب٢ من أبواب الحلق والتقصير ح٢، وما اشتملت عليه من جملة (وقال بعضهم: ذبحت قبل أن أحلق) اشتباهٌ جزماً من الراوي أو الناسخ، والصحيح: (وقال بعضهم: حلقت قبل أن أذبح).

٣. وسائل الشيعة١٤: ٦٨ ب١٣ من أبواب رمي جمرة العقبة ح٢- ٧.

٤. وسائل الشيعة١٤: ١٥٥ ب٣٩ من أبواب الذبح ح٣، ٤، ٦- ١٠.

٥. هذه المناقشة بلحاظ تناول الوجوه الأربعة لفرض من جاز له الإفاضةُ من المشعر ليلاً، ورميُ جمرة العقبة كذلك، كما هو بحسب (المعتمد على المناسك٢: ٣١٦)، نعم لا تأتي هذه المناقشة عليه بحسب (مستند الناسك)٢: ٢٤٥- ٢٤٧، ولا بحسب (الواضح)٥: ١١٨، ١١٩؛ إذ ساقا الأدلّة بلحاظ أصل مسألة اعتبار أن يكون الحلق أو التقصير في نهار العيد، في مقابل من أجاز التقديم ولو لم تكن وظيفته الرمي ليلاً، نعم مفهوم صحيحة الأعرج يخدم الفرض المزبور.

أو نحـره، بـل لـه الرجـوع إلى مكّة لأداء مناسـكها الخمسـة، ويـدلّ عـلى كلّ ذلك مجموع الصحـاح المتقدّمـة ـ بعـد ضـمِّ بعضهـا إلى البعـض الآخر، وعطـف بعضها عـلى البعض الآخـر كما سـيأتي ـ.

ومـا تقـدّم عن المرحـوم الإمـام الخوئـيّ قدس سره مـن أنّ صحيحة الأعـرج تـدلّ بمفهومها عـلى أنّ مـن كان عليه ذبـح فلا يقصِّر حتـى يذبح ـ فغايتـه الإطلاق، فكأنّه قـال: من كان عليـه ذبـح فلا يقـصِّر حتى يذبح، سـواءً وكَّل في الذبح عنـه أم لم يوكِّل فيـه، فنقيِّد إطلاق الشرطيّـة هـذا بذيـل صحيحة أبي بصـير الأولى، وهـو قولـه: «إلّا أن يكنّ يـردن أن يُذبح عنهـنّ فإنهـنّ يوكِّلـن مـن يَذبح عنهـنّ»، فتكون نتيجـة الجمع ما يـلي: مـن كان عليه ذبح فـلا يقـصِّر حتـى يذبـح إلّا إذا وكَّل مـن يذبح عنه فـإنّ له أن يقـصِّر، إذن جـواز التقصير ليـلاً كـما هـو في حقّ مـن ليس عليـه ذبح هو في حـقّ من عليـه ذبح، غايـة مـا في الأمر أنّ جـوازه في حـقّ الثاني ليـلاً إنما هو بعـد التوكيـل في الذبح.

ولئـن كان مـورد صحيحـة الأعـرج هـو مـن لم يكن عليـه ذبح مـن النسـاء، وهنّ من وظيفتهـن حـج الإفـراد ـ فإنّ صحيحـة أبي بصـير الأولى ظاهـرة في الاكتفاء ممّـن وظيفته الذبـح أن يـوكِّل في الذبـح لتسـويغ ذهابه إلى مكـة للطواف، فـإنّ الاسـتثناء في قوله عليه السلام: «ثـمّ يقـصِّرن وينطلقن إلى مكة فيطفـن، إلّا أن يكن يردن أن يذبح عنهـن»ـ راجعٌ إلى تمام مـا بعـد كلمة (ثـمّ) لا إلى خصوص جملة: «وينطلقـن إلى مكة فيطفن»؛ وذلـك لأنّ الفقرة ذات سـياق واحـد ابتـداءً من كلمة (ثـمّ) إلى ما بعد الاسـتثناء.

وبعبـارة أخـرى مختصرة: إنّ هـذه الصحيحة كما قـد تكفّلت بالحديث عـن صورة من لم يكـن الذبـح في ضمن وظيفتهـا وهي المفرد، فذكـرت أنّ لها بعد وقوفها بالمشـعر ليلاً أن تقـصِّر ثم تمـضي إلى مكّة للإتيـان بالطواف، كذلـك تحدّثت عن صورة مـن فرضها الذبح وهـي المتمتّعـة، وذكـرت أنّ لهـا بعـد وقوفها بالمشـعر ليـلاً أن توكِّل مـن يذبح عنهـا، ثمَّ تقصِّر، ثـم تمضي إلى مكّـة لتطوف.

وإذا دُغدِغ في دلالة هذه الصحيحة على حكم الصورة الثانية فإنّه ـ بعد عطف الصحيحة الثانية لأبي بصير على الأولى ـ يتّضح حكمها بجلاءٍ، وإذا أهمل ذكر التقصير في الثانية من صحيحتي أبي بصير فإنّ الأولى منهما قد نبّهت عليه.

ومما قدَّمناه تظهر الخدشة في إطلاق ما تقدم عن السيد الخوئيّ من أنّه لا يسوغ التقصير ليلة العيد؛ لتأخُّره عن الذبح، ولمّا كان محل الذبح هو نهار العيد فلا محالة يكون التقصير نهاره أيضاً.

بيان الخدشة: أنّ ما ذكره ليس على إطلاقه بحيث ينسحب على النساء والضعفاء بعد ظهور صحيحتي أبي بصير الأولتين في كفاية التوكيل في الذبح لجواز فعل التقصير المستتبَع بالطواف، وإلّا فما هو وجه التوكيل في الذبح ليلاً؟!

كما تظهر الخدشة وبشكل واضح في ثالث الأمور التي ساقها في المعتمد لعدم جواز التقصير ليلة العيد؛ وذلك لأنّ النساء والضعفاء مرخّص لهم أن يرموا ليلة العيد، مع تقديم الرمي على التقصير كما نصَّت عليه صحيحتا سعيد الأعرج وأبي بصير الأولى، ومعه فلا تنافيان الروايات الآمرة بالبدأة بالرمي، بل هما في صراط الروايات المشار إليها، على أنّ رمي جمرة العقبة ليلاً للنساء والضعفاء هو مدلول جملةٍ وافرة من الروايات،[1] وبموجبها الفتيا بلا خلاف.

وأما الأمر الأول – الذي تمسّك به السيد ﷺ لعدم جواز التقصير ليلة العيد وهو السيرة القطعية على فعل التقصير أو الحلق نهار يوم العيد– فيتوجَّه عليه أنها مجرد سيرة فعل مجرد، وأن أقصى ما تفيده جوازه فيه لا تعيُّنه.

وكبروياً ثمّ تطبيقاً نقول: إنّ السيرة القائمة على صحّة فعل أو توظيفه شرعاً لا دلالةَ التزاميةً لها ـ كما لا دلالة لنفس الفعل ـ على عدم جواز غيره حتى لو كان الفعل الذي قامت عليه السيرة ذا كلفةٍ، فإنّ الالتزام بذي الكلفة من الفعل لا يساوق لزومه،

١. وسائل الشيعة ١٤: ٢٨– ٣١ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر.

فهـذه السـيرة نظـير سـيرة المتشرعة عـلى الترتيب بـين الجانبـين الأيمن والأيسر في غسـل الجنابـة ؛ فانّـه لا يستكشـف منهـا اللزوم، كـما أفاد ذلـك الفقيه الهمـداني معلِّلاً بـأنّ مجرد الرجحـان في مثـل هـذه الأشـياء التي لا تحتـاج إلى كلفـة زائدة، كافٍ في اسـتقرار السـيرة عليهـا، نظير غسـل اليدين أمـام الوضوء.[1]

ومـما تقـدّم نحتمل احتـمالاً قريباً أن يكون منشـأ السـيرة على تأخير التقصـير إلى النهار هـو إيثـار الرجال إبقاء نسـائهن ومن معهم مـن الضعفاء تجنُّبـاً عن مزيد مؤونـة الإفاضة بهـم إلى منـى ثـمّ رجـوع الرجـال للوقـوف بالمشـعر، أو محـاذرةً مـن تفرُّقهـم عـلى تقدير إفاضـة بعضهم بهم.

ومـع هـذا الاحتمال فلا نجـزم بأنّ السـيرة المدّعى قطعيتها ناشـئةٌ من التعبُّـد الشرعيّ بتأخـير التقصـير إلى النهار في حقّهـم، فلا تعود السـيرة ـ والحال هـذه ـ حجّة.

وإمعانـاً في الاستشـكال في أمر السـيرة المدَّعاة أقـول: ـ نقلاً عن أحد الأسـاتيد ـ إنّه لو ثبـت عـن المتشرّعة مواظبتهـم على التربُّص بالنسـاء والضعفـاء في أمر التقصـير إلى النهار وكأنّـه أمـرٌ لا حيـاد عنـه، فإنّها آنئـذٍ وإن كانـت لا تخلو عن دلالـة على عدم جـواز تقديم التقصـير ليلـة العيـد؛ إذ أنّ تأخـيره إلى مـا بعـد الذبـح نهـاراً مشـتمل على كلفـة بخلاف تعجيلـه ليـلاً ـ إلّا أنّ إثبـات هـذا النـوع مـن السـيرة في غايـة الصعوبـة. انتهـى مـا أفاده الأستاذ.

فالسيرة المدَّعاة كما هي مشكِلةٌ كبروياً، هي كذلك صغروياً.

نعـم، لـو كان الـكلام عـن أصـل اعتبـار أن يكـون الحلـق أو التقصـير في نهـار العيـد لا بالنسـبة إلى الخائـف ولا إلى مـن جـاز لهـم الإفاضة إلى المشـعر ليـلاً ورمي جمـرة العقبة كذلـك فالسـيرة المذكـورة ـ الّتي مرجعهـا إلى الدليل الخامـس، وهو أماريّة لـو كان لبان ـ تامّـة؛ حيـث ذكر في تقريرها بحسـب (مسـتند الناسـك) و(الواضح) أنّه لو سـاغ التقديم

١. مصباح الفقيه٣: ٣٦٩-٣٧٠.

لوقع ـ ولو مرّةً واحدة ـ من المعصوم أو أحد أصحابه، ولنُقِل إلينا بطبيعة الحال، فيكشف عدم الوقوع خارجاً عن عدم الجواز قطعاً.[1]

ولكن بعد أن كان الناسك بمزدلفة لعدم كونه ممّن يسوغ له الإفاضة منها إلى منى، وكان محل التقصير والحلق هي منى، فلا موضوع لمثل هذه السيرة المنتهية إلى (لو كان لبان).

المسألة الرابعة: في جواز رجوعهن إلى مكّة ليلة العيد لأداء مناسكها الخمسة:

ويدلّ على جواز ذلك في حقّهن ـ بعد أن رمين ووكّلن في الذبح وقصّرن ـ قوله عليه السلام في صحيحة الأعرج: «ويمضين إلى مكّة في وجوههن، ويطفن بالبيت، ويسعين بين الصفا والمروة، ثمّ يرجعن إلى البيت ويطفن أسبوعاً، ثمّ يرجعن إلى مِنى وقد فرغن من حجّهن»، ولا ينافيه اقتصار صحيحتي أبي بصير الأولتين على ترخيصهنّ في إتيان طواف الزيارة أو الطواف؛ إذ لا يتصوّر التنافي بين المثبتين ما داما مثبتين.

تنبيه:

يتعيَّن على النساء المضي إلى مكّة لأداء أعمالها فيما إذا خِفن الحيض، ولم يسبق منهن تقديم الطواف على الوقوفين، وذلك لصحيحة أبي بصير الثالثة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «رخَّص رسول الله صلى الله عليه وآله للنساء والصبيان أن يفيضوا بليل، وأن يرموا الجمار بليل، وأن يصلُّوا الغداة في منازلهم، فان خفن الحيض مضين إلى مكّة ووكلن من يضحي عنهن».[2]

---

١. انظر: (مستند الناسك في شرح المناسك) بقلم الشيخ مرتضى البروجرديّ ٢: ٢٤٦، ومن (الواضح) بقلم الشيخ محمّد الجواهريّ٥: ١١٨.

٢. وسائل الشيعة١٤: ٢٨، ٢٩ ب١٧ من أبواب الوقوف بالمشعر ح٢.

ودعـوى أخصّيـة هـذه الصحيحـة مـن صحيحتي أبي بصـير الأولتـين، فتقيّـدان بها؛ وذلـك لأنّ ظاهـر تفريـع «فـإن خفن الحيـض..» على مـا قبله، أنّـه داخـل في الترخيص، وعليـه فـلا ترخيـص في المـضيّ إلى مكة مـع التوكيـل في الذبـح إلّا لخائفـة الحيض.[1]

(هـذه الدعـوى) غـير متَّجهـة؛ فـإنّ مفهـوم الشرطيـة وإن كان مسـلَّماً، إلّا أنّ جواب الشرطيـة منطوقـاً هـو لـزوم المـضيّ إلى مكة مـع التوكيـل في الذبـح، فغير خائفـة الحيض لايلزمها ذلك، وهذا لا ينافي جوازهما لمطلق النسـاء والضعفاء المسـتفاد من الصحيحتين.

نعـم، لـو كان جـواب الشرطية هو جـواز المـضيّ إلى مكة مـع التوكيـل في الذبح لكان للشرطيـة مفهـومٌ في عـدم جوازهما لغير خائفـة الحيض فيقيِّـد الصحيحتين.

والمتحصَّـل أنّ مـن رخِّـص له في الإفاضـة من المشـعر إلى منى ليلاً فكما قـد رخِّص له في رمـي جمـرة العقبة ليلاً، رخِّـص له في التقصير بعـد التوكيل في الذبح، كـما رخِّص له في إتيـان أعـمال مكّة الخمسـة ليلاً،[2] بـل يتعيَّن على خائفة الحيـض أن تـوكِّل في الذبح لتقصِّر وتذهب إلى مكّـة لزيارة البيت.

١. لاحظ: سند العروة الوثقى(الحج) ٤: ١٣٧.

٢. وقـد اطّلعـت لاحقـاً على مصـير علَمين من أعـلام مراجعنا إلى هذا الرأي، وهما سـماحة السـيد محمد سـعيد الطباطبائـي الحكيم وسـماحة الشـيخ محمّـد إسـحاق الفياض(سـلَّمهما الله)، لاحظ: مناسـك الحـج والعمـرة للحكيـم: ١٧٧ م٤٢٥ ط الثامنة(١٤٢٢هـ)، وتعاليق مبسـوطة للفيَّاض ١٠: ٤٨٩، ولكنّـه في مناسـك الحـج: ٢١٤ م٢١١(الأمـر الخامس) اقتصر عـلى ذكر ترخيص الحلـق أو التقصير ولم يتعـرّض إلى ترخيـص العـود إلى مكّـة ليلاً لأداء مناسـكهم. عـلى أنّ مرجع الطائفة سـماحة آية الله العظمـى السـيّد عليّ الحسـينيّ السيسـتانيّ ـ وبموجب اسـتفتاءين ـ استشـكل في جـواز التقصير ليلاً وحسـب، لاحظ مناسـك الحجّ وملحقاتهـا ـ ط. الأولى ١٤٣٠ هــ: ٢٦٦ تعليقاً على مسـألة ٤١٢.

تقصير النساء وزيارتهنّ للبيت ليلة العيد

مهدي الساجدي

ملخّص البحث :

المشـهور عـلى ألسـنة الفقهـاء جـواز التقصير و زيـارة البيت ليلـة العيد للنسـاء اللاتي يخفن الحيـض، أمّـا غيرهـنّ مـن النسـاء الـلاتي يـردن التمتـع، فقد رخّـص لهـنّ في الإفاضة والرمـي ليلاً، ولايجـوز لهـنّ الذبـح ولا التقصير ولازيـارة البيت.

علـى أنّ بعـض المعاصريـن ليسـوا على هذا الـرأى فهم يعتقدون أنّ المسـتفاد مـن الروايات هـو جـواز التقصـير وزيارتهـنّ للبيـت ليلاً، لكن بعـد التوكيل في الذبـح. ويؤيد هـذا البحث الذي هـو حصيلـة التتبـع في الكتـب الشرعيـة عـن طريـق البحـث في المكتبـات، رأي الجـواز في هـذه المسـألة، وهـو الـرأي الـذي يسـتفاد مـن الروايـات التي هـي العمدة من بـين أدلة هذه المسـألة. والـذي يقـوى في النظـر، أنّ الروايـات المسـتند إليها الرأي المشـهور والأدلة التي تمسّـك بها لإثبات عـدم الجـواز قابلـة للجواب والنقـض والإبرام.

الكلمات المفتاحية: التقصير، ليلة العيد، زيارة البيت، الذبح، التوكيل.

مقدمة :

مـن أفعـال الحـجّ تمتعـاً بعـد الوقـوف في عرفـات والمشـعر، رمي جمـرة العقبـة وذبح الهـدي أو نحـره يـوم العيـد؛ هـذا ولكـن الـذي يسـتفاد مـن الروايـات والفتـاوى، هـو ترخيـص النسـاء في الإفاضـة ليلاً من المشـعر ورمـي جمرة العقبـة. وفي هذا المجـال يطرح السـؤال الآتي: هـل يجـوز لهـنّ التقصـير ليلـة العيـد وزيـارة البيـت أيضـاً بعد رمـي جمرة العقبـة، أو يكـون الترخيـص لهـنّ في الإفاضـة والرمـي ليلاً فحسـب؟

ومـن المناسـب قبـل الجـواب عن هـذا السـؤال أن نفحـص عـن آراء الفقهـاء في هذا المجـال وعلـى الله الإتكال:

١. الأقوال في المسألة :

المشـهور بـين الفقهـاء ترخيـص النسـاء في الإفاضة مـن المشـعر ورمي جمـرة العقبة،[١] لكـنّ في جـواز التقصـير وزيارتهنّ للبيـت ليلة العيـد قولين:

أ. جـواز التقصـير وزيـارة البيت ليلـة العيد لمن خـاف الحيض ووجـوب تأخير الذبح ومـا يترتّـب عليه من الأفعـال ليلة العيـد لغيرهنّ. هذا رأي المشـهور.[٢]

قال التبريزي في الاستدلال على هذا الرأي:

«ويبقـى الـكلام في أنّـه يجـوز لهـؤلاء بعد الرمـي ليـلاً الذبح والنحـر أيضاً ليـلاً وكذا التقصـير، أو أنّ الجـواز يختـص بالرمـي، وأمّـا الذبـح والنحـر وكـذا التقصـير فيجب أن

١. العلامـة الحـلي، ١٤١٤ ق، ٨ : ٢٢٨ ؛ المحقق الحلي، ١٤٠٨ ق، ١ : ٢٣١ ؛ صاحب الجواهر، ١٤٠٤ ق، ١٩ : ٧٧ ؛ التبريزي، ١٤٢٧ ق، ٤ : ٢٠٦.

٢. أبوالصـلاح الحلبـي، ١٤٠٣ ق، : ١٩٨ ؛ إبـن زهـرة، ١٤١٧ ق، : ١٨٦ ؛ الكيـدري، ١٤١٦ ق، : ١٦٠؛ السـبزواري، ١٤٢١ ق، :٢١٢ ؛ الشـهيد الأول، ١٤١٧ ق، ١ : ٤٥٦ ؛ الخوبي، ١٤١٠ ق، ٥ : ١٩١ ؛ التبريـزي، ١٤٢٣ ق، ٣ : ١٧٢ ؛ الشـبيري، ١٤٢١ ق، : ٢٧٥.

يكـون بعد طلوع الشـمس مـن يوم العيد، ... فالمسـتفاد مـن الروايات على مـا يأتي ترتب الذبـح والنحـر عـلى رمي الجمـرة العقبة وترتـب التقصير أو الحلـق عليهما، وبـما أنّ وقت رمـي الجمـرة مـا بـين طلوع الشـمس وغروبهـا، فيكـون وقـت الذبـح أو التقصـير أيضاً كذلـك، والترخيـص الـوارد لهـؤلاء في الروايـات المعتمـد عليهـا بالإضافـة إلى الإفاضـة ليـلاً ورمـي الجمرة، فيكـون الترخيص بالإضافـة إلى الذبـح والتقصير محتاجـاً إلى مُثبت، وهـذا الترخيـص لم يثبـت في حـق من عليه الهـدي بل مقتـضى المفهوم في صحيحة سـعيد الأعرج عدمـه...».[1]

وقال المحقّق الخوئي في هذا المجال:

«يقـع الـكلام تـارةً في تقديمـه على نهـار العيد بـأن يحلق أو يقـصر ليلة العيـد لمن يجوز لـه الرمـي في الليـل، والظاهـر أنّ عـدم جـوازه ممّـا قطع بـه الأصحـاب للسـيرة القطعية ولتأخّـره عـن الذبح، ومن المعلـوم أنّ الذبح يجـب إيقاعه في نهار العيد، ولصحيح سـعيد الأعـرج... فإنّـه بمفهومـه يدلّ عـلى أنّ من كان عليـه الذبح لا يقصر حتى يذبـح. مضافاً إلى أنّـه يمكن اسـتفادة ذلـك من الروايات الآمـرة بالبدأة بالرمي وهو في النهار، ويسـتلزم ذلـك وقوع الذبـح والحلق في النهـار أيضاً لترتبهـما عليه.».[2]

ب. جـواز التقصـير وزيـارة البيـت ليلـة العيد للنسـاء، لكن بعـد التوكيـل في الذبح. هذا الـرأي لبعـض الأعـلام المعاصرين.[3]

وقال بعض الأعلام في الاستدلال لهذا الرأي:

«بـل الأظهر جـوازه بالليل لصحيحة سـعيد الأعـرج المتقدمة. ودعـوى: أنّ قوله عليه السلام فيهـا: «فـإن لم يكـن عليهـنّ ذبـح فليأخـذن مـن شـعورهنّ، و يقـصّرن مـن أظفارهـنّ،

---

١. التبريزي، ١٤٢٣ ق، ٣: ١٧٢.

٢. الخوئي، ١٤١٨ ق، ٢٩ : ٣١٧.

٣. الحكيم، : ١٧٧؛ الفياض، : ٤٨٩.

ويمضين إلى مكة»، يدلّ بمقتضى مفهوم الشرط على أنّه إذا كان عليهنّ ذبح لم يجز لهنّ ذلك؛ مدفوعة: بأنّ الظاهر منه عرفاً أنّه إذا كان عليهنّ ذبح فليوكّلن فيه أولاً، ثمّ يقمن إلى زيارة البيت، كما ورد نظير هذا في صحيحة أبي بصير المتقدمة، فإنّ مفادها ـ كما مرّ ـ أنّه لا يجوز لهنّ الذبح في الليل، فإذا كان عليهنّ ذبح و أردن زيارة البيت فعليهنّ أن يوكّلن فيه حتى يقوم بالذبح عنهنّ في يوم العيد، ثمّ يقصّرن و يمضين إلى مكة ليلاً لزيارة البيت...».[1]

٢. مستند الأقوال:

ومن المناسب قبل البحث والفحص عن القول الصحيح، البحث أولاً عن مستندات الأقوال، وحيث تكون الروايات التي تدلّ على ترخيص النساء في الإفاضة والرمي هي العمدة من بين أدلة المسألة، نركز البحث عنها ونبحث عن مدى دلالتها. وهي كما يلي:

أ. صحيحة سعيد السمّان عن الصادق عليه السلام:

عَنْ سَعِيدٍ السَّمَّان قَالَ: سَمِعْتُ أباعَبْدِالله عليه السلام يَقُولُ: «إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله عَجَّلَ النِّسَاءَ لَيْلاً مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إلَى مِنًى، وأمَرَ مَنْ كَانَ مِنْهُنَّ عَلَيْهَا هَدْيٌ أَنْ تَرْمِيَ ولاَ تَبْرَحَ حَتَّى تَذْبَحَ وَ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُنَّ هَدْيٌ أنْ تَمْضِيَ إلَى مَكَّةَ حَتَّى تَزُورَ».[2]

وفي هذا الخبر تصريح بجواز الرمي ليلاً للنساء، حيث أمر بالرمي بعد التعجيل من المزدلفة ليلاً. وتدلّ هذه الرواية أيضاً على جواز التقصير بمقتضى أدلة لزوم الترتيب في أفعال الحج والعيد، وعلى جواز زيارة البيت ليلاً لمن لم يكن عليه ذبح. وفي الرواية التالية أيضاً دلالة على جواز التقصير ليلة العيد لهؤلاء.

١. الفياض، : ٤٩٠.

٢. الكليني، ١٤٠٧ ق، ٤: ٤٧٤.

وتـدلّ هـذه الفقـرة مـن الروايـة: «وَ أَمَـرَ مَـنْ كَانَ مِنْهُـنَّ عَلَيْهَـا هَـدْيٌ أَنْ تَرْمِـيَ ولاَ تَـبْرَحَ حَتَّـى تَذْبَـحَ»، أيضـاً علـى أنّ النسـوة الـلاتي عليهنّ ذبـح لا يجوز لهـنّ الخروج من منـى حتـى يذبحن؛ والرواية سـاكتة عـن حكم جـواز التقصير ليلـة العيـد أو عدمه لهنّ، ولكـن يمكن الحكـم بعدم جواز التقصـير لهنّ ليلة العيـد، بقرينة الروايـات المبينة لأفعال الحـجّ يـوم العيـد، حيث تبينّ هـذه الروايـات أنّ الذبح يلـزم أن يقع في نهـار العيد ويكون التقصـير بعـد الذبح، ويسـتثنى لهنّ مـن هـذه الروايات الإفاضـة والرمي حيـث يُرخّص لهـنّ أن يؤدّينهـا ليلة العيد فحسـب.

إن قلـت: فقـرة «لاتـبرح حتى تذبـح» لاتقيد بكـون الذبح يـوم العيـد، إذن لو ذبحن الهـدي ليلـة العيد، جاز لهـنّ أن يقـصّرن ويزرن البيـت ليلاً.

قلـت: يبـدو أنّ الروايـة بالنسـبة إلـى زمان الذبح ليسـت في مقـام البيـان، وتبيّن فقط أنّ سـائر النُّسـك يلـزم أن يكـون بعـد الذبـح، إذن لايمكن التمسّـك بالإطـلاق والحكم بجـواز الذبـح ليلـة العيـد، ولو سـلم فإنّـه يقيد هـذا الإطـلاق بالروايـات التي تبـيّن أنّ زمـان الذبح يـوم العيد.

بالإضافـة إلـى ذلك، يمكـن أن يقال: يكـون التعبير بـ: «لاتبرح حتـى تذبح» للدلالة على أمرين:

الأول: تقدم الذبح على سائر النُّسك ومن جملته زيارة البيت.

الثـاني: لـزوم وقـوع الذبـح في النهـار، حيـث لـو كان النبـيُّ ﷺ في صدد بيـان ترتب زيـارة البيـت ومـا بعدهـا علـى الذبـح فقـط لمـا لزمـه النهـي عـن الخـروج مـن منـى، ولأمكنـه ﷺ تأديـة هـذا المعنـى بعبـارات أخر نحـو: «أمر مـن كان منهنّ عليهـا هدي أن ترمـي وتذبـح وتمـضي إلى مكـة»، لكن حيث يمكـن المخاطـب أن يتوهّم أنّـه يرخّص في الذبـح ومايترتـب عليـه مـن الأعـمال ليلة العيـد، كـما يرخّـص في الإفاضـة والرمي، نهى رسـول الله ﷺ عـن الخروج مـن منى حتى يفهـم المخاطب من هـذا النهي أنّـه يرخّص في

الإفاضة والرمي فقط، وما لم يذبح الهدي، لايجوز له الاشتغال بسائر الأعمال المترتبة على الذبح. ويفهم بقرينة المقابلة لزوم كون الذبح فى النهار، فإنّ قوله: «و من لم يكن عليهنّ هدي أن تمضي ...» ظاهر في زيارة البيت في الليل بعد الرمي، فهذا دليل على لزوم كون الذبح في النهار.

ب. صحيحة سعيد الأعرج عن الصادق عليه السلام:

عَنْ عَلِيِّ بْن النُّعْمَان عَنْ سَعِيدٍ الأَعْرَج قَالَ: قُلْتُ لأَبي عَبْدِالله عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ! مَعَنَا نِسَاءٌ فَأُفِيضُ بِهِنَّ بلَيْل؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ تُرِيدُ أنْ تَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ الله؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ؛ فَقَالَ: «أفِضْ بِهِنَّ بلَيْل ولاَ تُفِضْ بِهِنَّ حَتَّى تَقِفَ بِهِنَّ بجَمْع ثُمَّ أفِضْ بِهِنَّ حَتَّى تَأتِيَ بِهِنَّ الْجَمْرَةَ الْعُظْمَى فَيَرْمِينَ الْجَمْرَةَ فَإنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِنَّ ذَبْحٌ فَلْيَأخُذْنَ مِنْ شُعُورِهِنَّ ويُقَصِّرْنَ مِنْ أظْفَارِهِنَّ ويَمْضِينَ إلَى مَكَّةَ فِي وُجُوهِهِنَّ ويَطُفْنَ بالْبَيْتِ ويَسْعَيْنَ بَيْنَ الصَّفَا والْمَرْوَةِ ثُمَّ يَرْجِعْنَ إلَى الْبَيْتِ ويَطُفْنَ أسْبُوعاً، ثُمَّ يَرْجعْنَ إلَى مِنًى وقَدْ فَرَغْنَ مِنْ حَجِّهِنَّ...».[1]

يمكن استفادة الأمور التالية من هذا الرواية:

الأول: النساء يرخّص لهنّ في الإفاضة ليلاً من المشعر إلى منى.

الثاني: جواز رمي جمرة العقبة ليلاً لجميع النساء؛ حيث لم يبيّن في الرواية فترة الوقوف اللازمة لهنّ قبل الإفاضة، إذن يفهم جواز الاكتفاء بمسمّى وقوفهنّ والإفاضة لهنّ ليلاً وإتيانهن بالجمرة العظمى ليرمين الجمرة.

إن قلت: ليس مراد الإمام عليه السلام من الأمر بالإفاضة وإتيانهنّ بالجمرة العظمى أنّه يجوز لهنّ رمي الجمرة حين وصلن إلى جمرة العقبة ليلة العيد، بل أراد الإمام عليه السلام

١. الكليني، ١٤٠٧ ق، ٤ : ٤٧٥.

لـزوم تعجيـل النسـاء في وصولهـنّ إلى جمـرة العقبة فقـط؛ وأمّـا الرمي، فيلزمهـنّ الصبر حتـى تطلـع الشـمس، ثـمّ يرمين الجمـرة قبـل أن يصل النـاس إلـى الجمرة.

قلـت: هـذا المعنـى لايتناسـب مع ما يفهـم من حـروف العطف، حيـث يكون عطف الإفاضـة عـلى الوقوف بـ«ثمّ» الـذي يدلّ علـى الترتيـب والفصل، وعطـف الرمي على الإفاضـة والإتيـان بهـنّ بـ«الفاء» التـي تدل على الترتيـب بدون الفصـل، ويفهم من هذا جـواز الرمـي لهـنّ بعد وصولهـنّ إلى الجمـرة بلافصل. هـذا مضافـاً إلـى أنّ الغرض من الإفاضـة ليـلاً إلى منى لايحصـل إلّا بالرمـي في الليل.

الثالـث: يجـوز التقصـير وطـواف الزيـارة ليلـة العيـد لمـن ليس عليـه الذبح فقـط؛ إذ لـو كان التقصـير جائـزاً للجميـع، لم يوجّـه التفصيـل؛ وبعبـارة أخـرى ـ بناءً علـى إعتبار وحجيـة مفهـوم الـشرط ـ نقـول: إنّ مفهـوم الرواية يكـون هكـذا: «إن كان عليهـنّ ذبح فلايجـوز لهنّ التقصـير»، وأمّا إذا لم نعتـبر مفهوم الشرط، فمقتضـى كلام البليغ والفصيح هـذا المعنـى أيضاً.

ج. صحيحة إبن مُسكان عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام:

عَبْـدالله بْـن مُسْـكانَ عَـنْ أبي بَصِير قَـالَ: سَـمِعْتُ أبـا عَبْـدِالله عليه السلام يقُـولُ: «لاَ بَـأسَ بـأنْ تُقَـدَّمَ النِّسَـاءُ إذَا زَالَ اللَّيـلُ فَيقِفْنَ عِنْـدَ الْمَشْعَرالْحَرَام سَـاعَةً ثُـمَّ ينْطَلَقْ بِهِـنَّ إلَى مِنًى فَيرْمِـينَ الْجَمْـرَةَ ثُمَّ يصْبِرْنَ سَـاعَةً ثُمَّ يقَصِّرْنَ وينْطَلِقْـنَ إلَى مَكةَ فَيطُفْـنَ إلَّا أنْ يكنَّ يرِدْنَ أنْ يُذْبَـحَ عَنْهُـنَّ فَإنَّهُنَّ يوكلْـنَ مَنْ يذْبَـحُ عَنْهُنَّ».[1]

يستفاد من هذه الرواية أمران:

الأول: جـواز الإفاضـة للنسـاء ليلـة العيـد إذا انتصـف الليل، هـذا إذا كان المـراد من الـزوال إنتصـاف الليـل؛ أمّـا إذا كان المـراد منه إتمـام الليل وطلـوع الفجر، فلايـدلّ على

١. الكليني، ١٤٠٧ ق، ٤ : ٤٧٤.

جـواز الإفاضـة ليـلاً، بـل يـدلّ علـى أنّه تجـوز لهـنّ الإفاضـة بعد طلـوع الفجـر ويكون ترخيـص الشـارع لهـنّ في الإفاضة قبـل طلوع الشـمس، ولكن الـذي يقـوى في النظر أنّ الروايـة بقرينـة الروايـات التـي تصرّح بجـواز الرمي ليـلاً تدلّ علـى جـواز الإفاضة لهنّ إذا انتصـف الليـل؛ بالإضافـة إلـى ذلـك أنّ مـا في صحيحة عمر بـن حنظلة،[1] من تشـبيه الإمـام عليه السلام زوال الليـل بزوال الشـمس هو قرينة أخـرى على أنّ المراد مـن زوال الليل هو انتصـاف الليـل؛ إذ معنـى زوال الشـمس ميل الشـمس من وسـط السـماء إلـى الغروب، وبقرينـة المقابلـة يفهـم أنّ معنـى زوال الليـل هـو انتصـاف الليـل وامتـداده وحركته إلى طلـوع الفجر.

الثـاني: التعبـير بــ: «إِلَّا أَنْ يكنَّ يـرْدْنَ أَنْ يُذْبَـحَ عَنْهُنَّ» بقرينة صحيح سـعيد الأعرج يـدلّ على اسـتثناء مَـن عليهنّ الذبح مـن جواز التقصير وزيـارة البيت ليلـة العيد، وعلى هـذا يكـون ما يفهم من فقـرة: «إِلّا أَنْ يكنَّ يـرْدْنَ أَنْ يُذْبَحَ عَنْهُـنَّ فَإِنَّهُنَّ يوكلْـنَ مَنْ يذْبَحُ عَنْهُنَّ»، إحتمالين:

أ. يجـوز لمـن عليها الذبـح التقصير وزيـارة البيت ليلة العيـد أيضاً، لكن بعـد التوكيل في الذبح.

ب. لا يجـوز لمـن عليهـا الذبـح التقصـير وزيـارة البيـت ليـلاً وأمّـا التقصـير وزيـارة البيـت، فيجـوز لهـنّ بعـد الذبـح الذي عـبّر عنـه في كلام الإمـام عليه السلام بالتوكيـل في الذبح، وحيـث يكـون وقت الذبـح نهار العيـد، فيكون المـراد من هذه الفقـرة لزوم وقـوع الذبح ومـا يترتـب عليها من الأعـمال يوم العيـد، ولا ترخيص لمن عليهـا الذبـح إلّا في الإفاضة والرمي.

---

١. الحـر العامـلي، ١٤٠٩ ق، ٤ : ٢٧٣ ، عَـنْ عُمَـرَ بْـن حَنْظَلَـةَ أنهُ سَـأَلَ أَبَا عَبْـدِ اللهِ عليه السلام فَقَالَ لَـهُ: زَوَالُ الشَّـمْس نَعْرِفُـهُ بالنَّهَـار فَكيـفَ لَنَا باللَّيـل؟ فَقَالَ: «لِلَّيـل زَوَالٌ كـزَوَال الشَّـمْسَ. قَالَ: فَبـأي شَيءٍ نَعْرِفُـهُ؟ قَالَ بالنُّجُـوم إِذَا انْحَـدَرَتْ».

والـذي يقتـضي التأمّـل والنظـر الدقيـق هـو تعـيّن الاحتـمال الأول مـن بـين هذيـن الإحتمالـين وذلـك لمـا يلـى:

الأصـل في مقـام التخاطب هو كـون المتكلم في صـدد تفهيم كلامه بمدلولـه المطابقي إلّا أن يكـون في كلامـه قرينة علـى خلافه، وما يفهمـه المخاطب بالمطابقة مـن هذه الفقرة مـن كلام الإمام عليه السلام هـو لزوم التوكيل في الذبح لمـن عليها الذبح، لا وقـوع الذبح، وإرادة غـيره تحتاج إلى قرينـة و هي مفقـودة في المقام.

إن قلـت: نعـم، هذا صحيـحٌ ولكن بما أنّ الذبـح غالباً يقع من طريـق التوكيل ولا يقع مبـاشرةً، فالتعبـير بالتوكيـل إنّـما هـو مـن جهة بيـان لـزوم وقوع الذبـح و ليـس من جهة كفايـة نفـس التوكيل ولأجل ذلك قد صرّح في صحيحة سـعيد السـمّان بـأن لاتبرح حتى تذبـح ولايتوهّـم التنـافي بينهما مع أنّـه في فرض كفايـة التوكيل يقع التنـافي بينهما.

قلـت: وقـوع الذبـح غالباً مـن طريق التوكيـل، يُصحّـح إرادة هذه المعنى مـن المتكلم فقـط، وتوجّـه إرادة هـذا المعنى منـه، ولكن لايُثبـت أنّ المتكلّم في صدد تفهيـم هذا المعنى أيضـاً؛ إذن يُحتمـل أن يكـون المتكلـم في صدد بيـان أحد الأمريـن؛ لزوم التوكيـل أو لزوم وقـوع الذبـح وحيث لادليل على إرادة الثـاني، فيتعيّن إرادة مدلولـه المطابقي الذي يفهمه المخاطـب عنـد عـدم وجـدان القرينة علـى غيره؛ لكـن ما يفهمـه المخاطـب بالمطابقة من هـذه الفقـرة مـن كلام الإمـام عليه السلام هو لـزوم التوكيل فقـط لا كفايـة التوكيل؛ وأمّـا كفايته في جـواز التقصـير وزيـارة البيـت فقد يفهمـه المخاطـب بقرينـة أنّ الرواية في صـدد بيان ترخيـص الشـارع للنسـاء وتسـهيله لهـنّ في امتثـال أفعـال الحـجّ، ولايتحقـق الترخيص والتسـهيل فيهـنّ إلّا إذا كان الشـارع بصـدد بيـان جـواز التقصـير وزيارة البيت لهـنّ ليلة العيـد، وحيـث لا يجوز الاشـتغال بـما يترتب علـى الذبح من أفعـال الحج، فلـذا يرخّص لهـنّ في التقصـير وما بعده بعـد التوكيـل في الذبح.

أضـف إلى ذلـك: لايفهم عرفاً من الأمـر بالتوكيل في الذبح صرف لـزوم أخذ الوكيل

للذبح يوم العيد؛ وذلك لأنّ زمان الذبح يوم العيد ولايرى عرفاً لزومٌ لتعجيل في بيان لزوم التوكيل ليلة العيد، والفصاحة والبلاغة في الكلام تقتضيان أيضاً أن يكون استعمال الاستثناء لبيان أمر فوري لو لم يفعله المخاطب في ليلة العيد لفات الأمر به، وهذا لايتصور إلّا إذا كان المقصود من هذا الكلام بيان الترخيص وجواز التقصير وزيارة البيت لمن عليها الذبح أيضاً ولكن بعد التوكيل في الذبح ليلة العيد. وبعبارة أخرى حيث لايجوز لهنّ ذبح الهدي ليلة العيد، أمرهنّ الشارع بالتوكيل للذبح ليلة العيد حتى يتمكّنّ من التقصير وزيارة البيت ليلة العيد كمن ليس عليه الذبح؛ وبهذا الأمر يرفع المانع ويرخّص لهنّ أيضاً.

على أنّ في الروايات يوجد موارد يراد من الأمر بالتوكيل فيها معناه المطابقي، كصحيحة أبي بصير عن الصادق عليه السلام الآتية وصحيحة عليّ بن أبي حمزة عن أحدهما عليهما السلام قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَوْ رَجُلٍ خَائِفٍ أَفَاضَ مِنَ الْمُشْعَرِ الْحَرَامِ لَيْلاً فَلاَ بَأْسَ؛ فَلْيَرْمِ الْجَمْرَةَ ثُمَّ لْيَمْضِ وَلْيَأْمُرْ مَنْ يَذْبَحُ عَنْهُ وَتُقَصِّرُ الْمَرْأَةُ وَيَحْلِقُ الرَّجُلُ ثُمَّ لْيَطُفْ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ثُمَّ لْيَرْجِعْ إِلَى مِنًى فَإِنْ أَتَى مِنًى وَلَمْ يُذْبَحْ عَنْهُ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَذْبَحَ هُوَ وَلْيَحْمِلِ الشَّعْرَ إِذَا حَلَقَ بِمَكَّةَ إِلَى مِنًى، وَإِنْ شَاءَ قَصَّرَ إِنْ كَانَ قَدْ حَجَّ قَبْلَ ذَلِكَ»[1] ويفهم من هذه الرواية كفاية التوكيل للتقصير ومايترتب عليه أيضاً، إذ لو أراد الإمام عليه السلام معنى لزوم وقوع الذبح من فقرة: «وَلْيَأْمُرْ مَنْ يَذْبَحُ عَنْهُ» لوقع التناقض في كلامه، حيث قال عليه السلام بعد ذلك: «فَإِنْ أَتَى مِنًى وَلَمْ يُذْبَحْ عَنْهُ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَذْبَحَ هُوَ»؛ إذن يُفهم من كلامه عليه السلام لزوم التوكيل وبقرينة فقرة الأخيرة، كفاية التوكيل في صحة التقصير.

د ـ. صحيحة أبي بصير الأخرى عن الصادق عليه السلام:

وكصحيحة أبي بصير الأولى عن الصادق عليه السلام قال: عَنْ أَبِي الْمَغْرَاءِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ

١. الكافي، الكليني، ٤ : ٤٧٤.

أبي عَبْـدِالله عليه السلام قَـالَ: «رَخَّصَ رَسُـولُ الله صلى الله عليه وآله لِلنِّسَـاءِ والصِّبْيان أنْ يفيضُوا بلَيـل، وَيرْمُوا الْجِـمَارَ بلَيـل، وأنْ يُصَلُّـوا الْغَـدَاةَ فِي مَنَازِلِهِـمْ فَـإنْ خِفْنَ الْحَيـضَ مَضَينَ إلَى مَكـةَ ووكّلْنَ مَنْ يُضَحِّـي عَنْهُنَّ».[1]

وظاهـر هـذه الروايـة جـواز الرمـي لجميـع النسـاء ليلـة العيـد؛ لأنّ الترخيـص لهـنّ بـأداء الصـلاة في منازلهـن، يـدلّ على جـواز الرمي ليـلاً وقبل طلـوع الفجر وتـدلّ أيضاً أنّ الخائفـات مـن الحيـض، يجـوز لهـنّ المضيّ إلـى مكة بعـد التوكيـل في الذبـح والتقصير حيـث كان محـل التقصير قبـل زيارة البيـت بمقتضى أدلـة الترتيب في أفعـال الحج وليس المـراد مـن التوكيـل وقوع الذبـح، إذ لزوم التوكيل يناسـب التسـهيل الذي يفهـم من هذا الـكلام فيمن يخفـن الحيض.

هـ. صحيحة أبي بصير الثالثة عن الصادق عليه السلام:

«عَـلِيُّ بْـنُ إبْرَاهِيـمَ عَـنْ أبيهِ عَـن ابْـن أبي عُمَيْر عَـنْ حَفْص بْـن الْبخْتَرِيِّ وغَـيْرِهِ عَنْ أبي بَصِـير عَنْ أبي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «رَخَّصَ رَسُـولُ الله صلى الله عليه وآله لِلنِّسَـاءِ والضُّعَفَـاءِ أنْ يُفِيضُوا مِـنْ جَمْـع بلَيْـل وأنْ يَرْمُـوا الْجَمْـرَةَ بلَيْـل فَـإنْ أرَادُوا أنْ يَـزُورُوا الْبَيْـتَ وكَّلُـوا مَـنْ يَذْبَحُ عَنْهُنَّ».[2]

وهـذه الرواية تـدلّ على الترخيـص في الإفاضة ورمي جمـرة العقبة والتقصـير وزيارة البيـت ليلـة العيد لجميع النسـاء وبعد التوكيـل في الذبح لمن عليهـا الذبح.

إن قلـت: هـذه الفقـرة من الروايـة ـ أعنـي: «فَـإنْ أَرَادُوا أنْ يَـزُورُوا الْبَيْـتَ وكَّلُوا مَنْ يَذْبَـحُ عَنْهُـنَّ» ـ لا تـدلّ علـى جـواز زيارة البيـت ليلة العيد، بل تـدلّ على أنّهـنّ إذا أردن زيـارة البيـت يلزمهـنّ الذبـح قبـل ذلك بتوكيل مـن يقدر علـى ذلك، وحيـث كان وقت

١. الكليني، ١٤٠٧ق، ٤: ٤٧٤.
٢. الكليني، ١٤٠٧ق، ٤: ٤٧٥.

الذبح يوم العيد فتدلّ الرواية على جواز زيارة البيت بعد وقوع الذبح يوم العيد.

قلت: أولاً: كون المقصود من الأمر بالتوكيل في الذبح هو الذبح محتاج إلى دليل مثبت يوجب انصراف الذهن من معناه المطابقي إلى غيره، وهو مفقود في المقام كما مرّ آنفاً.

ثانياً: سياق الرواية بيان الترخيص والتسهيل لهنّ وهو يناسب جواز زيارة البيت بالنسبة لهنّ ليلة العيد لا في وقته.

ثالثاً: الرواية من جهة بيان وقت الإرادة لهنّ مطلقة وعلى هذا يجوز لهنّ أن يردن زيارة البيت ليلة العيد بعد التوكيل في الذبحّ ولا تنافي هذه الرواية ما يدل على لزوم الترتيب في أفعال الحج؛ لكون زيارة البيت بعد التوكيل في الذبح، فكأنّ زيارة البيت تقع بعد الذبح بسبب التوكيل فيه.

٣. التحقيق وبيان القول المختار:

فتحصل ممّا ذكرنا أنّ صحيحة سعيد السمّان منع من عليها الذبح من التقصير وما يترتب عليها من الأفعال، وأيضاً صحيحة سعيد الأعرج تدل على عدم جواز التقصير ليلة العيد لمن عليها الذبح بمقتضى مفهوم الشرط. لكنّ صحيحة ابن مُسكان عن أبي بصير تدلّ عرفاً على جواز التقصير وزيارة البيت ليلة العيد لهنّ بعد التوكيل في الذبح وأيضاً كذلك صحيحة أبي المغراء عن أبي بصير وإن كانت تدلّ على الجواز إلّا أنّه يختص بالمعذور من النساء إلّا أن يقال بعدم الفرق أو عدم الفصل وفي النهاية صحيحة أبي بصير الثالثة تدلّ على جواز زيارة البيت للنساء بعد التوكيل في الذبح.

وحيث يكون أسناد الروايات صحيحة، لا يلزم البحث عن السند و نُركّز البحث عن الدلالة وكيفية الجمع بين الروايات.

والـذي يقتـضي التأمـل والنظر الدقيق في تلـك الروايـات أنّها لا تدلّ علـى جواز ذبح الهدي بالنسـبة للنسـاء ليلـة العيد وتبيّن أنّـه يلزم أن يكـون ذبح الهدي يوم العيـد. فلذا لو كانـت المتمتعـة في صـدد الذبح بنفسـها، لزمتهـا أن تقيم ليلـة العيد في منـى وتذبح الهدي يـوم العيـد و إلّا يجـوز لهـا أن تـوكّل مـن يذبـح عنها قبـل أن تمضي ليـلاً إلى مكـة وزيارة البيت.

وقـال بعـض الأعـلام إسـتناداً إلـى مـا يفهـم العـرف في هـذا المجـال مـا هـذا نصُّه: «قـد يقـال ـ كـما قيـل ـ : إنّ صحيحـة أبي بصـير... تدلّ عـلى أنّه يجـوز لهم الذبـح بالليل، كـما تجوز لهـم الإفاضـة والرمي، بدعـوى أنّها بإطلاقها تشـمل مـا إذا أرادوا زيـارة البيت في الليـل فإنّهـم حينئـذٍ يوكلـوا من يذبـح عنهـم، بنكتـة أنّ موضع الطـواف مـن الناحية التسلسـلية يكـون بعـد الذبـح أو النحر.

والجـواب: أنّهـا لا تـدلّ على ذلـك؛ لوضـوح أنّ الذبـح لو كان جائـزاً لهـم في الليل لم تكـن هنـاك حاجـة إلى توكيـل مـن يذبـح عنهـم، فإنّهـم إذا أرادوا أن يـزوروا البيـت ليلاً فيقومـون بأنفسـهم بالذبـح أو النحر في الليـل، كما يقومـون كذلك برمي الجمـرة فيه، ثم يـزورون البيت.

فالنتيجـة أنّ أمـر الإمـام عليه السلام بالتوكيـل إذا أرادوا زيـارة البيـت ليـلاً يـدلّ عـلى أنّـه لا يجـوز لهـم الذبـح أو النحـر في الليـل. وبكلمـة: أنّ المسـتفاد من روايـة التوكيـل عرفاً هو أنّ الضعفـاء إذا أفاضوا من المشـعر ليـلاً ورموا الجمرة ليـلاً وأرادوا زيـارة البيت، فمعنى هـذا أنّهـم لا يريـدون البقـاء في منـى حتـى يقوموا في يـوم العيد بأعـمال ذلك اليـوم، منها الذبـح أو النحـر، فلذلـك أمـروا بتوكيـل من يذبح عنهـم في نهار العيـد. هـذا، إضافةً إلى أنّ سـكوت هـذه الروايـات عن الذبح لهـم بالليل، وتصريـح روايات الخائـف بجوازه له بالليـل شـاهد على عدم جـوازه لهم ليلاً، هـذا من ناحية، ومـن ناحية أخـرى أنّ مقتضاها جـواز التقصـير أو الحلـق لهم بالليـل على أسـاس أنّ موضعه مـن الناحية التسلسـلية قبل

زيـارة البيت».[1]

وأمّـا الاسـتناد إلى السـيرة في كلام المحقق الخوئـي‌ﷺ لإثبات عدم جـواز التقصير وما يترتـب عليـه من الأعمال لهـنّ ليلة العيـد ففيه:

أولاً: أنّها محتاجة في وجودها إلى الإثبات.

وثانيـاً: لو سـلم، لا اعتبار لها بعـد دلالة الروايـات على جواز التقصـير وزيارة البيت للنسـاء ليلة العيد، بعـد توكيلهنّ في الذبـح بما قرّرنا.

وثالثـاً: لـو سـلم اعتبارهـا فهـي مختصة بمـن تريد ذبح الهـدي يـوم العيـد؛ وأمّا كون سـيرة جميـع من عليها الذبـح على عدم التقصـير وزيارة البيـت ليلة العيد فهـو محتاج إلى دليـل مفقـود في المقـام؛ ولـو سـلم جميع مـا ذكـر فنهاية دلالة السـيرة علـى أنّ مـن عليها الذبـح، كانـت تقـصر وتفعل مـا يترتب عليـه بعد الذبـح يوم العيـد، ولاتـدلّ على عدم جـواز الإتيـان بهـذه الأعمال ليلـة العيد وقبـل زمانها.

ولا يمكـن الاسـتدلال أيضـاً مـع دلالة هـذه الروايـات على جـواز التقصـير وزيارة البيـت لهـنّ ليلـة العيـد بعـد التوكيـل في الذبـح، على عـدم جـواز هـذه الأفعال لهـنّ ليلة العيـد، بـصرف تأخـر رتبـة التقصـير أو الحلق عـن الذبح. ومفهـوم الـشرط في صحيحة سـعيد الأعـرج لـو سـلم يـدل علـى أنّ من عليهـا الذبـح مـا لم تذبـح لم يجز لهـا التقصير ليـلاً، ولا يـدلّ على عدم جـواز تقصيرهن ليـلاً بعد التوكيـل في الذبح. وبعبـارة أخرى: الإطـلاق المسـتفاد مـن المفهـوم في هـذه الروايـة يقيد بـما دل على جـواز التقصـير وزيارة البيـت لهـنّ ليلـة العيد بعـد توكيلهـنّ في الذبح.

وأمّـا الاسـتناد إلى الروايات الآمرة بالبـدأة بالرمي لإثبات عدم جـواز التقصير وزيارة البيـت ليـلاً ففي غايـة الضعف، وهـذا الاسـتدلال لو لم يـدل على خلاف مقصـوده،[1] لم يـدل علـى مقصـوده، حيث إنّـه لو ثبت جـواز الرمي بالنسـبة لهـنّ ليلة العيد ثبـت جواز

١. الفياض :٤٨٩.

الذبح والتقصير ليلة العيد، لترتبهما عليه.

فالنتيجة أنّه يمكن أن نعتقد بجواز التقصير وما يترتب عليه من الأعمال لمن عليها الذبح ليلة العيد بعد توكيلها في الذبح، وما أقامه بعض الأعلام لإثبات عدم الجواز من الاستدلال غير سديد ولا يمكن إثبات مطلوبهم به.

٤. نتيجة البحث:

١. المستفاد من مجموع الروايات هو أنّ الذبح يلزم أن يقع يوم العيد ولا يجوز ذبح الهدي قبل موعده إلّا للخائف؛ فلذا لو أرادت المتمتعة أن تذبح هديها بيدها فعليها أن تصبر ولا تبرح من منى حتى تذبح هديها يوم العيد. وأمّا إذا كانت ممّن عليها الذبح، يجوز لها أن تقصر وتزور البيت ليلة العيد بعد التوكيل في الذبح و قبل التقصير وما يترتب عليها من الأعمال.

٢. وإن كان المشهور على ألسنة الفقهاء جواز التقصير وزيارة البيت ليلة العيد للنساء اللاتي يخفن الحيض، إلّا أنّه مع ذلك لم يطرح البحث عن جواز التقصير وعدمه ليلة العيد لسائر النساء ممن عليهنّ الذبح في كلام المتقدّمين وعمدة المتأخّرين؛ وكانت فتوى عمدة الفقهاء المعاصرين على عدم جواز التقصير ليلاً لهنّ إلّا أنّ ما قام منهم لإثبات هذه الفتوى من الاستدلال مع قلّته لا يكفي لإثبات عدم الجواز، وما استفدنا من الروايات بالتقريب المتقدم أقوى وأدلّ في إثبات المطلوب، وهو جواز التقصير وزيارة البيت ليلة العيد لمن عليها الذبح بعد التوكيل في الذبح.

المصادر:

١. ابن زهرة، حمزة بن علي، غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع، الطبعة الأولى، ١٤١٧ق، قم، موسسة الإمام الصادق عليه السلام.

٢. أبو الصلاح الحلبي، تقي بن النجم، الكافي في الفقه، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ق،

إصفهـان، المكتبة العامـة للإمـام أمير المؤمنين عليه السلام

٣. التبريـزى، جـواد بـن عـلي، صراط النجـاة، الطبعـة الأولى، ١٤٢٧ق، قـم، دار الصديقـة الشـهيدة.

٤. التبريـزى، جـواد بـن عـلي، التهذيـب في مناسـك العمـرة و الحج، الطبعـة الأولى، ١٤٢٣ق، قـم، دار التفسـير.

٥. الحـر العامـلي، محمـد بـن الحسـن، تفصيـل وسـائل الشـيعة إلـى تحصيـل مسـائل الشريعـة، الطبعـة الأولى،١٤٠٩ق، قـم، مؤسسـة آل البيـت عليهم السلام.

٦. الحكيم، السـيد محمد سـعيد، مناسـك الحـج و العمـرة، الطبعة الثامنـة،١٤٢٢ق، بلا محـل، بـلا ناشر.

٧. الخوئـي، السـيد أبـو القاسـم الموسـوي، موسـوعة الإمـام الخويـي، الطبعـة الأولى،١٤١٨ق، قـم، مؤسسـة إحيـاء آثـار الإمـام الخويـي قدس سره.

٨. الخوئـي، السـيد أبـو القاسـم الموسـوي، المعتمـد في شرح المناسـك، الطبعـة الأولى،١٤١٠ق، قـم، منشـورات مدرسـة دار العلـم.

٩. السـبزواري، علي المؤمن القمي، جامع الخـلاف والوفاق، الطبعة الأولى،١٤٢١ق، قم، مهيئـين لظهور ولي العصر عليه السلام.

١٠. الشـبيري الزنجاني، السيد موسـى، مناسـك الحج، الطبعة الأولى،١٤٢١ق، قم، مؤسسـة الولاء للدراسات.

١١. الشـهيد الأول، محمـد بـن المكـي، الـدروس الشرعيـة في فقـه الإماميـة، الطبعـة الثانيـة،١٤١٧ق، قـم، مكتـب المطبوعـات الإسـلامية التابـع لجماعـة المدرسـين قم.

١٢. صاحـب الجواهـر، محمـد الحسـن بـن الباقـر، جواهـر الـكلام في شرح شرائـع الإسـلام، الطبعـة السـابعة،١٤٠٤ق، بـيروت، دار إحيـاء الـتراث العـربي.

١٣. العلامة الحلي، حسن بن يوسف، تذكرة الفقهاء، الطبعة الأولى،١٤١٤ق، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

١٤. الفياض الكابلي، محمد إسحاق، تعاليق مبسوطة على مناسك الحج، الطبعة الأولى،بلا تاريخ، قم، المنشورات المحلاتي.

١٥. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الطبعة الرابعة،١٤٠٧ق، طهران، دار الكتب الإسلامية.

١٦. الكيدري، محمد بن الحسين، إصباح الشيعة بمصباح الشريعة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ق، قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

١٧. المحقق الحلي، جعفر بن الحسن، شرايع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، قم، مؤسسة الإسماعيليان، ١٤٠٨ق.

مختصر الشمائل النبوية صلى الله عليه وآله

(١)

تأليف: الحسن بن صادق الحسيني آل المجدِّد الشيرازي

أمّا بعد: فهذا مقالٌ أودعت فيه طَرفاً من الشمائل النبويّة الشريفة، وضمّنته نُتفاً من الحِلْية المحمّديّة المنيفة، اقتضبته من كتابي المسمّى «منهاج الحُنفا في شمائل المصطفى صلى الله عليه وآله».

والله أسأل بجاه رسوله، أن يمنّ عليَّ بقبوله، إنّه جواد كريم، رؤوف رحيم.

١. باب ما جاء في خَلق رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/ ١] عن محمّد بن عيسى بن عبيد، قال: حدّثنا مولى علي بن موسى، عن علي بن موسى، عن آبائه عليهم السلام، عن علي عليه السلام أنّهم قالوا: يا علي، صِفْ لنا نبيَّنا صلى الله عليه وآله كأنّنا نراه، فإنّا مشتاقون إليه.

قال: كان النبيّ صلى الله عليه وآله أبيض اللَّون مُشرباً حمرة،[١] أدعج العين،[٢] سَبْط الشَّعْر،[٣] كَثّ

---

١. الإشراب: خلط لون بلون، كأنّ أحد اللونين سُقي اللونَ الآخر.

٢. الأدعج: الشديد سواد العين.

٣. السَّبط من الشعر: المنبسط المسترسل.

اللحيـة،[1] ذا وَفـرة،[2] دقيـق المَسْرُبـة،[3] كأنّما عنقه إبريـق فضّة يجـري في تراقيه الذهب.

لـه شـعر مـن لَبّتـه،[4] إلى سُرّتـه كقضيب خيـط إلى الـسُرّة، وليـس في بطنـه ولا صدره شـعر غيره.

شَثْن الكفّين والقدمين،[5] شَثْن الكعبين.

إذا مشى كأنّما ينقلع من صَخْر، وإذا أقبل كأنّما ينحدر من صَبَب.[6]

إذا التفت التفت جميعاً بأجمعه كلّه.

ليس بالقصير المتردّد،[7] ولا بالطويل المُمَّغِط،[8] وكان في وجهه تدوير.

إذا كان في النـاس غمرهـم.[9] كأنّـما عرقـه ـ في وجهـه ـ لؤلـؤ، عرقـه أطيـب مـن ريح المِسك.

ليس بالعاجز ولا باللئيم، أكرم الناس عِشْرةً، وألينهم عَريكة،[10] وأجودهم كفّاً.

من خالطه بمعرفة أحبّه، ومن رآه بديهةً هابه.

غُرّة،[11] بين عينيه.

---

١. الكثاثة في اللحية: أن تكون غير دقيقة ولا طويلة، وفيها كثافة.

٢. الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأُذن.

٣. المسربة: الشعر الدقيق الذي كأنّه قضيب من الصدر إلى السُرّة.

٤. اللَّبّة: النُقرة التي فوق الصدر وتحت العنق.

٥. الشثن: الغليظ الأصابع من الكفّين والقدمين.

٦. أراد عليه السلام أنّه صلى الله عليه وآله كان يستعمل التثبّت، ولا يبين منه في هذه الحالة استعجال ومبادرة شديدة.

٧. المتردّد: الداخل بعضه في بعض قِصَراً.

٨. المُمَّغط: الذاهب طولاً.

٩. أي: كان فوق كلّ من معه.

١٠. أي: طبيعة.

١١. الغرّة: البياض.

يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثلَه صلى الله عليه وآله. رواه الطوسي في (الأمالي).[1]

[٢/ ٢] وعن إسماعيل بن محمّد بن إسحاق بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين، قال: حدّثني علي بن موسى الرضا، عن آبائه، عن علي بن الحسين عليهم السلام، قال: قال الحسن بن علي عليه السلام: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حِلْية رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان وصّافاً للنبيّ صلى الله عليه وآله ـ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله فَخْماً مُفخَّماً،[2] يتلألأ وجهه تلؤلؤَ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع،[3] وأقصر من المشذَّب،[4] عظيم الهامة.[5] رَجِل الشَّعر،[6] إن انفرقت عقيقته،[7] فرَّق، وإلّا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره، أزهر اللون،[8] واسع الجبين، أزجّ الحواجب،[9] سوابغ في غير قَرَن،[10] بينهما عِرق يدرّه الغضب.[11]

أقنى العِرْنين،[12] له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمّله أشمَّ.[13]

---

١. أمالي الطوسيّ: ٣٤٠ ـ ٣٤١ ح٦٩٥.

٢. أي: جميلاً مهيباً، مع تمام كلّ ما في الوجه، من غير ضخامة ولا نقصان.

٣. المربوع: هو بين الطويل والقصير.

٤. المشذّب: الطويل الذي ليس بكثير اللحم.

٥. أي: تامّ الرأس في تدويره.

٦. أي: لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السُبوطة، بل بينهما.

٧. وفي رواية: عقيصته، والعقيقة: الشَّعر.

٨. الأزهر: الأنور الأبيض المشرق.

٩. الزجج: تقوّس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد.

١٠. القَرَن: التقاء الحاجبين، أي: إنّ حاجبيه صلى الله عليه وآله دقّا في حال تمامها.

١١. أي: يمتلئ دماً إذا غضب كما يمتلئ الضَرع لبناً إذا درّ.

١٢. القنا في الأنف: طوله ورقّة أرنبته مع حدَب في وسطه، والعِرنين: الأنف.

١٣. الشمم: ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلًا.

كَـثّ اللحيـة، سـهل الخدّيـن،[1] ضليـع الفـم[2] أشْـنَب،[3] مفلَّـج الأسـنان،[4] دقيـق المسرُبـة، كأنّ عنقـه جِـيد دُميـة،[5] في صفـاء الفضّة.

معتـدل الخَلـق،[6] بادنـاً متماسـكاً،[7] سـواء البطـن والصـدر،[8] بعيـدٌ مـا بـين المَنْكِبَيْن، ضخـم الكراديـس،[9] عريـض الصدر.

أنـور المتجـرَّد،[10] موصـول مـا بين اللَّبّـة والسُرة بشَـعر يجـري كالخطّ، عـاري الثديين والبطـن ممّـا سـوى ذلك، أشـعر الذراعـين والمنكبين وأعـلى الصدر.

طويـل الزندين، رحب الراحة،[11] شَـثْن الكفّين والقدمين، سـائل الأطراف،[12] سَـبْط القصـب،[13] خُمصان الأخمصين،[14] مسـيح القدمين ينبـو عنهما الماء.[15]

---

١. أي: سائل الخدّين غير مرتفع الوجنتين.

٢. أي: كبير الفم واسعه.

٣. الشَنَب: البياض والبريق والتحديد في الأسنان.

٤. الفلَج: فرجة ما بين الثنايا والرَباعيّات.

٥. الجِيد: العُنُق، والدُمْية: الصورة.

٦. أي: كلّ شيءٍ من بدنه يناسب ما يليه في الحُسن والتمام.

٧. البادن: التامّ اللحم، والمتماسك: الممتلئ لحماً غير مسترخٍ.

٨. أي: ليس بطنه مرتفعاً، ولكنّه مساوٍ لصدره.

٩. الكراديس: رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين وغيرهما.

١٠. أي: ما جُرّد عنه الثياب من جسده وكُشف، يريد أنّه كان مُشرق الجسد.

١١. يكنّون به عن السخاء والكرم. [بل هنا أي: مبسوط الكفين].

١٢. أي: ممتدّها.

١٣. السبط: الممتدّ الذي ليس فيه تعقّد ولا نتوء، والقصب: يريد بها ساعديه وساقيه.

١٤. الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء، والخمصان: المبالغ منه، أي: إنّ ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض.

١٥. أي: ملساوان ليّنتان، ليس فيهما تكسّر ولا شُقاق، فإذا أصابهما الماء نبا عنهما.

إذا زال زال قلْعاً، يخطو تكفّؤاً ويمشي هَوْناً،[1] ذريع المِشْية،[2] كأنّما ينحطّ في صَبَب.[3]

وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطَّرْف.[4] نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلّ نظره الملاحظة،[5] يبدر من لقيه بالسلام. رواه ابن بابويه في (العيون) و(معاني الأخبار).[6]

[٣/٣] وعن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: صف لي نبيَّ الله صلى الله عليه وآله، قال: كان نبيّ الله صلى الله عليه وآله أبيض مُشرب حمرة، أدعج العين، مقرون الحاجبين، شَثْن الأطراف، كأنّ الذهب أُفرغ على براثنه،[7] عظيم مُشاشة المنكبين.[8]

إذا التفت يلتفت جميعاً من شدّة استرساله، سُربته[9] سائلة من لَبّته إلى سُرّته كأنّها وسط الفضّه المصفّاة، وكأنّ عنقه إلى كاهله[10] إبريق فضّة، يكاد أنفه إذا شرب أن يرد الماء.

إذا مشى تكفّأ[11] كأنّه ينزل من صَبب.

---

١. الهَوْن: الرفق واللّين والتثبّت.

٢. أي: سريع المشي واسع الخَطْو.

٣. الصبب: الحدور.

٤. أي: العين.

٥. أي: النظر بشِقّ العين الذي يلي الصُدْغ.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣١٦ـ٣١٧ ح١، معاني الأخبار: ٨٠ـ٨١ ح١.

٧. البراثن: جمع بُرثُن، وهي: الكفّ مع الأصابع.

٨. المشاش: رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين.

٩. السُربة: ما رقّ من الشَّعر وسط الصدر إلى البطن إلى السُرّة كالمسربة.

١٠. الكاهل: ما بين الكتفين.

١١. أي: تمايل إلى قُدّام.

لم يُر مثل نبيّ الله صلى الله عليه وآله قبله ولا بعده.

رواه الكليني.[1]

[٤/ ٤] وعن سالم بن أبي حفصة العجلي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة لم تكن في أحدٍ غيره: لم يكن له فيء، وكان لا يمرّ في طريق فيمرّ فيه بعد يومين أو ثلاثة إلّا عُرف أنه قد مرّ فيه لطيب عَرْفه.[2] وكان لا يمرّ بحجَر ولا شجر إلّا سجد له.

رواه الكليني.[3]

[٥/ ٥] وعن إسماعيل بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رُئي في الليلة الظلماء رُئي له نور كأنّه شِقّة قمر.

رواه الكليني.[4]

٢. باب ما جاء في خاتم النبوّة

[٦/ ١] عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا ولد النبي صلى الله عليه وآله جاء رجل من أهل الكتاب إلى ملإٍ من قريش، فيهم هِشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة والعاص بن هِشام وأبو وجزة بن أبي عمرو بن أُميّة وعُتبة بن ربيعة، فقال: أوُلِدَ فيكم مولود الليلة؟ قالوا: لا.

قال: فولد إذاً بفلسطين غلامٌ يقال له أحمد، به شامة كلَوْن الخزّ الأدكن، ويكون هلاك أهل الكتاب واليهود على يديه، قد أخطأكم ـ والله ـ يا معشر قريش.

---

١. الكافي ١: ٤٤٣ ح١٤.
٢. العَرْف: الريح الطيّبة.
٣. الكافي ١: ٤٤٢ ح١١.
٤. الكافي ١: ٤٤٦ ح٢٠.

فتفرّقوا وسألوا، فأُخبروا أنّه وُلِد لعبدالله بن عبد المطّلب غلامٌ، فطلبوا الرجل فلقوه، فقالوا: إنّه قد وُلِد فينا ـ والله ـ غلامٌ.

قال: قبلَ أن أقول لكم أو بعد ما قلتُ لكم؟ قالوا: قبل أن تقول لنا.

قال: فانطلقوا بنا حتّى ننظر إليه، فانطلقوا حتّى أتوا أُمَّه، فقالوا: أخرجي ابنك حتّى ننظر إليه.

فقالت: إنّ ابني ـ والله ـ لقد سقط وما سقط كما يسقط الصبيان، لقد اتّقى الأرض بيديه، ورفع رأسه إلى السماء فنظر إليها، ثمّ خرج منه نور حتّى نظرت إلى قصور بُصرى، وسمعتُ هاتفاً في الجوّ يقول: لقد ولدتيه سيّد الأُمّة، فإذا وضعتيه فقولي: أُعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد، وسمّيه محمّداً.

قال: فأخرجَتْه، فنظر إليه ثمّ قلّبه ونظر إلى الشامة بين كتفيه فخرّ مغشيّاً عليه، فأخذوا الغلام فأدخلوه إلى أُمّه وقالوا: بارك الله فيه.

فلمّا خرجوا أفاق، فقالوا له: مالك ويلك!؟ قال: ذهبت نبوّة بني إسرائيل إلى يوم القيامة، هذا ـ والله ـ مَن يُبيرهم.[1]

ففرحت قريش بذلك، فلمّا رآهم قد فرحوا قال: فرحتم؟ أما والله ليسطُوَنَّ بكم سطوةً يتحدّث بها أهل المشرق والمغرب، وكان أبوسفيان يقول: يسطو بمصره؟!

رواه الكليني، ورواه الطوسي في (الأمالي)،[2] بإسناده عن محمّد بن عبّاد بن سريع البارقي، عن جعفر بن محمّد عليه السلام مختصراً.

٣. باب ما جاء في شَعر رسول الله صلى الله عليه وآله

[٧/ ١] عن إسماعيل بن محمّد بن إسحاق بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين،

---

١. يُبيرهم: أي يهلكهم.

٢. الكافي ٨: ٣٠٠ ح٤٥٩، أمالي الطوسي: ١٤٥ ـ ١٤٦ ح٢٣٩.

عـن الرضـا، عـن آبائه عليهم السلام، عن علي بن الحسـين، عن الحسـن بـن علي عليه السلام عـن خاله هند بـن أبي هالـة في حديث الحِلية قال: كان رسـول الله صلى الله عليه وآله رَجِـلَ الشَـعر، إن انفرقت عقيقته فـرَّق، وإلّا فلا يجاوز شَـعره شـحمة أُذنيـه إذا هو وفّره.

رواه ابن بابويه في (العيون) و (معاني الأخبار).[1]

[٨/ ٢] وعـن أيّـوب بن هارون، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أكان رسـول الله صلى الله عليه وآله يفرّق شَـعره؟ قال: لا، إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله كان إذا طال شعره كان إلى شحمة أُذنه.

رواه الكليني.[2]

٤. باب ما جاء في ترجّل رسول الله صلى الله عليه وآله وتسريح لحيته

[٩/ ١] عـن إسـماعيل بـن موسـى بـن جعفـر، عـن أبيـه، عن جـدّه، عـن آبائـه، عن علي بـن أبي طالـب عليهم السلام قـال: كان رسـول الله صلى الله عليه وآله يرجّـل[3] شـعره، وأكثـر مـا كان يرجّـل شـعره بالمـاء، ويقـول: كفـى بالمـاء للمؤمـن طيباً.

رواه ابن الأشعث.[4]

[١٠/ ٢] وعـن عبـد الرحمن بن الحجّـاج، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسـول الله صلى الله عليه وآله يـسرّح تحـت لحيتـه أربعين مـرّة، ومن فوقها سـبع مـرّات، ويقـول: إنّـه يزيـد في الذهن، ويقطـع البلغم.

رواه ابن بابويه في (الخصال).[5]

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣١٦ ح١، معاني الأخبار: ٨٠ ح١ من حديث ٢/ ٢ : ٣و٤ .
٢. الكافي ٦ : ٤٨٥ ح٣.
٣. يرجّل: أي يسرّح.
٤. الجعفريّات: ٢٥٧ ح١٠٣٧.
٥. الخصال ١ : ٢٦٨ ح٣.

٥. باب ما جاء في خضاب رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/ ١١] عن العلاء بن رَزين، سأل محمّد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام عن الخضاب، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يختضب، وهذا شَعره عندنا.

رواه ابن بابويه.[١]

[٢/ ١٢] وعن الحلبي، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن خضاب الشعر، فقال: خضب النبيّ صلى الله عليه وآله والحسين بن علي وأبو جعفر عليهم السلام بالكَتَم.[٢]

رواه الكليني.[٣]

٦. باب ما جاء في كحل رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/ ١٣] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسافر بستّة أشياء: بالقارورة، والمِقَصّ، والمُكْحُلَة، والمرآة، والمشط، والسِّواك.

رواه ابن الأشعث.[٤]

[٢/ ١٤] وعن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: كان للنبي صلى الله عليه وآله مُكْحُلة يكتحل منها في كلّ ليلة ثلاث مَراود[٥] في كلّ عين؛ عند منامه.

رواه ابنا بسطام في (طبّ الأئمّة عليهم السلام).[٦]

---

١. الفقيه ١: ١٢٢ ح٢٧٧.
٢. الكتم: نبتٌ يخلط مع الوسمة ويُصبَغ به الشَّعر، أسود، وقيل: هو الوسمة.
٣. الكافي ٦: ٤٨١ ح٧.
٤. الجعفريّات: ٣٠٦ ح١٢٦١.
٥. المِرْوَد: الميل الذي يكتحل به.
٦. طبّ الأئمّة عليهم السلام: ٤١٣.

[١٥/ ٣] وعـن سـليم الفرّاء، عن رجـل، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسـول الله صلى الله عليه وآله يكتحـل بالإثْمِد[١] إذا آوى إلى فراشـه؛ وَتْراً وَتْراً.

رواه الكليني.[٢]

[١٦/ ٤] وعـن زرارة بـن أعـيَن، عـن أبي عبـدالله عليه السلام قـال: إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله كان يكتحـل قبـل أن ينـام أربعـاً في اليمنـى وثلاثـاً في اليـسرى. رواه الكلينـي.[٣]

٧. باب ما جاء في سواك رسول الله صلى الله عليه وآله

[١٧/ ١] عـن حَنـان بـن سَـدير، عـن أبيـه، عـن أبي جعفـر عليه السلام قـال: لمّـا بعـث الله محمّـداً صلى الله عليه وآله أوحـى إليـه مـع جبرئيـل بالسـواك والخِـلال.

رواه البرقي والكليني.[٤]

[١٨/ ٢] وعـن محمّـد بـن مسـلم، عـن أبي جعفـر عليه السلام قـال: قـال النبـي صلى الله عليه وآله: مـا زال جبرئيـل يوصينـي بالسـواك حتّـى خِفـتُ أن أحفـي ـ أو أُدْرد ـ.[٥]

رواه الكليني.[٦]

[١٩/ ٣] وعـن أبي بصـير، عـن أبي عبدالله، عـن آبائه عليهم السلام قال: قـال أمير المؤمنين عليه السلام: السـواك مرضاة الله، وسـنّة النبي صلى الله عليه وآله ومَطهرة للفم.

---

١. الإثمد: حَجَر يُكتَحل به.

٢. الكافي ٦: ٤٩٣ ح١٢.

٣. الكافي ٦: ٤٩٥ ح١٢.

٤. المحاسن: ٥٥٨ ح٩٢٤، الكافي ٤: ٥٤٦ ح٣٢.

٥. الشـكّ مـن بعض الرواة، و«أُحفي» أي أسـتقصي على أسـناني فأُذهبهـا بالتسـوّك، و«أُدْرد» من الدرد وهو سـقوط الأسـنان، يقال: درد أي سـقطت أسـنانه وبقيت أُصولها، فهو أدْرَد.

٦. الكافي ٣: ٢٣ ح٣.

رواه البرقي.[1]

[٢٠/ ٤] وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام ومحمّد الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر من السواك.

رواه البرقي.[2]

٨. باب ما جاء في لباس رسول الله صلى الله عليه وآله

[٢١/ ١] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهم السلام قال: قال أبي علي بن الحسين عليه السلام: يا بُنيَّ اتّخذ ثوباً للغائط، رأيت الذباب يقعن على الشيء الرقيق ثمّ يقعن عليَّ، قال: ثمّ أتيته فقال: ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا لأصحابه إلّا ثوباً ثوباً، فرفضه. رواه ابن الأشعث.[3]

[٢٢/ ٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: البسوا الثياب من القُطن، فإنّه لباس رسول الله صلى الله عليه وآله ولباسنا، ولم يكن يلبس الصوف والشَّعر إلّا من علّة.

رواه الكليني وابن بابويه في (الخصال).[4]

[٢٣/ ٣] وعن ابن القدّاح، عن أبي عبدالله عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كانت له ملحفة مُوَرَّسة[5] يلبسها في أهله حتّى تردع على جسده.[6] رواه الكليني.[7]

---

١. المحاسن: ٥٦٢ ح٩٥٢.

٢. المحاسن: ٥٦٣ ح٩٦٠.

٣. الجعفريّات: ٢٦ ح٢٧ [وفيه إجمال بل إبهام].

٤. الكافي ٦ : ٤٥٠ ح٢ و٦ : ٤٤٦ ح٤، الخصال ٢ : ٦١٣ ح١٠.

٥. أي: مصبوغة بالوَرْس، وهو نبت أصفر يصبغ به.

٦. أي تنفُض صبغَها على جسده.

٧. الكافي ٦ : ٤٤٨ ح٩.

[٢٤/ ٤] وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: إنّ آخر صلاة صلاّها رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس في ثوب واحد قد خالف بين طرفيه، ألا أُريك الثوب؟ قلت: بلى، فأخرج ملحفة، فذرعتها وكانت سبعة أذرع في ثمانية أشبار.

رواه ابن بابويه.[١]

[٢٥/ ٥] وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لبس رسول الله صلى الله عليه وآله الطاق والساج والخمائص.[٢]

رواه الكليني.[٣]

[٢٦/ ٦] وعن السَّكُوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس القلانس اليمنيّة، والبيضاء، وذات الأُذنين؛ في الحرب، وكانت عمامته السحاب، وكان له بُرنُس[٤] يتبرنس به.

رواه الكليني.[٥]

٩. باب ما جاء في عيش رسول الله صلى الله عليه وآله

[٢٧/ ١] عن هِشام بن سالم وغيره، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما كان شيء أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يظلّ جائعاً خائفاً في الله.

---

١. الفقيه ١ : ٣٨٤ ح١١٣٥.

٢. الطاق: ضربٌ من الثياب، والساج: الطيلسان الأخضر أو الأسود، والخمائص: جمع خميصة وهي ثوب خزّ أو صوف مُعْلَم، وقيل: لا تسمّى خميصةً إلّا أن تكون سوداء مُعْلَمة، وكانت من لباس الناس قديماً.

٣. الكافي ٦ : ٤٤١ ح٢.

٤. البرنس: كلّ ثوب رأسه منه ملتزق به.

٥. الكافي ٦ : ٤٦١ ـ ٤٦٢ ح١.

رواه الكليني.[1]

[٢٨/ ٢] وعن عبدالله بن سِنان، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله كان قُوته الشعير من غير أدْم.[2]

رواه الأهوازي في (الزهد).[3]

[٢٩/ ٣] وعن عبدالله بن محمّد بن علي الرازي التميمي، عن علي بن موسى الرضا، عن آبائه، عن علي عليهم السلام قال: ما شبع النبي صلى الله عليه وآله من خبز بُرّ،[4] ثلاثة أيّام حتّى مضى إلى سبيله.

رواه ابن بابويه في (العيون).[5]

[٣٠/ ٤] وعن أحمد بن عامر الطائي، وأحمد بن عبدالله الشيباني، وداود بن سليمان الغازي، عن أبي الحسن الرضا، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: كنّا مع النبي صلى الله عليه وآله في حفر الخندق إذ جاءت فاطمة عليها السلام ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: ما هذه الكسرة؟ فقالت: قرص خبزته للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسرة، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أما إنّه أوّل طعام دخل فمَ أبيكِ منذ ثلاث.

رواه ابن بابويه في (العيون).[6]

[٣١/ ٥] وعن معمَّر بن خَلاّد، عن الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر عليهم السلام: أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام قال: دخلت السوق فابتعتُ لحماً بدرهم، وذرّة بدرهم، فأتيت

---

١. الكافي ٨: ١٢٩ ح٩٩ و٨: ١٦٣ ح١٧١ و٢/ ١٢٩ ح٧.

٢. الأُدْم: ما يؤكل مع الخبز أيّ شيءٍ كان.

٣. الزهد: ٦٥ ح٧٢.

٤. البُرّ: القمح.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٤ ح٢٨١.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٠ ح١٢٣، صحيفة الرضا عليه السلام: ٧١ ـ ٧٢ ح٤١. وانظر: قرب الإسناد: ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ح١٢٢٨.

بـه فاطمـة عليها السلام حتّـى إذا فرغـت مـن الخَبْـز والطبـخ قالـت: لـو دعـوتَ أبي، فأتيتـه وهو مضطجـع، وهـو يقـول: أعـوذ بـالله مـن الجـوع ضجيعـاً، فقلت لـه: يـا رسـول الله، إنّ عندنـا طعامـاً، فقـام واتّكأ عـلَيَّ ومضينا نحو فاطمـة عليها السلام، فلـمّا دخلنا قال: هلـمَّ طعامك يـا فاطمـة، فقدّمـت إليـه البُرْمـة،[1] والقـرص، فغطّـى القـرص وقـال: اللهمّ بـارك لنا في طعامنـا، ثـمّ قـال: إغرفي لعائشـة فغرفتْ، ثـمّ قال: إغـرفي لأُمّ سـلمة فغرفـتْ، فما زالت تغـرف حتّـى وجّهـت إلى نسـائه التسـع قرصـةً قرصـةً ومرقـاً، ثـمّ قـال: اغـرفي لأبيـك وبعلـك، ثـمّ قـال: اغـرفي وكُلي واهـدي لجاراتك، ففعلـتْ وبقي عندهـم أيّامـاً يأكلون. رواه الحِمْيَري.[2]

[٣٢/ ٦] وعـن عمـرو بـن هـلال، قال: قـال أبـو جعفـر عليه السلام: إيّـاك أن تطمح بصرك إلى مـن هـو فوقك، فكفـى بما قـال الله عزّ وجـلّ لنبيّـه صلى الله عليه وآله: ﴿فَلاَ تُعْجِبْـكَ أَمْوَالُهُـمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُـمْ﴾ [التوبـة/ ٥٥] وقـال: ﴿وَلاَ تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْـكَ إِلَى مَـا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًـا مِنْهُمْ زَهْـرَةَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه/ ١٣١] فـإن دخلك من ذلك شيءٌ فاذكر عيشَ رسـول الله صلى الله عليه وآله فإنّـما كان قُوتـه الشَّـعير، وحلواه التمـر، ووقوده السـعف؛ إذا وجـده. رواه الكليني.[3]

[٣٣/ ٧] وعـن محمّد بن مسـلم قـال: دخلت عـلى أبي جعفر عليه السلام ذات يـوم وهو يأكل متّكئـاً، قـال: وقـد كان يبلغنـا أنّ ذلك يكـره، فجعلت أنظر إليـه، فدعـاني إلى طعامه، فلـمّا فـرغ قـال: يـا محمّد، لعلّـك ترى أنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله ما رأته عـين ـ وهو يـأكل ـ وهو متّكئ مـن أن بعثـه الله إلى أن قبضـه، ثـمّ قـال: يـا محمّـد، لعلّك تـرى أنّه شـبع من خبز بُـرّ ثلاثة أيّـام متواليـة مـن أن بعثـه الله إلى أن قبضـه، ثـمّ ردّ عـلى نفسـه، ثـمّ قـال: لا والله ما شـبع رسـول الله صلى الله عليه وآله مـن خبـز الـبُرّ ثلاثـة أيّـام متوالية منـذ بعثـه الله إلى أن قبضـه، أمـا إنّني لا

---

١. البُرْمة: أي القِدر من حجر.
٢. قرب الإسناد: ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ح١٢٢٨.
٣. الكافي ٢ : ١٣٧ ـ ١٣٨ ح١، الزهد: ٤٧ ح٢٤.

أقـول: إنّـه كان لا يجـد، لقـد كان يجيـز الرجل الواحـد بالمئة من الإبـل، فلـو أراد أن يأكل لأكل، ولقـد أتـاه جبرئيـل عليه السلام بمفاتيـح خزائـن الأرض ثـلاث مـرّات يخيِّره مـن غير أن ينقصـه الله تبـارك وتعـالى ممّا أعـدّ له يـوم القيامة شـيئاً، فيختـار التواضع لربّه جـلّ وعزّ، ومـا سُـئل شـيئاً قطّ فيقـول: لا، إن كان أعطـى، وإن لم يكن قـال: يكون، ومـا أعطى على الله شـيئاً قـطّ إلّا سـلّم ذلك إليـه، حتّـى إن كان ليعطي الرجـل الجنّة فيُسـلِّم الله ذلك له.

رواه الكليني، والطوسي في (الأمالي).[1]

[٨/٣٤] وعن عليّ بن أسـباط، عن أبيه، أنّ أبا عبدالله عليه السلام سُـئل: أكان رسـول الله صلى الله عليه وآله يقـوت عيالـه قوتـاً معروفاً؟ قـال: نعـم، إنّ النفس إذا عرفـت قوتها قنعت بـه ونبت عليه اللحم.

رواه الكليني.[2]

[٩/٣٥] وعـن معاويـة بـن وَهْب، عـن أبي عبدالله عليه السلام قـال: قد مات رسـول الله صلى الله عليه وآله وعليـه دَين.

رواه البرقـي والكلينـي، وابـن بابويـه في (علـل الشرائـع) و (كتـاب مـن لا يحـضره الفقيـه).[3]

[١٠/٣٦] وعـن الحسـين بـن علـوان، عـن جعفـر، عن أبيـه عليهما السلام: أنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله لم يـورِّث دينـاراً ولا درهمـاً، ولا عبـداً ولا وليـدة، ولا شـاة ولا بعـيراً، ولقـد قُبـِض رسـول الله صلى الله عليه وآله وإنّ درعـه مرهونـة عند يهـوديّ من يهـود المدينة بعشرين صاعاً من شَـعير استسـلفها نفقـةً لأهلـه. رواه الحِمْيَري.[4]

---

١. الكافي ٨ : ١٢٩ ـ ١٣٠ ح١٠٠ ـ أمالي الطوسي: ٦٩٢ ح١٤٧٠.

٢. الكافي ٤ : ١٢ ح٧.

٣. المحاسن: ٣١٩ ح٤٦، الكافي ٥ : ٩٣ ح٢، علل الشرائع ٢ : ٥٩٠ ح٣٧، الفقيه ٣ : ١٨٣ ح٣٦٨٦.

٤. قرب الإسناد: ٩١ ـ ٩٢ ح٣٠٤.

١٠. باب ما جاء في نعل رسول الله صلى الله عليه وآله

[٣٧/ ١] عن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أُقيمت الصلاة لبس نعليه وصلّى فيهما.

رواه ابن بابويه في (علل الشرائع).[١]

[٣٨/ ٢] وعن عامر بن خزاعة قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فقال: ألا أريك نعل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: قلت: بلى، فدعا بقِمَطْر،[٢] فأخرج منه نعلين كأنّما رفعت الأيدي عنهما تلك الساعة، فقال: هذا نعل رسول الله صلى الله عليه وآله.

رواه الصفّار.[٣]

[٣٩/ ٣] وعن إسحاق الحذّاء قال: أرسل إليّ أبو عبدالله عليه السلام ـ ونحن بمنى ـ ائتني ومعك كِنْفك،[٤] قال: فأتيته في مِضْرَبة[٥] فسلّمت عليه فردّ عليّ، وأومأ إليّ أن اجلس فجلست، ثمّ تناول نعلاً جديداً فرمى بها إليّ، فلمّا أردت أن أذهب قلت: جعلت فداك، لو وهبت لي هذه النعل وكنت أحذو عليها، فرمى إليَّ بالفرد الآخر، فقال: واحدة أيّ شيءٍ تنفعك؟ قال: وكانت مُعَقَّبة،[٦] مُخَصَّرة،[٧] من وسطها، لها قِبالان، ولها رؤوس، فقال: هذا حَذْو النبي صلى الله عليه وآله.

رواه الكليني.[٨]

---

١. علل الشرائع: ٣٣٦ ح١.
٢. القمطر: ما يُصان فيه الكتب.
٣. بصائر الدرجات: ١٨٢ ح٢٩.
٤. كِنْف الراعي: وعاؤه الذي يجعل فيه آلته.
٥. المضربة: الفسطاط العظيم.
٦. المعقَّبة: التي لها عقب.
٧. أي: قُطع خَصراها حتّى صارا مستدقَّين.
٨. الكافي ٦: ٤٦٣ ح٨.

١١. باب ما جاء في خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله

[٤٠/ ١] عن عبدالله بن سِنان قال: ذكرنا خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: تحبّ أن أُريكه؟ فقلت: نعم، فدعا بحُقّ،[١] مختوم ففتحه وأخرجه في قطنة، فإذا حلقة فضّة وفيه فصّ أسود مكتوب عليه سطران: (محمّد رسول الله) قال: ثمّ قال: إنّ فصّ النبيّ صلى الله عليه وآله أسود.

رواه الكليني.[٢]

[٤١/ ٢] وعن معاوية بن وَهْب، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله مِن ورق،[٣] قال: قلت له: كان فيه فصّ؟ قال: لا.[٤]

رواه الكليني.[٥]

[٤٢/ ٣] وعن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله اتّخذ خاتماً من ورق، فصّه منه، كان يجعله في باطن كفّه، وكان كثيراً ما ينظر إليه، وكان نقشه (محمّد رسول الله).

رواه ابن الأشعث.[٦]

[٤٣/ ٤] وعن إبراهيم بن أبي البلاد [عن أبيه] عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وآله خاتمان: أحدهما عليه مكتوب (لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله) والآخر (صدق الله).

---

١. الحُقّ: الوعاء.

٢. الكافي ٦: ٤٧٤ ح٧.

٣. أي: فضّة.

٤. لا منافاة بين هذا الحديث والذي قبله، لاحتمال أن يكون له صلى الله عليه وآله خاتمان أو أكثر كما سيأتي.

٥. الكافي ٦: ٤٦٨ ح٢.

٦. الجعفريّات: ٣٠٨ ح١٢٧٤.

رواه ابن بابويه في (الخصال).[1]

١٢. باب ما جاء في تختّم رسول الله صلى الله عليه وآله في يمينه

[٤٤/ ١] عن عبدالله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبدالله عليه السلام: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يتختّم في يمينه.

رواه الكليني، وابن بابويه في (علل الشرائع).[2]

[٤٥/ ٢] وعن محمّد بن أبي عُمَير، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتختّم بيمينه.

رواه ابن بابويه في (علل الشرائع).[3]

[٤٦/ ٣] وعن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله متختّماً في يمينه.

رواه ابن الرازي في (المسلسلات).[4]

١٣. باب ما جاء في صفة راية رسول الله صلى الله عليه وآله ولوائه

[٤٧/ ١] عن أبي البَخْتَري وَهْب بن وَهْب القرشي، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث عليّاً عليه السلام يوم بني قريظة بالراية، وكانت سوداء تُدعى (العقاب).[5] وكان لواؤه أبيض.

---

١. الخصال ١: ٦١ ح٨٥.
٢. الكافي ٦: ٤٦٩ ح١١، علل الشرائع: ١٥٨ ح٢.
٣. علل الشرائع: ١٥٨ ح١.
٤. كتاب المسلسلات: ٢٤٦.
٥. وهي: العلم الضخم.

رواه الحِمْيَري.[1]

[٤٨/ ٢] وعن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له لواء يُسمّى (المعلوم).

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[2]

[٤٩/ ٣] وعن علي بن سعيد قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فسمعته يقول: إنّ عندي لخاتم رسول الله صلى الله عليه وآله ودرعه وسيفه ولواؤه. رواه الصفّار.[3]

١٤. باب ما جاء في صفة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وعَنَزته وقضيبه

[٥٠/ ١] عن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له سيفان، يقال لأحدهما: ذوالفقار،[4] وللآخر العَون، وكان له سيفان آخران يقال لأحدهما: (المِخْذَم)،[5] وللآخر (الرَّسوم).[6]

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[7]

[٥١/ ٢] وعن أحمد بن أبي عبدالله، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن ذي الفقار سيف رسول الله صلى الله عليه وآله من أين هو؟ قال: هبط به جبرئيل عليه السلام من السماء، وكانت حليته من فضّة، وهو عندي.

---

١. قرب الإسناد: ١٣١ ح٤٥٧.

٢. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤ : ١٧٩ ح٥٤٠٦.

٣. بصائر الدرجات: ١٧٨ ح١٢.

٤. سُمّي به لحُفَر كانت في متنه حسنة.

٥. الخَذْم: سرعة القطع، وبه سمّي السيف مخذماً.

٦. وقيل: الرَسوب.

٧. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤ : ١٧٨ ح٥٤٠٦.

رواه الصفّار والكليني، وابن بابويه في (الأمالي).[1]

[٥٢/ ٣] وعن السَّكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وقائمته فضّة،[2] وكان بين ذلك حِلَق من فضّة.

رواه الكليني وابن الأشعث.[3]

[٥٣/ ٤] وعن حاتم بن إسماعيل، عن أبي عبدالله عليه السلام: أنّ حِلية سيف رسول الله صلى الله عليه وآله كانت فضّة كلّها، قائمته وقِباعه.[4]

رواه الكليني.[5]

[٥٤/ ٥] وعن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كانت له عَنَزة[6] في أسفلها عُكّاز،[7] يتوكّأ عليها، ويخرجها في العيدين يصلّي إليها، وكان يجعلها في السفر قبلة يصلّي إليها.

رواه ابن الأشعث.[8]

[٥٥/ ٦] وعن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كانت له عَنَزة يتّكئ عليها، ويخرجها في العيدين فيخطب بها، وكان له قضيب يقال له: الممشوق.[9]

---

١. بصائر الدرجات: ٨٠ ح٢١ و١٨٩ ح٥٧، الكافي ١ : ٢٣٤ ح٥، أمالي الصدوق: ٢٣٨ ح١٠.

٢. نعل السيف: الحديدة التي تكون في أسفل القراب، وقائمته: مقبضه.

٣. الكافي ٦ : ٤٧٥ ح٤، الجعفريّات: ٣٠٦ ح١٢٦٠.

٤. القبيعة: هي التي تكون على رأس قائم السيف، وقيل: هي ما تحت شارِبَي السيف.

٥. الكافي ٦ : ٢٧٥ ح٦.

٦. العنَزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح.

٧. العكّاز: عصاً ذات زجّ في أسفلها يتوكّأ عليها الرجل.

٨. الجعفريّات: ٣٠٥ ح١٢٥٨.

٩. الممشوق من القضبان: الطويل الدقيق.

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[1]

١٥. باب ما جاء في صفة درع رسول الله صلى الله عليه وآله

[٥٦/ ١] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له درع تسمّى (ذات الفضول)،[2] وكانت لها ثلاث حلقات من فضّة، بين يديه واحدة، واثنتين من خلفها.

رواه ابن الأشعث.[3]

[٥٧/ ٢] وعن سعيد السمّان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله فخطّت على الأرض خطيطاً، ولبستها أنا فكانت وكانت.

رواه الكليني،[4] ورواه الصفّار عن أبان بن عثمان وأبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام.[5]

١٦. باب ما جاء في عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وقَلَنْسوَته ومِغْفَره

[٥٨/ ١] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كانت له عمامة يقال لها: السحاب.[6]

رواه ابن الأشعث، ورواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه) عن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام،[7]

---

١. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤ : ١٧٨ ح٥٤٠٦.
٢. وذلك لفَضْلة كان فيها وسعة، وقيل: لطولها.
٣. الجعفريّات: ٣٠٦ ح١٢٥٨.
٤. الكافي ١ : ٢٣٣ ح١.
٥. بصائر الدرجات: ١٨٧ ح٤٩ و١٨٩ ح٥٦.
٦. سمّيت به تشبيهاً بسحاب المطر لانسحابه في الهواء.
٧. الجعفريّات: ٣٠٦ ح١٢٥٨. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤ : ١٧٨ ح٥٤٠٦.

[٢/٥٩] وعن معاوية بن عمّار، قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام وهو يقول: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله الحرمَ ـ يومَ دخل مكّة[١] وعليه عمامة سوداء، وعليه السلاح.

رواه الطبرسي في (مكارم الأخلاق).[٢]

[٣/٦٠] وعن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام ـ في حديث ـ: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يلبس من القلانس اليمنيّة، والمضرَّبة ذات الأُذنين؛ في الحروب.

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[٣]

[٤/٦١] وعن ابن أبي عُمَير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبس قلنسوة بيضاء مضرَّبة، وكان يلبس في الحرب قلنسوة لها أذنان.

رواه الكليني.[٤]

[٥/٦٢] وعن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام ـ في حديث ـ: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له مِغْفَر يُسمّى (الأسعد).

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[٥]

١٧. باب ما جاء في مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله

[١/٦٣] عن محمّد بن عيسى العبيدي، قال: حدّثنا مولى علي بن موسى، عن علي بن موسى، عن آبائه، عن علي عليهم السلام ـ في صفة النبي صلى الله عليه وآله ـ قال: كان إذا مشى كأنّما ينقلع من صخر، وإذا أقبل كأنّما ينحدر من صَبَب.[٦]

---

١. أي: في فتحها.
٢. مكارم الأخلاق: ١١٩.
٣. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤: ١٧٨ ح٥٤٠٦.
٤. الكافي ٦: ٤٦٢ ح٢.
٥. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤: ١٧٩ ح٥٤٠٦.
٦. أي من موضع منحدر.

رواه الطوسي في (الأمالي).[1]

[٦٤/ ٢] وعن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ في صفة النبي صلى الله عليه وآله ـ قال: كان إذا مشى تكفّأ كأنّه ينزل من صَبَب.

رواه الكليني.[2]

[٦٥/ ٣] وعن إسماعيل بن محمّد بن إسحاق بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين، عن الرضا، عن آبائه، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن علي عليهم السلام عن هند بن أبي هالة ـ في صفة النبي صلى الله عليه وآله ـ قال: كان إذا زال زال قلعاً، يخطو تكفّؤاً ويمشي هَوْناً، ذريع المِشية إذا مشى، كأنّما ينحطّ من صَبَب.

رواه ابن بابويه في (العيون) و (معاني الأخبار).[3]

١٨. باب ما جاء في سفر رسول الله صلى الله عليه وآله

[٦٦/ ١] عن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسافر بستّة أشياء: بالقارورة، والمِقَصّ، والمُكْحُلَة، والمرآة، والمشط، والسِّواك.

رواه ابن الأشعث.[4]

[٦٧/ ٢] وعن أحمد بن عامر الطائي، وأحمد بن عبدالله الشيباني، وداود بن سليمان الغازي، عن أبي الحسن الرضا، عن آبائه، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسافر يوم الخميس، ويقول: فيه ترفع الأعمال إلى الله تعالى، وتُعقَد فيه الألوية.

---

١. أمالي الطوسي: ٣٤١ ح٦٩٥.
٢. الكافي ١: ٤٤٣ ح١٤.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣١٧ ح١، معاني الأخبار: ٨١ ح١.
٤. الجعفريّات: ٣٠٦ ح١٢٦١.

رواه ابن بابويه في (العيون).[1]

[٦٨/ ٣] وعن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في سفره إذا هبط سبّح، وإذا صعد كبّر.

رواه الكليني وابن بابويه.[2]

١٩. باب ما جاء في مركب رسول الله صلى الله عليه وآله

[٦٩/ ١] عن محمّد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام ـ في حديث: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان له فرسان يقال لأحدهما: (المُرْتَجِز)، والآخر (السَّكْب) وكان له بغلتان يقال لإحداهما: (الدُّلْدُل) والأُخرى (الشَّهْباء) وكانت له ناقتان يقال لإحداهما: (العَضباء)،[3] والأُخرى (الجَدعاء)،[4] وكان له بعير يحمل عليه يقال له: (الديباج).

رواه ابن بابويه في (الأمالي) و (كتاب من لا يحضره الفقيه).[5]

[٧٠/ ٢] وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله القَصواء،[6] إذا نزل عنها علَّق عليها زمامها، قال: فتخرج فتأتي، قال: فيناولها الرجل

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٧ ح١٠٠، صحيفة الرضا عليه السلام : ٦٦ ح١١٦.

٢. الكافي ٤ : ٢٨٧ ح٢، الفقيه ٢ : ٢٧٣ ح٢٤٢٢.

٣. قال ابن الأثير في النهاية ٣ : ٢٥١ هو عَلَم منقول من قولهم: ناقة عضباء: أي مشقوقة الأُذن، ولم تكن مشقوقة الأُذن.
وقال بعضهم: إنّها كانت مشقوقة الأُذن، والأوّل أكثر.
وقال الزمخشري: هو منقول من قولهم: ناقة عضباء، وهي القصيرة اليد.

٤. الجدعاء: هي المقطوعة الأُذُن، وقيل: لم تكن ناقته صلى الله عليه وآله مقطوعة الأُذن، وإنّما كان هذا اسماً لها.

٥. أمالي الصدوق: ٦٧ ح٢، الفقيه ٤ : ١٧٨ ح٥٤٠٦، الجعفريّات: ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ح١٢٥٨.

٦. القصواء: الناقة التي قطع طرف أُذنها، ولم تكن قصواء وإنّما هذا كان لقباً لها، وقيل: كانت مقطوعة الأُذن.

الـشيء، ويناولهـا هـذا الشيء، فلا تلبث أن تشـبع، قـال: فأدخلت رأسـها في خِباء سَـمُرة بـن جُنْـدَب فتنـاول عَنَـزة فضرب على رأسـها فشـجّها، فخرجـت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فشـكته.

رواه الكليني.[1]

فهرس المحتويات:

(١) باب ما جاء في خَلق رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢) باب ما جاء في خاتم النبوّة

(٣) باب ما جاء في شَعر رسول الله صلى الله عليه وآله

(٤) باب ما جاء في ترجّل رسول الله صلى الله عليه وآله وتسريح لحيته

(٥) باب ما جاء في خضاب رسول الله صلى الله عليه وآله

(٦) باب ما جاء في كحل رسول الله صلى الله عليه وآله

(٧) باب ما جاء في سواك رسول الله صلى الله عليه وآله

(٨) باب ما جاء في لباس رسول الله صلى الله عليه وآله

(٩) باب ما جاء في عيش رسول الله صلى الله عليه وآله

(١٠) باب ما جاء في نعل رسول الله صلى الله عليه وآله

(١١) باب ما جاء في خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله

(١٢) باب ما جاء في تختّم رسول الله صلى الله عليه وآله في يمينه

(١٣) باب ما جاء في صفة راية رسول الله صلى الله عليه وآله ولوائه

(١٤) باب ما جاء في صفة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وعَنَزته وقضيبه

(١٥) باب ما جاء في صفة درع رسول الله صلى الله عليه وآله

١. الكافي٨ : ٣٣٢ ح٥١٥ .

(١٦) باب ما جاء في عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وقَلَنْسوَته ومِغْفَره

(١٧) باب ما جاء في مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله

(١٨) باب ما جاء في سفر رسول الله صلى الله عليه وآله

(١٩) باب ما جاء في مركب رسول الله صلى الله عليه وآله

المصادر و المراجع:

١. أمالي الصدوق: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي ابن بابويه القمّي ـ ط مؤسّسة الأعلمي، بيروت ـ الطبعة الخامسة سنة (١٤٠٠ق).

٢. أمالي الطوسي: للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي ـ تحقيق مؤسّسة البعثة ـ الطبعة الأُولى بقم سنة (١٤١٤ق).

٣. أمالي المفيد: للشيخ المفيد أبي عبدالله محمّد بن محمّد ابن النُّعمان البغدادي ـ تحقيق علي أكبر الغفّاري وحسين أُستاد ولي ـ ط جماعة المدرّسين بقم.

٤. الأربعون حديثاً في حقوق الإخوان: للسيّد محيي الدين محمّد بن عبدالله الحسيني المعروف بابن زُهرة الحلبي ـ تحقيق نبيل رضا علوان ـ الطبعة الأُولى بقم سنة (١٤٠٥ق).

٥. بصائر الدرجات: لأبي جعفر محمّد بن الحسن الصفّار ـ الطبعة الثانية ـ تصوير مكتبة آية الله المرعشي بقم سنة (١٤٠٤ق).

٦. تاريخ أهل البيت عليهم السلام: تحقيق السيّد محمّد رضا الحسيني الجلالي ـ ط مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ الطبعة الأُولى سنة (١٤١٠ق).

٧. تفسير العيّاشي: لأبي النضر محمّد بن مسعود بن عيّاش السمرقندي ـ تحقيق السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي ـ ط المكتبة العلميّة الإسلاميّة بطهران ـ الطبعة الأُولى.

٨. تفسير فرات الكوفي: لأبي القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي ـ تحقيق

محمّـد كاظـم المحمـودي ـ الطبعة الثانيـة ـ طهران سـنة (١٤١٦ق).

٩. تفسـير القمـي: لأبي الحسـن عـلي بـن إبراهيـم بـن هاشـم القمـي ـ ط مؤسّسـة الأعلمـي، بـيروت ـ الطبعـة الأُولى سـنة (١٤١٢ق).

١٠. تهذيـب الأحـكام في شرح المقنعة: للشـيخ أبي جعفر محمّد ابن الحسـن الطوسي ـ تحقيـق علي أكبر الغفّـاري ـ الطبعة الأُولى سـنة (١٤١٧ق).

١١. الجعفريّـات (بروايـة محمّـد بـن الأشـعث الكـوفي): تصحيـح: أحمـد الصادقـي الأردستـاني ـ ط مؤسّسـة كوشـانبور بطهـران ـ الطبعـة الأُولى سـنة (١٤١٧ق).

١٢. الخصـال: للشـيخ الصـدوق أبي جعفـر محمّـد بـن علي بـن بابويه القمّـي ـ تحقيق عـلي أكـبر الغفّـاري ـ ط جماعة المدرّسـين بقم.

١٣. الزهد: للحسـين بن سـعيد الأهـوازي ـ تحقيق جلال الدين عـلي الصغير ـ ط دار الأعراف، بيروت ـ الطبعة الأُولى سـنة (١٤١٣ق).

١٤. صحيفـة الإمـام الرضـا عليه السلام (بروايـة الطبرسي): تحقيـق محمّد مهـدي نجف ـ ط المؤتمـر العالمي للإمـام الرضا عليه السلام ـ سـنة (١٤٠٦ق).

١٥. طـبّ الأئمّة:: للحسـين وعبدالله ابنَي بسـطام بن سـابور الزيّـات ـ شرح وتعليق محسـن عقيل ـ ط در المحجّـة البيضاء، بيروت ـ الطبعة الأُولى سـنة (١٤١٤ق).

١٦. علـل الشرائـع: للشـيخ الصـدوق أبي جعفر محمّد بن عـلي ابن بابويـه القمّي ـ ط المكتبـة الحيدريّة بالنجف الأشرف سـنة (١٣٨٥ق).

١٧. عيـون أخبـار الرضـا عليه السلام: للشـيخ الصـدوق أبي جعفـر بـن بابويـه القمّـي ـ ط انتشـارات جهـان ـ طهـران.

١٨. قـرب الإسـناد: لأبـي العبّـاس جعفـر بـن عبـدالله الحِمْـيَري ـ ط مؤسّسـة آل البيـت عليهم السلام لإحيـاء الـتراث ـ الطبعـة الأُولى سـنة (١٤١٣ق).

١٩. الـكافي: لثقـة الإسـلام أبي جعفر محمّـد بن يعقوب بن إسـحاق الكُلينـي الرازي

ـ تحقيق علي أكبر الغفّاري ـ ط دار الكتب الإسلاميّة بطهران.

٢٠. كتاب سُليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي: ط مؤسّسة الأعلمي، بيروت.

٢١. كتاب مَن لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن بابويه القمّي ـ تحقيق علي أكبر الغفّاري ـ ط جماعة المدرّسين بقم.

٢٢. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة:: للشيخ أبي الحسن علي ابن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، ط دار الأضواء ـ بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٥ق).

٢٣. معاني الأخبار: للشيخ الصدوق أبي جعفر بن بابويه القمّي ـ تحقيق علي أكبر الغفّاري ـ ط سنة (١٣٧٩ق).

٢٤. مكارم الأخلاق: لرضي الدين الحسن بن الفضل الطبرسي ـ ط مؤسّسة الأعلمي، بيروت، الطبعة السادسة سنة (١٣٩٢ق).

٢٥. المحاسن: لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي ـ تحقيق السيّد جلال الدين المحدّث الأُرْموي ـ ط دار الكتب الإسلاميّة بطهران ـ الطبعة الأُولى.

٢٦. المسلسلات: لأبي محمّد جعفر بن أحمد بن علي القمي الإيلاقي المعروف بابن الرازي ـ تحقيق السيّد محمّد النيشابوري ـ ط مجمع البحوث الإسلاميّة بمشهد الرضا عليه السلام ـ الطبعة الأُولى سنة (١٤١٣ق).

٢٧. النوادر: لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري القمّي ـ ط مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بقم ـ الطبعة الأُولى سنة (١٤٠٨ق).

علم المناسبة (٢)

آيات الحجّ نموذجاً

محسن الأسدي.[١]

ملخّص البحث :

مـازال كلامنـا حـول مصطلـح (علـم المناسـبة) في آيـات قرآنيّـة مباركـة، واخترنـا بعـض آيات الحـجِّ أمثلـةً لهـا، ونذكـر بعضها الآخـر في مقالتنا الثانية هـذه، ولكن بعد أن نذكـر أنَّ لهذا العلم أهميّـةً كبـيرةً في عـالم معرفـة الكتـاب المبـين، تظهـر واضحةً عنـد مَـن أولى علوم التنزيـل العزيز، ومنهـا علـم المناسـبة مـن علـماء ومفكريـن وكتّـاب عنايـةً فائقـةً ، وسُـجّلَت لـه جهـود قيّمة في بيـان المناسـبات القرآنيـة وأنواعهـا: المناسـبة بـين الآيـات... والمناسـبة بين السـور... والمناسـبة بين الآيـات والسـور... وفي الهـدف الـذي راحوا ينشـدونه من وراء اكتشـافهم معالم الارتبـاط فيما بين الآيـات والسـور المباركـة..؛ وهو معرفـة المقاصد الجليلـة، والقواعد وا لأحـكام الإعجازية الدقيقة، والوحـدة الموضوعيّـة في السـياقات القرآنيّـة، والتوصل إلى نظم التنزيل العزيـز وصور من إعجازه وأسراره وحكمها...

* * *

١. محقق و باحث ديني .

ولكـن لا بـدَّ مـن الإشـارة إلى أنَّ هـذا العلـم بأهدافـه هـذه وغيرهـا التـي يذكرونها، كـما لـه مؤيـدون، وطائفة اعتدلـت في موقفها منـه، ولها تفصيل فيـه، وقـف إزاءه آخرون معارضـون، وكان بينهـم من عارضه بشـدّة كالشـوكاني في تفسـيره فتـح القدير، ووصف مـا ذكـروه بأنه «..محـض الرأي المنهي عنـه... وتكلّفـات وتعسّـفات..»، في كلام طويل، هـذا شيء منه:

«إعلـم أنَّ كثـيراً مـن المفسريـن جـاءوا بعلـم متكلّـف، وخاضـوا في بحـر لم يكلفـوا سـباحته، واسـتغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهـم بفائدة، بل أوقعوا أنفسـهم في التكلم بمحـض الـرأي المنهي عنـه في الأمور المتعلّقـة بكتاب الله سـبحانه، وذلك أنّهـم أرادوا أن يذكـروا المناسـبة بين الآيـات القرآنية المسرودة على هـذا الترتيب الموجـود في المصاحف، فجـاءوا بتكلّفـات وتعسّـفات يتبرّأ منهـا الإنصاف، ويتنـزّه عنها كلام البلغـاء فضلاً عن كلام الـربّ سـبحانه، حتى أفردوا ذلـك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهـم من التأليف، كـما فعلـه البقاعي في تفسـيره ومن تقدّمـه،...».[1]

١. هـذا الإيجـاز في مصـادره العديـدة التـي منهـا: التفسـير الكبـير، الفخـر الـرازي (ت ٦٠٦ هجريـة)؛ البرهـان في تناسـب سـور القـرآن، لأبي جعفـر بـن الزبـير الغرناطـي (ت ٧٠٨ هــ) تحقيـق: محمـد شـعباني، وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية ـ المغـرب ؛ نظـم الدرر في تناسـب الآيات والسـور، برهـان الديـن البقاعـي (ت ٨٨٥ هـ) ؛ تناسـق الدرر في تناسـب السـور، مراصد المطالع في تناسـب المقاطـع والمطالـع، جلال الديـن السـيوطي (ت ٨٨٥ هـ) ؛ تفسـير المنار، الشـيخ محمد عبده؛ تفسـير التحريـر والتنويـر، ابن عاشـور (ت١٣٩٣هــ) ؛ جواهـر البيـان في تناسـب سـور القـرآن، للشـيخ الغـماري (ت١٤١٣هــ) ؛ النبـأ العظيـم؛ نظـرات جديـدة في القـرآن، للدكتـور محمد عبـد الله دراز، دارطيبـة للنـشر والتوزيـع،: ١٥٤ ؛ مباحـث في التفسـير الموضوعـي، للدكتور مصطفى مسـلم، دار القلـم، دمشـق، ط٢٠٠٠م ؛ علـم المناسـبات والتفسـير الموضوعـي: ٥٥ ـ ٩٠ ؛ تفسـير فتـح القدير، الشـوكاني (ت١٢٥٠هــ)، في بدايـة تفسـيره للآيـة ٤٠ ـ ٤٢ مـن سـورة البقرة.

أما الآيات فهي كالآتي :

ثالثاً : سورة آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

يبدو أنَّ هذه الآية احتلّت المرتبة الأولى في الدلالة على الوجوب الشرعي لهذه الفريضة المشروط بالاستطاعة؛ وتأتي بعدها الآية الثانية (الحج: ٢٧) لتدل هي الأخرى على وجوب الحج أيضاً، وهناك آيات أخرى في أفعاله وأنواعه وشيء من أحكامه، وإن لم أستقرئ هذا كاملاً في أقوال جميع المفسرين، ولكن هذا ما تيسر لي من كلامهم وهو أنّ وجوب فريضة الحج تحقق بها أولاً.

فهذه الآية، وإن دلّت على ذلك، فقد ذكرت تبعاً للآية التي سبقتها، ولها ارتباط وعلاقة بها؛ لما للبيت من أهمية وفضائل وآيات، ولعلّ من ذلك وجوب فريضة الحج ومناسك العمرة التي يجرى أغلبها داخل البيت الحرام... وقد جاء وجوب هذه الفريضة في هذه الآية ـ تأكيداً لحقِّها وتعظيماً لحُرْمتها ـ بأبلغ ألفاظ الوجوب، فاللام في قوله «ولله» هي لام الإيجاب والإلزام، وقد أُكّدت بالحرف (عَلَى) التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه. وفي قول آخر: في هذه الآية من صيَغ الوجوب صِيغتان: لام الاستحقاق، وحرف على الدال على تقرّر حقّ في ذمة المجرور بها.

وأمّا عن وقت نزولها، فهو وقت إيجاب الحجِّ، وكان في المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة، إلّا أنّ أقوالهم اختلفت في تاريخه، وبالتالي فإنَّ ما وقع قبل نزولها من حجٍّ للنبيّ ﷺ ولغيره من المسلمين بمكة كان تقرّباً إلى الله تعالى، واستصحاباً للحنيفية... وقد ذكر أنّه حجَّ ﷺ مرتين قبل هجرته للمدينة المنورة، ووقف مع الناس...

وأمّـا في سـبب نزولها، فقـد ورد عن مجاهد أنّـه قال: تفاخر المسـلمون واليهود، فقالت اليهـود: بيـت المقدس أفضـل وأعظم من الكعبة؛ لأنّـه مهاجر الأَنبياء والأَرض المقدّسـة، وقال المسـلمون: بل الكعبة أفضـل؛ فأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّ أَولَ بيتٍ ...﴾.

أخـرج ابـن المنـذر وغيره عن ابـن جريج قـال: بلغنـا أنَّ اليهـود قالت: بيـت المقدس أعظـم مـن الكعبة؛ لأنّـه مهاجر الأنبيـاء، ولأنّه في الأرض المقدّسـة، فقال المسـلمون: بل الكعبـة أعظـم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ فنزلـت الآية.

فالآيـة إذن؛ نزلـت لـتردّ على زعـم جديـد لبني إسرائيـل، يريـدون بذلك أن يزيلـوا عـن شـعيرة الحـج مـا يستطيعون من قدسية، ويربطوها بمجرد أفعال اعتادتها العرب لا تمـتُّ إلى الوحـي بصلـة، فبيّنـت فـي ثناياهـا أنّ الله هـو الذي فـرض على النـاس حجّ البيـت من اسـتطاع إليه سـبيلاً.

وهكـذا نجـد أنّ الحديـث عن الحـجّ في هـذا النصّ قد جـاء في معـرض محاججة أهل الكتـاب في شـركهم وكفرهـم، والـردّ عـلى اليهـود في بعـض مزاعمهـم عـلى أنبيائهـم، وشـبهتهم التي يريـدون منهـا رفـع القدسـيّة عن شـعيرة الحجّ، فجاء النصُّ؛ ليثبت أنَّ البيـت الـذي في مكة بيـت بركة وهدايـة لعبادة الله عـلى: ﴿مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفـاً وَمَا كَانَ مِـنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قـال ابـن عاشـور: «فأمَّا إيجـاب الحـجّ في الشريعة الإسـلاميَّة، فـلا دليل عـلى وقوعه إلّا هـذه الآيـة، وقـد تمـالأ علـماء الإسـلام عـلى الاسـتدلال بهـا على وجـوب الحـجّ، فلا يعـد مـا وقـع من الحـجّ قبل نزولهـا، وبعـد البعثـة إلّا تحنّثـاً وتقرّباً، وقـد صحّ أنَّهـا نزلت سـنة ثـلاث مـن الهجرة، عقب غـزوة أحد، فيكـون الحجّ فـرض يومئذ». وذكـر القرطبي الاختـلاف في وقـت فرضيـة الحجّ على ثلاثة أقوال؛ فقيل: سـنة خمس، وقيل: سـنة سـبع، وقيـل: سـنة تسـع، ولم يعزُ الأقـوال إلى أصحابها، سـوى أنَّه ذكـر عن ابن هشـام، عن أبي عبيـد الواقـدي أنَّـه فـرض عـام الخنـدق بعـد انـصراف الأحـزاب، وكان انصرافهم آخر

سـنة خمس.

قـال ابـن إسـحاق: وولى تلـك الحجَّـة المشركـون. وفي مقدّمـات ابن رشـد ما يقتضي أنّ الشـافعي يقـول: إنّ الحـجّ وجب سـنة تسـع، وأظهر من هـذه الأقوال قـول رابع تمالأ عليـه الفقهـاء، وهـو أنّ دليـل وجوب الحـجّ قولـه تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِـجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً...﴾.

وقد اسـتدلّ الشَّـافعي بها عـلى أنّ وجوبه عـلى التَّراخي، فيكون وجوبه على المسـلمين قـد تقرَّر سـنة ثـلاث، وأصبح المسـلمون منذ يومئـذٍ مُحْصَرين عـن أداء هـذه الفريضة إلى أن فتـح الله مكّة ووقعت حجّة سـنة تسـع.[1]

المناسبة:

التنزيـل العزيـز ذكـر هاتـين الآيتـين المباركتـين ضمن مقطـع قـرآني يتوفّر عـلى آيات تحمـل ردوداً عـلى أهـل الكتـاب وعـلى بنـي إسرائيل، وحتـى نوجـز الـكلام ولا نذهب بعيـداً في متابعـة هـذه الآيـات السـابقة واللاحقـة للآيتـين نشـير إلى تفاخـر وقـع بـين المسـلمين واليهود، فكان سـبباً لنـزول الآية ٩٦ من سـورة آل عمران، قـال مجاهد: تفاخر المسـلمون واليهود، فقالـت اليهود: بيت المقـدس أفضل وأعظم من الكعبـة؛ لأنّه مهاجر الأَنبيـاء والأَرض المقدسّـة، وقال المسـلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّ أَولَ بيتٍ...﴾.

وعـن ابـن جريج قـال: بلغنـا أنَّ اليهود قالـت: بيت المقـدس أعظم من الكعبـة؛ لأنّه مهاجـر الأنبيـاء، ولأنّـه في الأَرض المقدسّـة، فقـال المسـلمون: بـل الكعبـة أعظـم، فبلغ ذلـك رسـول الله ﷺ فنزلـت الآية.

معنـى هـذا أنَّهـا ردٌّ لقـول اليهـود، وقـد أُلحـقَ هذا الـردُّ بالآيـة التاليـة لهـا ٩٧: ﴿فِيهِ

١. أسباب النزول، للواحدي؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور: الآية.

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

حيث جاءت ردًّا أيضاً إذا ما أخذنا بما روي في سبب نزول الجزء الأخير منها: ﴿...وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾. من أنّه: لما نزلت ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾.[1]

قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله فرض على المسلمين حجَّ البيت». فقالوا: لم يُكتب علينا، فأنزل الله ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾. وفي خبر لـمّا نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَـٰمِ دِينًا...﴾. فقالت الملل: نحن المسلمون، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿وللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَن الْعَالَمِينَ﴾. فحجّ المسلمون، وقعد الكفار.

فهذا الردُّ جاء تعزيزاً وتفضيلاً لمكانة البيت الحرام بما فيه من آيات بيّنات، وهي فضائل ومقامات تميّز بها وحده، وليس لبيت المقدس منها شيء، وتوكيداً لدوره الكبير الخالد عبّر ما فرضه الله تعالى من حجّه وأداء مناسك العبادة فيه...

وهاهنا نشير إلى ما ذكره في وجه اتصال الآية بما قبلها كلّ من:

الشيخ الطبرسي قال: وجه اتصال الآية بما قبلها أنَّ الله تعالى أمر أهل الكتاب باتباع ملّة إبراهيم، ومن ملّته تعظيم بيت الله الحرام، فذكر تعالى البيت وفضله وحرمته وما يتعلّق به في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاس...﴾

يشير الشيخ بكلامه هذا إلى الآية ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

١. سورة آل عمران: ٨٥.

مـن هـذا يظهـر أنَّ المناسـبة تتحقـق باتبـاع ملّـة إبراهيـم عليه السلام، ومـن ملّتـه هـو البيـت الحـرام، فهـو مـن رفع قواعـده مع ولده إسـماعيل، والـذي يعدُّ بنـاؤه أكـبر حادثة وقعت في تاريـخ خليـل الله تعالى، فهـو البيت الأول لا غـيره، كـما في الآيـة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاس لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُـدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وهـو ذو الآيـات البيّنـات، اختـصَّ بهـا دون غـيره، ولا يمكـن إنكارهـا، والتـي منها كونـه مقامـاً آمناً، وقاعـدةً لدعوته ولمن تبعـه من ذرّيته والمؤمنـين به ﴿فِيهِ ءَايَـاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَـامُ إِبْرَاهِيـمَ وَمَن دَخَلَـهُ كَانَ آمِنـاً...﴾، وكونه محجوجاً، يُقصد مـن كلِّ مكان، حيث كان مـن شريعتـه تعظيم هـذا البيت ذي الآيـات والمقام الكريم، ففرضت السـماء حجَّه في الآيتـين: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً وَمَـن كَـفَرَ فَإِنَّ ٱللَّه غَـنِىٌّ عَـن الْعَالَمِـينَ﴾. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّـاس بالْحَجِّ يَأْتُـوكَ رجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِـن كُلِّ فَـجٍّ عَمِيـق﴾. إنَّهـا فضائـل لا تتوفـر في غيره، وهـي تكفي لدحـض حجج أهل الكتـاب وتبديـد مزاعمهم وشـبهاتهم حول هـذا البيت المبارك والمسـجد الحـرام والكعبة الشريفـة، وقـد أضفت عليها السـماء ميزةً كبرى حين ﴿جَعَـلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْـتَ الْحَرَامَ قِياماً لِّلنَّـاس ...﴾. المائدة : ٩٧.

أبـو حيـان حيث قال:.. ومناسـبة هـذه الآية لما قبلهـا ظاهرة، وهـو: أنّه لمّـا أمر تعالى باتبـاع ملّـة إبراهيـم وكان حجُّ البيـت من أعظم شـعائر ملّـة إبراهيم ومـن خصوصيات دينـه، أخـذ في ذكـر البيـت وفضائلـه ليبنـي الحـج ووجوبـه. وأيضـاً فـإنّ اليهـود حـين حوّلـت القبلـة إلى الكعبـة طعنـوا في نبـوّة رسـول الله صلى الله عليه وآله وقالـوا: بيـت المقـدس أفضـل وأحـق بالاسـتقبال؛ لأنّـه وضـع قبل الكعبـة، وهـو أرض المحـشر، وقبلة جميـع الأنبياء، فأكذبهـم الله في ذلـك بقولـه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّاسِ لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

كـما أكذبهـم في دعواهـم قبل: إنّـما حرّم عليهـم ما كان محرّمـاً على يعقوب مـن قبل أن

تنـزل التـوراة، وأيضاً فـإنّ كل فرقة مـن اليهود والنصـارى زعمت أنّها على ملّـة إبراهيم، ومـن شـعائر ملّتـه حجُّ الكعبـة وهم لا يحجونهـا، فأكذبهـم الله في دعواهم تلـك، والأول هـو الفرد السـابق غيره...

أمّـا الآلـوسي، فقد اكتفى بذكر وجه المناسـبة بـين الآيـة ٩٦ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُـدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. بما قبلهـا، دون الآيـة ٩٧. قائلاً: ... ووجـه ربطهـا بـما قبلهـا أنّ الله تعالى أمـر الكفـرة باتباع ملّـة إبراهيم ومـن ملّته تعظيم بيـت الله تعـالى الحـرام، فناسـب ذكـر البيـت وفضلـه وحرمتـه لذلـك، وقيـل: وجـه المناسـبة أنّ هـذه شـبهة ثانيـة ادّعوها، فأكذبهـم الله تعالى فيهـا كما أكذبهم في سـابقتها، والمعنـى: أنّ أول بيـت وضـع لعبـادة النـاس ربهـم أي هيّأ وجعـل متعّبـداً؛ والواضع هـو الله تعـالى كـما يدل عليه قراءة مـن قرأ ﴿وُضِعَ﴾ بالبنـاء للفاعـل ؛ لأنّ الظاهر حينئذٍ أن يكـون الضمـير راجعـاً إلى الله تعـالى وإن لم يتقـدم ذكـره سـبحانه صريحـاً في الآيـة بنـاءً عـلى أنّها مسـتأنفة، واحتـمال عـوده إلى إبراهيم عليه السلام لاشـتهاره ببنـاء البيت خلاف الظاهـر، وجملـة ﴿وُضِـعَ﴾ في موضع جـر على أنّها صفـة ﴿بيتٍ﴾ و ﴿للنَّـاس﴾ متعلق به واللام فيـه للعلّة.

وأما الإمام محمد عبده، فجاء كلامه من خلال ذكره شبهتين قد قرّرهما، وهما:

قالـوا: إذا كنـت يـا محمّـد عـلى ملّـة إبراهيـم والنبيّين مـن بعده ـ كـما تدّعـي ـ فكيف تسـتحلّ مـا كان محرّمـاً عليـه وعليهـم كلحـم الإبـل؟ أمـا وقـد اسـتبحت مـا كان محرّماً عليهـم فـلا ينبغـي لـك أن تدّعـي أنّـك مصـدّق لهـم وموافـق في الديـن، ولا أن تخـصّ إبراهيـم بالذكـر وتقـول: إنّـك أولى النـاس به.

ونحـن لا نريـد الوقـوف عنـد ردِّ هـذه الشـبهة، فليـس هو محـل كلامنا، وقـد ذكر في تفسـيره، ونكتفـي منـه بآخـر جـزء: ... وإذ كان الأمـر كذلـك ﴿فَاتَّبِعُـواْ مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التـي أدعوكـم إليهـا حال كونه ﴿حَنِـيفاً﴾ لا غلـو فيما كان عليـه ولا تقصـير، ولا إفراط

ولاتفريط، بل هو الفطرة القويمة والحنيفية السمحة المبنية على الإخلاص لله وإسلام الوجه له وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يبتغون الخير من غيره تعالى، أو يخافون الضرّ من غير أسبابه التي مضت بها سنّته.

وأما الثانية فهي أنّهم قالوا: إنّ الله وعد إبراهيم بأن تكون البركة في نسل ولده إسحاق، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظّمون بيت المقدس ويصلّون إليه؛ فلو كنت على ما كانوا عليه؛ لعظّمت ما عظّموا، ولما تحوّلت عن بيت المقدس وعظّمت مكاناً آخر اتخذته مصلّى وقبلة، وهو الكعبة، فخالفت الجميع.

وأمّا جواب الشبهة الثانية، فهو قوله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وتقريره: أنّ البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً للناس؛ بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصة، ثمّ بُني المسجد الأقصى ببيت المقدس بعده بعدّة قرون بناه سليمان بن داود عليهما السلام، فصحَّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله على ملّة إبراهيم، ويتوجّه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وولده إسماعيل ...

ثمَّ ذكر قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي فيه دلائل أو علامات ظاهرة لا تخفى على أحد... وراح يذكر هذه الآيات حتى عدَّ ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، وهي الآية الأولى على وجوب فريضة الحج؛ عدَّها آيةً من آيات هذا البيت المبارك، فقال: أما قوله تعالى: ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت؛ جاءت بصيغة الإيجاب والفرضية في معرض ذكر مزاياه ودلائل كونه أول بيوت العبادة المعروفة للمعترضين من اليهود على استقباله في الصلاة، فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبرياً، وبمقتضى الصيغة معنى إنشائياً، وهو وجوب الحجّ على المستطيع من هذه الأمة.

يقول محمد رشيد رضا: أشار إلى ذلك الأستاذ الإمام بقوله: هذه الجملة ـ وإن

جاءت بصيغة الإيجاب ـ هي واردة في معرض تعظيم البيت، وأيّ تعظيم أكبر من افتراض حجّ الناس إليه؟ وما زالوا يحجّونه من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عهد محمّد صلى الله عليه وآله، ولم يمنع العرب عن ذلك شركها، وإنّما كانوا يحجّون عملاً بسنّة إبراهيم، يعني أنّ الحجّ عمل عام جروا عليه جيلاً بعد جيل على أنّه من دين إبراهيم، وهذه آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم، فهي أصحّ من نقول المؤرخين التي تحتمل الصدق والكذب، وبهذا وبما سبقه بطل اعتراض أهل الكتاب، وثبت أنّ النبي على ملّة إبراهيم دونهم.

وهكذا يقول ابن عاشور: ويجوز أن نجعل قوله تعالى: ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ متضمّناً الثالثة من الآيات البيّنات. حُكم أعقب به الامتنان لما في هذا الحكم من التّنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه. والتّقدير مباركاً وهدى، وواجباً حجّه. فهو عطف على الأحوال.

السيد العلاّمة في الميزان: يتحدّث عن أنّ هاتين الآيتين كانتا جواباً عن شبهة يهودية عمّا وقع في موضوع تحويل القبلة، فيقول: الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهود توردها على المؤمنين من جهة النسخ، وهي ما حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.[1] إنّ تحويل القبلة كان من الأمور الهامة التي كانت لها تأثيرات عميقة مادية ومعنوية في حياة أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ مضافاً إلى كونه مخالفاً لمذهبهم من النسخ، ولذلك طالت المشاجرات والمشاغبات بينهم وبين المسلمين بعد نزول حكم القبلة إلى أمد بعيد. والمستفاد من الآية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ...﴾ أنّهم جمعوا في شبهتهم بين شبهة النسخ وبين انتساب الحكم إلى ملّة إبراهيم، فيكون محصّل الشبهة أنّ الكعبة كيف يمكن أن يكون قبلة في ملّة إبراهيم مع أنّ الله جعل بيت المقدس قبلة، وهل هذا

١. البقرة: ١٥٠.

إلّا القول بحكم نسخي في ملّة إبراهيم الحقّة مع كون النسخ محالاً باطلاً؟

والجواب: أنّ الكعبة موضوعة للعبادة قبل غيرها كبيت المقدس، فلقد بناها إبراهيم من غير شك ووضعها للعبادة، وفيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، وأمّا بيت المقدس فبانيه سليمان، وهو بعد إبراهيم بقرون ...[1]

رابعاً:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاس بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِر يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيق * ...﴾.[2]

وهي الآية الثانية التي استفيد منها وجوبُ الحجِّ، وقد جاءت في سورة سمّيت سورة الحجِّ؛ لأهمية هذه الفريضة، وتُعدُّ بدايتها مشهداً من مشاهد يوم القيامة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْل حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.١ـ٢ .

فلعلَّ في هذا إشارة إلى أنَّ فريضة الحجّ تذكّرنا، وبالذات حين يجتمع الناس، بما فيه من تزاحم وتدافع وجهد وتعب وعطش... على صعيد واحد بدءًا بعرفات، والمشعر الحرام المزدلفة، فمنى، وبطواف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات... بلا تمييز ولا تفضيل، يرتدون لباساً واحداً متشابهاً لا تكلّف فيه، تذكّرنا هذه الفريضة بمناسكها بتلك الساعة وأهوالها، وبذلك اليوم الجامع كما جاء بضراعة

١. انظر تفسير الطبري؛ ولباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، فيه تفصيل طويل، اخترنا شيئاً منه يناسب المقالة؛ تفسير الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: الآيتان.

٢. الحج: ٢٧.

المؤمنين الصالحين: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. وبصوره، مشهد الحشر الأكبر على صعيد واحد لا غير في زحام شديد مهول بما فيه!...، فنستذكر في مشاهد الحج صوراً مصغّرةً من مشاهد يوم القيامة؛ يوم يُحشر الناس إلى ربِّهم ...

إنَّ هذه الآية وردت في نطاق مقطع هو الأطول حديثاً عن الحجِّ، ولعلَّ السورة بسببه سميت (سورة الحجّ) أو لذكر فريضة الحج على لسان نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت العتيق (الكعبة)، ويبدأ من الآية ٢٥ ـ ٣٧ من سورة الحجِّ، بدايةً، إنَّ هناك ثنائيّات عادةً ما نجدها في التنزيل العزيز، فما إن يتعرّض التنزيل العزيز للإنس حتى يذكر الجنَّ، وما إن يذكر الثواب حتى يردفه بالعقاب، وما إن يتحدث عن الذَّكر حتى يذكر الأنثى، وهكذا يذكر الدنيا فيذكر الآخرة، ولمّا ذكر تعالى الخصمين بقوله: ﴿هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ...﴾ الحجّ: ١٩. وما أعدّ لأحد الخصمين من العذاب ﴿...فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ...﴾. الحجّ:١٩ ـ ٢٢؛ شرع بذكر الخصم الآخر ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وما أعدّ لهم من الثواب: ﴿إِنَّ اللّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤاً ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: الحجّ:٢٣. كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله، كما في الآية: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾. الحج: ٢٤.

كذلك كان سَبَبُ استحقاق المشركين ذلك العذَاب كفرَهم وصدّهم عن سبيل الله... كما في الآية التالية، وذلك بعد أن تحدّث عن هذين الخصمين: ﴿... الَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ و ﴿... الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ...﴾ وما يؤول إليه أمرهما في الآخرة، عاد التنزيل العزيز؛ ليتوعّد الخصم الأول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ بأن ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لما يرتكبه من الصدِّ عن: ﴿سَبِيلِ اللّهِ والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ

بظُلْـم...﴾، ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَيَصُـدُّونَ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ والْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ الَّذِى جَعَلْنَـاهُ لِلنَّـاسِ سَـوَآءً الْعَاكِـفُ فِيـهِ وَالْبَـادِ وَمَن يُـرِدْ فِيهِ بِإِلْحَـادٍ بِظُلْـم نُّذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيم﴾.

لينتقل الحديث إلى إعداد البيت المبارك، وتطهيره ...

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لإِبْرَاهِيـمَ مَـكَانَ الْبَيْـتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْئاً وَطَهِّرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِينَ والْقَآئِمِـينَ والرُّكَّع السُّـجُودِ﴾.

كلُّ هـذا جـاء ـ كـما يبـدو ـ تمهيـداً لذلـك الأذان المبارك؛ الـذي يحمل تشريـع فريضة الحـجِّ؛ في مقطـع أغلبـه يحمل عـدداً من أحـكام الحـجّ وأعماله ومفاهيمـه وآدابـه: ﴿وأَذِّن فِى النَّـاسِ بالْحَـجِّ يَأْتُوكَ رجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِـينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *لِّيَشْـهَدُواْ مَنَافِـعَ لَهُـمْ وَ يَذْكُرُواْ اسْـمَ اللهِ فِى أَيَّـامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَـةِ الأَنْعَامِ فَكُلُـواْ مِنْهَـا وَأَطْعِمُـواْ الْبَآئِـسَ الْفَقِـيرَ * ثُـمَّ لْيَقْضُـواْ تَفَثَهُـمْ وَ لْيُوفُـواْ نُذُورَهُـمْ وَ لْيَطَّوَّفُـواْ بالْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ * ذلِـكَ وَ مَـن يُعَظِّمْ حُرُمَـاتِ اللهِ فَهُـوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنـدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّـتْ لَكُـمُ الأَنْعَـامُ إِلَّا مَـا يُتْـلَى عَلَيْكُـمْ فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْـسَ مِـنَ الأَوْثَـانِ وَ اجْتَنِبُـواْ قَـوْلَ الـزُّورِ * ... وَ الْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَـعَآئِرِ اللهِ لَكُـمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُـرُواْ اسْـمَ اللهِ عَلَيْهَـا صَـوافَّ فَإِذَا وَجَبَـتْ جُنُوبُهَا فَكُلُـواْ مِنْهَا وَ أَطْعِمُـواْ الْقَانِعَ وَ الْمُعْـتَرَّ كَذلِـكَ سَـخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ *لَـن يَنَـالَ اللهَ لُحُومُهَا وَ لاَ دِمَآؤُهَـا وَ لَكِـن يَنَـالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذلِكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَـبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِـنِينَ﴾. الحـجّ : ٢٥ـ٣٧ .

وأمّـا المخاطـب في آيـة الأذان: ﴿وَ أَذِّن فِى النَّـاسِ بالْحَـجِّ ...﴾، فذكـروا فيـه قولـين:

الأول: نبـيّ الله إبراهيـم عليه السلام.

قـال ابـن عبـاس: قـام في المقـام، وعنـه أنّـه قـام على جبـل قبيـس، ووضـع إصبعيه في أُذنيـه، وقـال: «يـا أيّهـا النـاس، أجيبـوا ربّكـم، فأجابـوه بالتلبية في أصـلاب الرجال

وأرحام النساء».[1]

الثاني: رسول الله محمدﷺ؛ أي وأذّن يا محمد في الناس بالحجّ، فأذّن صلوات الله عليه في حجة الوداع أي أعلمهم بوجوب الحجّ عن الحسن والجبائي. وإنَّ جمهور المفسرين على القول هذا...

وكذلك روي عن الإمام الصادقؑ: «أنَّ رسول اللهﷺ أقام بالمدينة عشر سنين لم يحجّ، ثمّ أنزل الله عزَّوجلَّ عليه: ﴿وَ أَذِّن فِي النَّاس بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِر يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَميق﴾. فأمر المؤذّنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم، بأنَّ رسول اللهﷺ يحجّ في عامه هذا، فعلم به من حضر المدينة، وأهل العوالي، والأعراب، فاجتمعوا لحجّ رسول اللهﷺ، وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون به و يتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه،...».[2]

هذا وإنَّ وجوب الحجّ وأفعاله وأنواعه وأحكامه حتى وإن وقع بهذه الآية من زمن نبيِّ الله إبراهيمؑ؛ إلّا أنَّه وقع أيضاً على هذه الأمّة المسلمة بها وبآيات قرآنيّة أخرى، وعلى لسان نبيّنا محمّدﷺ كقوله تعالى:

﴿... ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبيلاً وَمَن كَفَرَ فَإنَّ الله غَنِيٌّ عَن الْعَالَمِين﴾. آل عمران : ٩٧ .

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ للَّهِ ...﴾ البقرة : ١٩٦ .

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جدَالَ فِي الْحَجِّ ...﴾. البقرة : ١٩٧. وبآيات أخرى.

فهو فريضة قديمة من عهد نبيِّ الله إبراهيمؑ، وهو فريضة جديدة على عهد رسول اللهﷺ... وخطابه يفترق عن خطاب الفرائض الأخرى فهو للناس كافة؛ ﴿وَ

١. تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي ٧ : ١٤٥ .
٢. الكافي، الكليني ٤ : ٢٤٥ .

لِلّهِ عَلَى النَّـاس حِـجُّ الْبَيْتِ مَن اسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبيلاً﴾، ﴿وَ أَذِّن فِي النَّاس بالْحَجِّ...﴾، ﴿ثُـمّ أَفِيضُـوا مِـنْ حَيْثُ أَفَـاضَ النّاسُ﴾، وهكـذا هي مواقع مناسـك الحج:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّاس لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَاركًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِـينَ﴾، ﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَـةً لِّلنَّاس وَ أَمْنًا...﴾، ﴿.. وَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَام الَّـذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاس ...﴾.[1]

سبب نزول الآية:

هنـاك حالتـان كانـوا يعملـون بهـا إذا أرادوا الحـجَّ، ذكرتهما الأخبـار، فعـن مجاهد أنه قـال: كانـوا يحجّـون ولا يتـزوّدون، فأنـزل الله: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُـون يـاأُوْلِي الأَلْبَـابِ﴾، البقرة: ١٩٧. وكانـوا يحجّـون ولا يركبون، فأنـزل الله: ﴿... يَأْتُـوكَ رجَالاً وَعَـلَى كُلِّ ضَامِر...﴾. الحـجّ: ٢٧، فأمرهم بالـزاد ورخّص لهم في الركوب والمتجر!

وكـذا عـن ابن عباس، قـال: كان أهـل اليمن يحجّـون ولا يتـزودون، ويقولون: نحن المتوكلـون! فأنـزل الله: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُون يـاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، البقرة: ١٩٧.

وعـن ابن عمـر، قال: كانـوا إذا أحرمـوا ومعهـم أزوادهم، رمـوا بها، واسـتأنفوا زاداً آخـر، فأنـزل الله تعـالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُون يـاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، فنهـوا عن ذلك، وأمـروا أن يتزودوا الدقيق والسـويق والكعك. لكنّهـما لم يذكرا الركوب والمتجر.[2]

---

١. انظرهـا في مصادرهـا، منهـا: كتاب كنز العرفـان في فقه القرآن، للشـيخ السـيوري (ت٨٢٦ هجرية) كتـاب الحـجّ٢ : ٢٥٧ـ٣٤٠؛ وانظـر التفاسـير، ومنهـا: تفسـير جامـع البيـان في تفسـير القـرآن، للطـبري؛ ومجمع البيان، للشـيخ الطبرسي: الآيات؛ وانظر تفسـير البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسـيني البحـراني؛ ووسـائل الشـيعة؛ بـاب ٢ من أبواب أقسـام الحـج ح ٤.

٢. تفسير الطبري؛ وعمدة التفاسير، لابن كثير؛ والدرّ المنثور، للسيوطي؛ وغيرها: الآية.

المناسبة:

وقعت آية الأذان هذه في مقطع قرآني كريم طويل يبدأ من الآية ٢٥ـ٣٧ من سورة الحجّ؛ ولعلّ وجود هذا المقطع الذي تميّز بطوله وكثرة أحكامه، وذكره للبيت الحرام وبيان أهميّته ... كان سبباً ـ كما ذكرنا ـ لتسمية السورة بسورة الحجّ. ومن هذا:

أولاً: أنَّ الآية ومفردة الحجّ بالذات، باحتلالها هذه المنزلة في هذا المقطع، تثبت علاقةً مهمةً وارتباطاً وثيقاً بآيات المقطع السابقة لها واللاحقة، ولضرورة بيان ذلك من خلال دراسة المقطع؛ وذلك بالرجوع إلى آياته، وباختصار يناسب المقالة، فقد جاءت الآية بمفردة الحجّ الواردة فيها في معرض الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. الحج: ٢٥، التي تُندّد بالكافرين في مكة وبأعمالهم؛ بصدّهم عن سبيل الله، وعن الدعوة إليه... وبصدّ الناس عن المسجد الحرام ...

وهو صدٌّ عن سبيل الله، لكنّه خصّ بالذكر اهتماماً به، فكانوا يمنعون المؤمنين عن دخوله، وعن أدائهم لعباداتهم ومناسكهم من حجّ وعمرة ... وهذا يشكل اعتداءً على إرادته تعالى، فهو الذي جعله للناس كما في الآية: ﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ﴾.

ثانياً: العاكف فيه، وهو المستقرّ في المسجد، أو الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة؛ لأنّ الساكن بمكة يعكف كثيراً في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادِي الذي هو البعيد عنه إذا دخله، فجعله الله لهم مستقراً ومنسكاً ومتعبداً ... إلّا أنَّ المنع حال دون ذلك، فالصدُّ والمنع والتضييق كلّ منها وسيلة من وسائل تعذيبهم للمؤمنين في مكة، وإبعادهم عن أعزِّ مكان على نفوسهم، كما أنَّهم منعوا المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة من زيارة البيت؛ فهذا أبو جهل يقول لسَعْد بن معاذ لما جاء

إلى مكّـة معتمـراً، وقـال لصاحبـه أميّة بن خلـف: انتظرني سـاعة من النهار؛ لعـلّي أطوف بالبيـت، فبينما سـعد يطـوف إذ أتاه أبـو جهل وعَرَفَهُ، فقـال له أبو جهـل: أتطوف بالكعبة آمنـاً، وقد أوتيتـم الصُباة؟! يعني المسـلمين.

ومـن المنـع أيضـاً مَا صنعوه يـوم الحديبية، حتـى قيـل: إنّ الآية نزلـت في الذين صدّوا رسـول الله ﷺ عن مكة عـام الحديبية ...

وينتقل السـياق إلى التنويه بالمسـجد الحرام، توطئـةً، وبناءً، وإعداداً وتطهـيراً، وإبعاداً لـه عـن الـشرك وعـن عبـادة غـير الله تعـالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْرَاهِيـمَ مَـكَانَ الْبَيْـتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْـئاً وَطَهِّـرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِـينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ ٱلسُّـجُودِ﴾.

وهـذا كلُّـه تمهيـدٌ لـلأذان بالحجِّ، وأنَّـه بدأ بتهيئـة البيت وتطهـيره، ودليـلٌ على عظمة فريضـة الحـجِّ وأهميتهـا في أن تُـؤدّى في أماكـن لا شرك يلوثهـا، ولا عبادة أصنـام وأوثان تنتهكهـا... ﴿وَ أَذِّن فِى النَّـاس بالْحَـجِّ يَأْتُـوكَ رجَـالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِـر يَأْتِـينَ مِن كُلِّ فَـجٍّ عَميق﴾.

وهـذا الأمـر لإبراهيـم عليه السلام يُعـدُّ بدايـة مباركـة لتشريـع فريضـة الحـجّ. وقـد ألحـق بآيـات أخـرى (٢٨ـ٣٧ الحـجّ) لبيان منافع الحـجّ، والأمر بذكـر الله تعـالى، ومنها أمرهم بالطـواف بالبيـت ...

إذن، فآيـة الأذان بالحـجّ قـد احتلـت مكانهـا بـين آيـات عديـدة، سـابقة لهـا ولاحقة، تحيـط بهـا؛ لتشـكل ارتباطاً عـبر سـياق واضح خاصـةً حين تبـدأ بالتنديـد بأولئـك ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَـبيل اللهِ وَالْمَسْـجِدِ الْحَـرَام...﴾. وتهديدهم بعذاب أليـم، مـروراً بنبـذ الـشرك وبنـاء البيـت وإعـداده وتطهـيره لأصنـاف مـن العبّـاد؛ بعـد الوصيـة لإبراهيـم عليه السلام ألا يـشرك بالله شـيئاً في الآيـة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْرَاهِيمَ مَـكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْـئاً وَطَهِّـرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِـينَ وَالْقَآئِمِـينَ وَالرُّكَّعِ السُّـجُودِ﴾.

ولـمّا فرغ إبراهيـم عليه السلام من ذلك؛ أوحى الله إلـيه بأمره ﴿وَ أَذِّن فِى النَّـاس بالْحَجِّ ...﴾

ليأتي تكليف السماء لنبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام، ولرسول الله محمد صلى الله عليه وآله مزيداً لتوحيده تعالى، وعبادته في هذه البقعة المباركة نبذاً للشرك، وتنزيهاً لساحتها المباركة عن شوائب وأعمال أهل الجاهلية وعباداتهم وأفعالهم وتصوراتهم...

كما أنَّ الآية، وإن بيّنت تشريع الحجِّ من عهد نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام بالأذان، وبيّنت أنّهم ﴿يَأْتُوكَ رجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. فقد أُلحقت بآيات أُخر؛ قد تبلغ إحدى عشرة آية في سياق يتعلق بأحكام وأعمال إتيان البيت الحرام ... كما أنّها سبقت بآيات تندّد بالكفّار وتتوعّد المشركين بسبب صدّهم عن المسجد الحرام، وما أحدثوه من الشرك في البيت العتيق ... إلّا أنَّها لم تكتفِ بذلك أيضاً ولا بتشريع الحجّ فقط، بل كانت كبقيّة آيات الحجِّ قد عالجت ـ إنَّ صحَّ سبب نزولها عن مجاهد ـ بما ذكر فيها من قوله تعالى: ﴿وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ...﴾. أمراً كانوا يرونه ويعملون به في أداء فريضة الحج وهو أن يأتوا الحجَّ مشاةً، يسيرون على أقدامهم، لا ركباناً. ولا أدري أكان هذا اعتقاداً منهم أنَّه من شروط أداء الحجِّ، وأنَّه لا يصحُّ إلّا مشياً دون الركوب، أو أنَّه كان منهم طلباً للأجر وزيادةً في الثواب، باعتبار أنَّ الأجر على قدر المشقة، وإلّا فالركوب يجوز أيضاً ... ومن هنا الآية لتصحّح ما اعتقدوه: ﴿يَأْتُوكَ رجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ...﴾ فرخّصت لهم في الركوب، وبدأت بذكر المشاة تشريفاً لهم، وقد روى سعيد بن جبير بإسناده عن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إنّ الحاجّ الراكب له بكلِّ خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف حسنة»!

خامساً:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ* وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ

تُبْتُـمْ فَهُـوَ خَـيْرٌ لَّكُـمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُـواْ أَنَّكُمْ غَـيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَـشِّرِ الَّذِينَ كَفَـرُواْ بِعَـذَابٍ أَلِيـمٍ﴾. ١ـ٣ التوبة.

سـورة بـراءة أو التوبة، اخترنا هذين الاسـمين من أسـمائها العديـدة التي بلغت عشرة أسـماء أو أكثر؛ لأنّهما قرآنيّان، جاءت بهما السـورة نفسـها، فالاسـم الأول (براءة) مفتتحة بـه ونزلـت بإظهـار البراءة مـن المشركين، والثـاني: (التوبة) لكثـرة ما فيها مـن الكلام عن التوبـة والدعوة إليها.

وهـي سـورة مدنيّـة كلّهـا، وفي قـول غـير الآيتـين الأخيرتـين ١٢٨ـ١٢٩: ﴿لَقَـدْ جَآءَكُـمْ رَسُـولٌ مِّنْ أَنفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّـمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُـمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيـمٌ* فَـإِنْ تَوَلَّـوْاْ فَقُـلْ حَسْـبِىَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ وَهُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وأمّـا عـن وقـت نزولها، فلعلّها كانـت آخر أو من أواخـر ما نزل من التنزيـل العزيز في السـنة التاسـعة الهجرية؛ بـين فتح مكة في السـنة الثامنة وحجّـة الوداع في السـنة العاشرة، ولعـلَّ بعضـاً منها والمتمثـل بمقطعها الأول من الآيـة الأولى حتى الآيـة الثامنة والعشرين نـزل قبل معركـة تبـوك التـي وقعـت في رجـب من العـام التاسـع للهجـرة، وبعضـاً آخر حـين كان رسـول الله ﷺ يُعدُّ المسـلمين لهـا، فيما كان نـزول الباقي بعد الرجـوع منها.

وأمّـا مضامينهـا فإنّها تحدّثت عن العلاقـات مع كلّ من مشركي مكـة، وأهل الكتاب، وعـن المنافقـين وفضـح مواقفهـم في أكثر من نصـف آياتها، ومـن هنا سـمّيت بالفاضحة كـما في روايـة عن سـعيد بـن جُبير، قـال: سـألت بـن عبـاس ـ رضي الله عنه ـ عن سـورة بـراءة، فقـال: تلـك الفاضحة، مـا زال ينزل؛ ومنهـم ومنهم حتـى خفنا ألّا تـدع أحداً...

وتحدّثـت عن طوائف السـاحة المسـلمة كالسـابقين مـن المهاجرين والأنصـار، وأهل بـدر، وأصحـاب بيعـة الرضوان، والذيـن أنفقوا قبل الفتـح وقاتلوا، والذيـن أنفقوا بعده وقاتلـوا، مـروراً بالمخلَّفـين والمتثاقلـين والقاعدين، وعن الأعـراب، وهنـاك أمور أخرى

بين ما ذكرناه تعرّضت لها السورة.

هذا، وتُعدُّ سورة التوبة، خاصةً الآيات الثمانية والعشرين منها التي تشكل بدايتها، هي الأشدُّ على المشركين، ولذلك كانت السورة الوحيدة من التنزيل العزيز التي بدأت بلا بسملة، حتى أنَّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام، لم يُبسمل حين بدأ بقراءتها في الموسم، وتبليغ ما فيها من مضامين وأحكام، وقد نُسب إليه عليه السلام أنَّ: «بسم الله أمان، وبراءة نزلت لرفع الأمان». سأله ابن عباس: لِمَ لَمْ يُكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: «لأنَّ بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان». أو لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة «براءة»؛ لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف.

ولغيره، أنَّ: بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة...

وفي قول آخر: لأنّ التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

وفي قول آخر أيضاً: أنَّ التسمية لم تكتب؛ لأنَّ جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة. إلى غيرها من أقوال في سبب سقوط البسملة منها.

وقال وهبة الزحيلي: إنَّ افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يُدخل في النفس الرهبة الشديدة والخوف الأشدّ.[1]

هذه السورة بكاملها، أو بالآيات الثماني والعشرين أو الأربعين منها، على الاختلاف فيها، والتي قرأها وبلغها الإمامُ عليٌّ عليه السلام، تشدُّ انتباه كلِّ قارئ وسامع إلى قبح الفعل وشناعته، ألا وهو الشرك والمشركون، حقًّا، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، سورة لقمان:١٣، ذاك الذي استحقّوا بسببه أن لا تبدأ بالبسملة أولاً، وثانياً أن تكون بدايتها بالمصدر ﴿بَرَآءَةٌ﴾ و ﴿بَرَآءَةٌ﴾ هذه؛ خطورتها أنَّها صدرت من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله

١. التفسير المنير، للدكتور وهبة الزحيلي ٥ : ٤٥١ سورة التوبة : الآيات .

ليُشكل مرادها بما فيه من تفخيم وتهويل وقوة انقطاعاً للعصمة، وخروجاً من العهود، ورفعاً للحظر المترتّب عليها، وإنهاءً لحكم الأمان الذي طالما كان مشركو مكة وما حولها يتمتّعون به وفقاً للمواثيق والعهود التي أُبرمت بينهم وبين رسول الله ﷺ لكنّهم كانوا لا يألون جهداً في نقضها ونكثها، وليس هذا غريباً على مشركي مكة، فتاريخهم مع الإسلام نكث للأيمان ونقض للعهود، وما خرقهم لعهد الحديبية إلّا دليلٌ على ذلك، مع أنّه يحمل من شروطٍ تقع في فائدتهم وافق عليها رسول الله ﷺ بإلهام من الله تعالى، واغتمّ بعض الصحابة لبعضها، واستفزّت عمر بن الخطاب حتى تجرّأ، وراح يجادل النبيَّ ﷺ من دون الصحابة حتى الذين اغتموا، قائلاً: أَلَسْتَ نَبيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ الله ولَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي ...».

ولو كان عمر مدركاً للحكمة، وعرف معنى التسليم لرسول الله عليه السلام لما جادل الرسول ﷺ هذا أولاً، وثانياً: لو قلنا لتأثّره وعدم قدرته على لجم غضبه والتحكم بمشاعره، لا لغرض كان يبتغيه وشيء كان يُخفيه؛ لاكتفى بإجابته ﷺ دون أن يعيد أسئلته هنا وهناك، ممّا يدل إمّا على عدم اقتناعه بإجابة رسول الله ﷺ عن سؤاله الذي كان من الأجدر أن يوجّهه لنفسه أو لغيره ممن حوله من الصحابة؛ ليسترشد قبل أن ينطق به: ... فَلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟! وهل يقبل ﷺ بالدَّنِيَّةَ في الدين،...؟! ولكنّه الشك الذي انتابه يومئذٍ كما صرّح به: ما شككتُ منذ أسلمتُ إلّا يومئذٍ...! ... فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً!

ولا أدري ما هي؟! أهي التي جاءت في قوله: «ما زلت أصوم وأصلّي وأتصدّق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمتُ به يومئذٍ، حتى رجوتُ أن يكون خيراً» أو غيرها؟! ... فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها، فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: «نعم». إنّها الحكمة من تلك

الهدنـة وذلك العهـد..![1]

أمّـا بخصـوص الآيـة فقـد ذكـروا أنَّ الـبراءة تعني قطـع المـوالاة، وارتفـاع العصمة، وزوال الأمـان، وقـد جـاءت الآيـة بعـد أن أخـذت العـرب تنقـض عهـوداً قطعتهـا مع رسـول الله صلى الله عليه وآله فأمـره الله تعـالى بإلقاء عهودهـم إليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِـنَ اللهِ وَرَسـولِهِ إلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ...﴾.

والخطـاب الذي تحملـه الآيـة ﴿إلى الَّذِينَ عاهَدْتُـمْ...﴾ هو لأصحاب رسـول الله صلى الله عليه وآله والمـرادُ رسـول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّـه هو الـذي كان يتـولَّى المعاهـدة، وأصحابُه راضـون؛ فكأنّهم بالرضـا عاهـدوا أيضاً؛ وهـذا عـام في كلّ عهوده صلى الله عليه وآله.

يقـول الطـبري: والمعنى إلى الذين عاهد رسـول الله صلى الله عليه وآله من المشركـين؛ لأنَّ العهود بين المسـلمين والمشركـين على عهد رسـول الله صلى الله عليه وآله لم يكـن يتولّى عقدهـا إلّا رسـول الله صلى الله عليه وآله أو مـن يعقدها بأمـره، ولكنّه خاطـب المؤمنين بذلـك لعلمهم بمعنـاه، وأنَّ عقـود النبيّ صلى الله عليه وآله عـلى أمّتـه كانـت عقودهـم؛ لأنّهـم كانـوا بـكلّ أفعالـه فيهـم راضـين، وبعقـوده عليهـم مسـلمين، فصار عقـده عليهم كعقودهم على أنفسـهم، فلذلك قـال: ﴿إلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِـنَ الْمُشْرِكـِينَ...﴾ لما كان مـن عقد رسـول الله صلى الله عليه وآله وعهده..

وأمّـا الشـيخ الطـبرسي فيقول: خطـاب للنبـيِّ صلى الله عليه وآله وللمسـلمين، والمعنى تـبرؤوا ممن كان بينكـم وبينهـم عهـد مـن المشركين، فـإنَّ الله ورسـوله بريئان منهـم. ثمَّ يذكـر ما قاله الزجـاج: معنـاه قـد برئ الله ورسـوله مـن إعطائهم العهـود والوفـاء لهم بهـما إذ نكثوا.

وإذا قيل: كيف يجوز أن ينقض النبيُّ صلى الله عليه وآله العهد؟

فالقول فيه: إنه يجوز أن ينقض ذلك على أحد ثلاثة أوجه:

إمّـا أن يكـون العهد مشروطـاً بأن يبقـى إلى أن يرفعه الله تعـالى بوحي، وإمّـا أن يكون

١. انظـر المصنـف، لعبد الرزاق رقم ٩٤١٩؛ مسـند الإمام ابن حنبل ٤ : ٣٤٩؛ تفسـير الطبري؛ تفسـير ابن كثير؛ تفسـير الميزان في تفسـير القرآن، للعلامة الطباطبائي: سـورة الفتح، وغيرهم.

قـد ظهر مـن المشركين خيانـة ونقض فأمر الله سـبحانه بـأن ينبـذ إليهم عهدهـم، وإمّا أن يكـون مؤجـلاً إلى مدة فتنقـضي المدة وينتقـض العهد.[1]

المناسبة :

ذكـروا أنَّ آيـة الأذان لهـا ارتبـاط وعلاقـة بـما قبلها ومـا بعدها مـن الآيات، حتـى إنَّ صاحـب المطالـع ذكـر أنَّ هناك مناسـبة بـين بداية سـورة التوبـة وخاتمتها؛ حيـث ذكر أنَّ السـورة افتتحت بقوله تعـالى: ﴿وَإن تَوَلَّيْتُـمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَـيْرُ مُعْجِزِى﴾. وختمت بقوله: ﴿فَـإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْـبِىَ اللهُ﴾.[2]

وكأنَّ سـياق آيـات هذه السـورة يُوحـي بالعلاقات بينهـا والترابط، ولكنّنـا نقف عند مـا تيـسّر لنا من بيـان للعلاقة بين آيـة الأذان وآيـة البراءة؛ ومـا يتوفر عليه مـن إعلان لها، ولكـن قبـل هـذا نذكر ولو مـن باب الاسـتئناس أنَّ الأذان في آية سـورة التوبـة قد لا يخلو ـ والله العـالم ـ مـن علاقـة بآية سـورة الحجّ، آية التأسـيس لفريضـة الحج المباركـة: ﴿وأَذِّنْ فى النَّـاس بالحـجّ يَأتُـوكَ رجَـالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِـر يَأتِـينَ مِـن كُلِّ فَجٍّ عَميـق﴾. التي جـاءت بعد أن أمرت السـماء نبيّهـا إبراهيم عليه السلام، وأوصته وابنه إسـماعيل معـه، ﴿وَإِذْ بَوَّأنَا لإِبْرَاهِيـمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أنْ لاَّ تُشْرِكْ بِى شَـيْئاً وَطَهِّرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِينَ والْقَآئِمِينَ والرُّكَّع السُّـجُودِ﴾.﴿وَعَهِدْنَآ إِلَى إبْرَاهِيـمَ وَإِسْـمَاعِيلَ أنْ طَهِّـرَا بَيْـتِىَ لِلطَّائِفِـينَ والْعَاكِفِـينَ والرُّكَّع السُّـجُودِ﴾، فـكان الأمر برفض الـشرك والنهي عنه، وبتطهير البيـت وإعداده لمن يردونـه ويأتونه مِـن كُلِّ فَجٍّ عَميق للعبـادة وأداء فريضة الحج، التي أمـر بإعلانها وأذِّن... فـإذا بالآيـة الثالثـة من التوبة تبـدأ أيضاً بـالأذان: ﴿وأَذَانٌ مِّـنَ اللهِ وَ رَسُـولِهِ ...﴾، ولكنّ هـذه المـرّة بـأذان مـن الله تعالى ورسـوله، بإعـلان يتضمن شـدّةً وحـدّةً وقـوّةً؛ ليُنهي كلَّ

١. تفسـير جامع البيان في تفسـير القرآن، الطبري (ت٣١٠ هـ)؛ وتفسـير مجمع البيان في تفسـير القرآن، الطبرسي (ت٥٤٨ هـ) .

٢. سورة التوبة : ٣ و ١٢٩ ؛ مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، لجلال الدين السيوطي :٥٢.

أثـر وفعل للـشرك وأمـان للمشركين، وليُعلـن البراءة مـن أي علاقة وعهد بهـم، وليضع حـدًّا بين المسـلمين وبـين المشركين، فـكان إعلانـاً لانتصار الإسـلام ورسـوله، وإظهاراً لعـزِّ المسـلمين وذلِّ المشركـين؛ بعـد معاناة قاسـية ومعـارك عديـدة تحمّلها السـابقون من المهاجريـن والأنصـار، ومواقف جليلـة وجهود كبـيرة قدموها، فكلا الموقفـين، الأذانين؛ أذان إبراهيـم عليه السلام وأذان محمد صلى الله عليه وآله شـكّلا مرحلتـين مهمّتين من تاريخ الأديـان، لا ينفكّان أبـداً، وكلٌّ منهـما يُكمل الآخر، ويدعـو إليه...

هـذه إشـارة موجزة للمناسـبة بين الآيتـين والأذانين؛ لننتقـل لمعرفة المناسـبة بين الآية الثالثـة والآيـة الأولى مـن سـورة التوبـة: ﴿بَـرَاءَةٌ﴾ لغةً: هـي مصدر عـلى فَعالة كالشَّـناءة والدّنـاءة، تقـول: برئـت مـن الـشيء أبـرأ بـراءة فأنـا منـه بـريء، إذا أزلتـه عن نفسـك، وقطعت سـبب مـا بينـك وبينه...

والأذان لغـةً: هـو بمعنـى الإيـذان، وهو الإعلام والإشـهار، كـما أنَّ الأمـان والعطاء بمعنـى الإيـمان والإعطاء.

وإعراباً: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

و﴿بَـرَآءَةٌ: ﴾مصـدر عـلى فَعالة كالشَّـناءة والدّناءة، تقـول: برئت من الشيء أبـرأ براءةً فأنـا منـه بـريء، إذا أزلتـه عن نفسـك، وقطعت سـبب مـا بينك وبينـه... ويقـال: برئت مـن فلان أبـرأ بـراءةً، أي انقطعت بيننـا العصمة...

قـال السـمين الحلبـي: الجمهـورُ عـلى رفـع بـراءة وفيـه وجهـان، أحدهمـا: أنهـا رفعٌ بالابتـداء، والخـبرُ قولُـه: إلى الذيـن. وجـاز الابتـداءُ بالنكـرة لأنهـا تخصَّصَـتْ بالوصفِ بالجـارِّ بعدهـا. والثاني: أنها خبرُ ابتـداءٍ مضمر أي: هـذه الآياتُ براءةٌ. ويجـوز في: من الله أن يكـون متعلقـاً بنفس بـراءة لأنها مصدرٌ، وهذه المـادةُ تتعدَّى بـ «مِنْ» تقـول: بَرئت مِنْ فـلانٍ أَبْـرَأُ بَـراءة أي: انقطعت العُصْبَـةُ بيننا. وعلى هذا فيجـوز أن يكونَ المسَـوِّغُ للابتداء بالنكـرة في الوجـه الأول هـذا. و «إلى الذين» متعلـقٌ بمحذوف عـلى الأول لوقوعِه خبراً،

وبنفس «بَراءة» على الثاني. ويقال: بَرِئْتُ وبَرَأت من الدين بالكسر والفتح...

وقرأ عيسى بن عمر «براءةً» بالنصب على إضمار فعل أي: اسمعوا براءةً. وقال ابن عطية: أي، الزموا براءةً أو على تقدير التزموا براءةً، وفيه معنى الإغراء...

قوله تعالى: «وَأَذَانٌ»: رفع بالابتداء، و «مِن الله»: إمَّا صفةٌ أو متعلقٌ به. و «إلى الناس» الخبر. ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي: وهذا إعلامٌ، والجارَّان متعلقان به كما تقدَّم في «براءة»... هذا ما ذكره السمين الحلبي (ت٧٥٦ هـ) في تفسيره القيم الدرّ المصون بخصوص الآيتين المذكورتين.

أمّا بخصوص باقي إعراب الآية الأولى والثانية فهو:

براءة خبر لمبتدإ محذوف؛ أي هذه براءة.

«مِنَ الله»: صفة لبراءة فهي لابتداء الغاية، متعلقة بمحذوف صفة لبراءة، وليست متعلقة بالبراءة كما في قولك: برئت من الذنب والدين، والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله... ويجوز أن تكون براءة مبتدأ؛ وساغ الابتداء بها؛ لتخصيصها بالصفة وإلى الذين خبرها... ومن المشركين: حال... «وَرَسُولِهِ»: عطف. «إلَى الَّذِينَ»: اسم موصول في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة. «عاهَدْتُمْ»: فعل ماض، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة الموصول. «مِنَ المُشْرِكِينَ»: متعلقان بالفعل، حال.

وجملة هذه براءة ابتدائية لا محل لها.﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَاب أَلِيمٍ﴾.

«وأَذانٌ»: ارتفاع أذان كارتفاع براءة على الوجهين، فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا أذان، أو هو مبتدأ وإلى الناس خبرها...

«مِنَ الله»: صفة أو متعلق به، أو متعلقان بالخبر. «وَرَسُولِهِ»: عطف. «إلَى النَّاس»:

الخبر، أو متعلقـان بالخبر.

يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر «يَوْمَ»: متعلق بما تعلق به إلى الناس.

«الْحَجِّ»: مضاف إليه

«الْأَكْبَر»: صفة.

«أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ» بفتـح همـزة أنَّ، وفيـه وجهان: أحدهمـا: خبر أذان، والثـاني: هو صفة، أي وأذان كائـن بالـبراءة. وقيـل التقديـر: وإعـلام مـن الله بالـبراءة، فالبـاء متعلقة بنفس المصـدر، وأنّ واسـمها وخبرهـا ومـن المشركين جـار ومجرور متعلقـان ببريء.

«ورسوله»؛ فيه أوجه:

أحدهـا: أنّـه مبتـدأ والخـبر محـذوف، أي ورسـوله بـريء منهـم، وإنّما حـذف لدلالة الأول عليـه وهـذا أصـحُّ الأوجـه. وقيـل: هـو معطوف عـلى محـل اسـم أنّ، أو معطوف عـلى الضمـير المسـتتر في الخبر.

الطـبري: يقـول تعـالى ذكره: وإعـلام من الله ورسـوله إلى النـاس يوم الحـجّ الأكبر... «وأذانٌ مِـنَ اللهِ ورَسُـولِهِ»: إعـلام مـن الله ورسـوله. ورفـع قولـه: «وأذانٌ مِـنَ الله» عطفاً عـلى قولـه: «بَـرَاءَةٌ مِـنَ الله» كأنّـه قال: هذه بـراءة مـن الله ورسـوله، وأذان من الله.

قـال الطـبرسي بعـد أن ذكـر أنَّ الأذان الأعـلام: يقـال: أذنتـه بكـذا فـأذن أي أعلمته فعلـم. وقيـل: إنّ أصلـه مـن النـداء الذي يسـمع بـالأذنِ ومعنـاه أوقعـه في أذنـه، وتأذَّن بمعنـى آذن كـما يقـال: تيقَّـن وأيقن.

وأذان عطـف عـلى بـراءة عـن الزجـاج. وقيـل: إنَّ تقديـره عليكـم أذان؛ لأنّ فيـه معنى الأمـر ...

يقـول: ثـم بيَّن سـبحانه أنّـه يجب إعـلام المشركين بـبراءة منهم لئلا ينسـبوا المسـلمين إلى الغـدر، فقـال: ﴿وأَذَانٌ مِّـنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ معناه وإعـلام، وفيه معنى الأمر

أي أذنوا الناس يعني أهل العهد. وقيل: المراد بالناس المؤمن والمشرك؛ لأنَّ الكل داخلون في هذا الإعلام. وقوله: «إلى الناس» أي للناس، يقال: هذا إعلام لك وإليك، وأذان عطف على براءة ...﴿أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهد المشركين فحذف المضاف «ورسوله» معناه ورسوله أيضاً بريء منه.

وقيل: إنَّ البراءة الأولى لنقض العهد، والبراءة الثانية؛ لقطع الموالاة والإحسان فليس بتكرار.

قال النسفي:﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع «بَرَاءةٌ» على الوجهين، ثمّ الجملة معطوفة على مثلها، والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام، كما أنَّ الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء، والفرق بين الجملة الأولى والثانية أنَّ الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنّما علّقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلّق الأذان بالناس؛ لأنَّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة؛ لأنّ الوقوف بعرفة معظم أفعال الحجّ أو يوم النحر لأنّ فيه تمام الحج من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحج بالأكبر، لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر.[1]

إذن فرفع قوله:﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ﴾ وهو إعراباً معطوف على: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ﴾ كأنّه قال: هذه براءة من الله ورسوله، وأذان من الله ورسوله؛ ولأنَّ «وأَذَانٌ» بمعنى الإيذان، وهو الإعلام والإشهار لغةً، فهو يشكل إعلاماً عاماً من الله تعالى ورسوله ﷺ «إِلَى ٱلنَّاسِ»، أي أنّه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختصّ بقوم دون قوم، أي بما فيهم أهل العهود، فوجوب الإعلام في هذه الآية لجميع الناس، وهو من الله تعالى ورسوله ﷺ

١. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي: الآيات.

بانقطاع العصمة منهما وانقضاء عهدهما، بيد أنّ الآية الأولى متضمّنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، ولما أعلمهم بالبراءة أعلمهم بالوقت الذي يؤذن بها فيه، وهو «يَوْمَ الْحَجِّ» ظرف لقوله: «وأذان». ولعلَّ هذا المصداق من المناسبة، يتجلّى عبر هذه المقابلة بين آيتي: «بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ» وإضافة براءة إلى الله ورسوله دُون المسلمين، فهو تشريع.

«وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...».

قال ابن عاشور: وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دُون المسلمين؛ لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين...[1]

لتختم الثانية بالبراءة أيضاً ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

هذه المقابلة بين مطلعي الآيتين من سورة التوبة: الأولى؛ وهي إخبار بثبوت البراءة، والثالثة؛ وهي إخبار بوجوب الإعلام بها، تدعو إلى التأمل والدقّة في العلاقة والترابط بينهما، وأنَّ حصول هذه المقابلة ليس مصادفة، بل هو من الحكمة بدرجة عالية... ولعلَّ هذا الأمر الذي يُعدُّ ارتباطاً وعلاقةً وهو من (المناسبة) بمكان... لم يقف عند هذا الحدّ، بل تستمر العلاقة حتى الآية ٢٨ من سورة التوبة، ولما بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾، وقد أشار الشيخ الطبرسي إلى بعض هذا الترابط أو الاتصال بين آيات من هذه السورة في أربعة مواضع في فقرة (النظم).[2]

العلامة الطباطبائي: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصة

١. التحرير والتنوير: الآيات.

٢. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي سورة التوبة: الآيات١٤ـ ١٥ ـ١٦، ١١٥ـ١١٦، ١١٧ـ١١٨.

القـول عـلى نهـج سـائر السـور المفصلـة التي تشـير الآيـة والآيتـان مـن أولها عـلى إجمال الغـرض المسرود لأجـل بيانـه آياتها.[1]

البقاعـي: ولمّـا أنـزل الـبراءة أمـر بالإعـلام بهـا في المجمـع الأعظـم ليقطـع الحجج، فقـال عاطفـاً ظهـرة الجملـة إلى مضمونهـا: الإخبـار بوجـوب الإعـلام بما ثبـت بالجملة الأولى المعطوفـة عليهـا من الـبراءة: «وَأَذَانٌ» أي وهـذا إعلام وإعلان واقـع وواصل «مِنَ اللهِ» أي المحيـط بجميـع صفـات العظمـة، «وَرَسُـولِهِ» أي الذي عظمته مـن عظمته، فلا يوجهـه إلى شيء إلّا أعـلاه عليـه؛ ولمّـا كان المقصـود الإبـلاغ الـذي هو وظيفة الرسـول عـداه بحـرف الانتهاء فقـال: «إِلَى النَّـاس» أي كلهم من أهل الـبراءة وغيرهم «يَـوْمَ الحَجِّ الأكبَر».[2]

وممّـا جـاء في تفسـير المنـار: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّـاس يَوْمَ الْحَـجِّ الأَكْـبَر أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِـينَ وَرَسُـولُهُ﴾. هـذه الجملـة معطوفة على مـا قبلها مصرّحة بالتبليـغ الصريـح الجهري العـام للبراءة مـن المشركين أي مـن عهودهم وسـائر خرافات شركهـم وضلالاتـه، ومبينـة لوقتـه الـذي لا يسـهل تعميمـه إلّا فيـه، وهـو يـوم الحـجّ الأكـبر. وفي تعيينـه خـلاف سـيذكر مع ترجيـح أنّه عيـد النحر الـذي تنتهي فيـه فرائض الحـج وأركانـه ويجتمـع الحاج فيـه لإتمـام واجبات المناسـك وسـننها في منى.

والأذان: النـداء الـذي يطـرق الأذان بالإعـلام، بـما ينبغـي أن يعلمه الخـاص والعام، وهو اسـم مـن التأذين، قال تعـالى: ﴿أَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـارِقُونَ﴾. سـورة يوسـف: ٧٠. ومنـه الأذان للصـلاة. وأذّن بها أعلم، وآذنـه بالشيء إيذاناً أعلمـه به. وأذّن بالـشيء (كعلم) علمـه، وأذن له (كتعب) اسـتمع.

وأعـاد التصريـح في هـذا الأذان بكونـه مـن الله باسـم الـذات، ومـن رسـوله بصفـة

١. تفسير الميزان: الآية.

٢. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ت٨٨٥ هـ).

التبليغ الذي تقتضيه الرسالة كما صرّح بها في البراءة، وصرّح في الموضعين بذكر المشركين بعنوان الشرك ووصفه، وذلك لتأكيد هذا الحكم وتأكيد تبليغه من جميع وجوهه.

ثمّ أكّد ما يجب أن يبلغوه من ذلك بما أوجب أن يخاطبوا به من غير تأخير بقوله: «وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أي قولوا لهم: فإن تبتم بالرجوع عن شرككم وما زيّنه لكم من الخيانة والغدر بنقض العهود، وقبلتم هداية الإسلام «فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» في الدنيا والآخرة؛ لأنّ هداية الإسلام هي السبب لسعادتها «وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ»، أي أعرضتم عن إجابة هذه الدعوة إلى التوبة «فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ»، أي غير فائتيه بأن تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر.

ابن عاشور: وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دُون المسلمين؛ لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله ﷺ وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين. لقد بُلّغت سورة «بَرَآءَةٌ» عبر آية «وأَذَانٌ...» لتريهم ـ على مسمع ومرأى من الناس في يوم تشهده جموعهم؛ حجَّ فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعده مشرك ـ موقفاً آخر لا لين فيه ولا هوادة؛ يُطيح بكبريائهم وعنجهيتهم ومراوغتهم ومغالطتهم وخداعهم ومكرهم، واستخفافهم بالعهود وعدم احترامهم لها، بل ونقضها، ولتؤسّس هذه الآيات علاقات جديدة ونهائية بالآخرين... ولأهمية هذه المرحلة وخطورتها نرى أنَّ البراءة ذكرت في الآيتين، وكلا البراءتين مصدرهما من الله ورسوله... الأولى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والثالثة: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، ممّا أثارت الانتباه والتساؤل، وجعلت بعض المفسرين ينفي كونه تكراراً، ويُعلّله، فهذا الشيخ الطبرسي ينفي التكرار لأنَّ البراءة الأولى لنقض

العهـد، والـبراءة الثانية لقطـع الموالاة والإحسـان، فليـس بتكرار.

هـذا ولقائـل أن يقول، والـكلام للفخر الـرازي: لا فرق بـين قوله تعالى: ﴿بَـرَاءَةٌ مّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى الَّذِيـنَ عَاهَدْتُمْ مّـنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الآية الأولى، وبـين قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَـرِىء مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُـولُهُ﴾ في الآية الثالثة.

فـما الفائـدة في هـذا التكريـر؟ وهنـا يُجيـب الفخـر الـرازي بقولـه: الجـواب عنـه من وجوه:

الوجـه الأول: أنَّ المقصـود مـن الـكلام الأول الإخبار بثبـوت الـبراءة، والمقصود من هـذا الـكلام إعـلام جميع النـاس بما حصـل وثبت.

والوجـه الثـاني: أنَّ المـراد مـن الـكلام الأول الـبراءة مـن العهـد، ومـن الـكلام الثاني الـبراءة التـي هـي نقيـض المـوالاة الجاريـة مجـرى الزجـر والوعيـد، والـذي يـدلّ عـلى حصـول هـذا الفـرق أنَّ في البراءة الأولى بـرىء إليهم، وفي الثانية: بـرىء منهم، والمقصود أنّـه تعـالى أمـر في آخر سـورة الأنفال المسـلمين بأن يـوالي بعضهم بعضـاً، ونبّه بـه على أنّه يجـب عليهـم أن لا يوالوا الكفـار وأن يتبرؤا منهم، فهاهنـا بيّن أنّه تعالى كـما يتولّى المؤمنين فهـو يتـبرأ من المشركـين ويذمهم ويلعنهـم، وكذلك الرسـول، ولذلك أتبعه بذكـر التوبة المزيلـة للبراءة.

والوجـه الثالـث: في الفـرق أنّـه تعـالى في الـكلام الأول أظهـر الـبراءة مـن المشركـين الذيـن عاهـدوا ونقضـوا العهـد. وفي هـذه الآيـة أظهر الـبراءة مـن المشركين مـن غير أن وصفهـم بوصـف معـين، تنبيهـاً عـلى أنَّ الموجـب لهـذه الـبراءة كفرهـم وشركهم.

سـيد قطـب: اقتضـت أن تفتتح السـورة بهـذا الإعـلان العام بـبراءة الله ورسـوله من المشركـين، وأن يتكـرر إعـلان البراءةمن الله ورسـوله بعد آيـة واحدة بنفـس القوة ونفس النغمـة العاليـة؛ حتـى لا يبقـى لقلـب مؤمـن أن يبقـى عـلى صلـة مع قـوم يـبرأ الله منهم ويـبرأ رسـوله. ﴿بَـرَآءَةٌ مِّـنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى الَّذِيـنَ عَاهَدْتُمْ مِّـنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

وهبة الزحيلي: فليس بين البراءتين تكرار؛ لأنَّ البراءة الأولى مختصة بالمعاهدين والناكثين العهد منهم، وأما الأذان بالبراءة فعام لجميع الناس؛ من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث ومن لم ينكث.

وأيضاً الشعراوي في خواطره يُجيب عن هذا وأمور أخرى، بعد أن يذكر ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾: ما يقوله بعض الناس من أنه ما دام الله تعالى قد قال فلماذا يُعيد سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾؟ ويجيب قائلاً: إنَّ البراءة جاءت إعلاماً بالمبدإ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة، و «أذانٌ» معناها إعلام يبلغ للناس كلّهم، تماماً كأذان الصلاة، فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة. والأذان مأخوذ من الأذن؛ لأنّ الإنسان حين يعلم الناس بشيء لا بدّ أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم، ولذلك تجد الأذن هي الوسيلة الأولى للإدراك، فقبل أن ترى تسمع، وقبل أن تتكلم لا بدّ أن تسمع، فإن لم تسمع مَنْ يتكلم لا تقدر أنت على الكلام، ولذلك يقول الحق جلَّ جلاله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ...﴾. وإذا كان الذي بَلَّغَ الأذان من الله ورسوله إلى كلّ الناس يوم الحجّ هو علي بن أبي طالب فكيف يقال: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؟

نقول: إنَّ الله تعالى أعلمَ رسولَه، والرسول صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا، وعليٌّ هو الذي نادى وبلَّغ، لكن هناك من يقول: إن الله طلب البلاغ إلى الناس مع أنَّ البراءة كانت للمشركين. ونقول: إنّ الإعلام كان لكلّ الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم، فيعرف المؤمن أنّ العهد قد قُطِعَ، ويعرف غير المؤمن أنّ العهد قد قطع، فلا يؤخذ أحد على غِرَّةٍ، وليرتب كلّ إنسان موقفه في ضوء البلاغ الصادر من الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم، بل كان الخطاب للعالم كلّه...

وقولـه سـبحانه وتعالى: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاس يَـوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر...﴾، وهـذا القـول فيـه تعميـم في المـكان وتعميم في المكـين، فيوم الحـج يجتمع النـاس كلهم في مـكان واحـد... وإنّ الإعـلان قالـه سـيدنا عـلي بـن أبي طالب عليه السلام يـوم عرفـة، وبلغ هذا الإعـلام كلّ مـن سـمعه إلى غـيره، والآيـة الكريمـة تقـول: ﴿وأَذَانٌ مِّـنَ اللهِ ورَسُـولِهِ إِلَى النَّـاس يَـوْمَ الْحَـجِّ الأَكْـبَرِ أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِـينَ وَرَسُـولُهُ﴾، وهـذا إذن مـن الله لرسـوله صلى الله عليه وآله، ومـن رسـوله إلى عـليٍّ كـرم الله وجهـه، ومن عـليٍّ للمؤمنين، ومـن المؤمنين مـن سـمع لمن لم يسـمع، أنّ الله بريء من المشركـين، وكان هذا إعلاناً بالقطيعـة، ولكنّ الله برحمتـه لا يغلـق الباب أمام عبـاده أبداً، ولذلك يقول: ﴿فَـإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَـيْرٌ لَّكُمْ...﴾. أي فتـح لهـم باب التوبة فإن تابـوا عفا الله عنهـم، وإن لم يتوبوا فالقول الفصـل هو: ﴿وإِنْ تَوَلَّيْتُـمْ فَاعْلَمُـواْ أَنَّكُـمْ غَيْرُ مُعْجِـزِى اللهِ وبَشِّرِ الَّذِيـنَ كَفَرُواْ بعَـذَاب أَلِيم﴾.[1]

فمـمّا لا شـكّ فيـه أنَّ سـورة التوبـة، وعـلى الأقـل الآيـات مـن الأولى حتـى الثامنـة والعشريـن بنسـقها المتضامـن والمترابـط جـاءت بشـكل كان للهـدف مـن ورائـه تنظيـم أوضـاع وعلاقـات تلـك المرحلـة بما يتناسـب وتمكّن الإسـلام والمسـلمين من الإمسـاك بالوجـود الاجتماعـي والسـياسي، فـكان مـن حقّـه أن يضـع حلـولاً وبنـاء علاقـات مع المكونـات التـي مـا زال لهـا وجودهـا في مكـة ومـا حولهـا وهـم المشركـون، فضـلاً عـن الآيـات الأُخـر التي تخـصُّ أهل الكتـاب والمنافقين، وتعتنـي بالبيئة والحاضنة الإسـلامية والمسـلمين...

ومـن جملـة مـا قاله سـيد قطب: هـذه الآيـات وما بعدهـا إلى الآيـة الثامنـة والعشرين نزلـت تحـدد العلاقـات النهائيـة بـين المجتمـع الإسـلامي الـذي اسـتقر وجـوده

١. تفسـير مجمـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبرسي (ت ٥٤٨ هــ)؛ تفسـير مفاتيـح الغيـب، التفسـير الكبـير، الـرازي (ت ٦٠٦ هــ)؛ وفي ظـلال القـرآن، لسـيد قطـب؛ تفسـير المنـير، للدكتـور وهبـة الزحيـلي ٥: ٤٤٩ سـورة التوبـة؛ تفسـير خواطـر، محمـد متـولي الشـعراوي (ت١٤١٩ هــ): الآيات.

في المدينة وفي الجزيرة العربية ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين في الجزيرة الذين لم يدخلوا في هذا الدين... سواء منهم: من كان له عهد مع رسول الله ﷺ فنقضه، حينما لاح له أنّ مواجهة المسلمين للروم حين توجهوا لمقابلتهم في تبوك؛ ستكون هي القاضية على الإسلام وأهله، أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهدّ من قوتهم...

ومن لم يكن له عهد، ولكنّه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء...

ومن كان له عهد ـ موقوت أو غير موقوت ـ فحافظ على عهده، ولم ينقص المسلمين شيئاً، ولم يظاهر عليهم أحداً... فهؤلاء جميعاً نزلت هذه الآيات وما بعدها؛ لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم...

وبالتالي فإنَّ هذا المقطع يتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة، أو الناكثين لعهودهم؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً...

فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هي إنهاء العهود مع المشركين في الجزيرة العربية؛ وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك، بالبراءة المطلقة من المشركين، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله... وأسلوب هذه الآيات وإيقاع التعبير فيها يأخذ شكل الإعلان العام، ورنينه العالي! فيتناسق أسلوب التعبير وإيقاعه مع موضوعه والجوّ الذي يحيط بهذا الموضوع على طريقة القرآن في التعبير...[1]

أقول: لعلَّ هذا ـ والله العالم بمراده ـ هو حرب بلا هوادة على الشرك وأهله عبر البراءة وعبر الأذان المبارك يوم الحج الأكبر، وهذا الأذان وتلك البراءة باختيار من الله تعالى لا فقط نصوصاً ومضامين، بل وقتاً ومكاناً وشخصاً مبلغاً؛

١. في ظلال القرآن، سيد قطب: سورة التوبة.

فأمّا الموعد وقتاً ومكاناً الذي يُنذر به المشركون، فهو ما عيَّنته السماءُ، إنَّه ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ ذلك الميقات الجامع؛ لإعلان البراءة، وهكذا نرى أن ذكر ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ في هذا الموضع جاء في سياق البراءة من المشركين، وبيان أحكام العهود معهم، دون أن يُغلق باب التوبة، فإن لم يتوبوا فقتالهم وحربهم. ولا يخفى ما تحمله فريضة الحج في أثناء ذكر ذلك من أنَّ منسك الحجّ هو حرب على المشركين وشركهم، هو إنهاءٌ لجاهليتهم ولما تركته من آثار في الجزيرة العربية وما حولها، وأنّ الحجَّ دعوة صريحة للتوحيد، وأنَّ تمام التوحيد في الحجّ وأفعاله... وأنَّ آية الأذان في ميقاتها المقرر من قبل السماء ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ كانت ـ ولا شك ـ تخليصاً للبيت الحرام من آثار الجاهلية التي أصابته عبر القرون، فلوّثته بعد تطهيره، وإعلاماً بانتهاء مظاهر الانحراف والشرك التي دبَّت في مناسك الحج، وما أحدثوه في هذه الشعيرة المباركة من زيادة وتبديل وتغيير، فهم إضافةً لشركهم كانوا مغيّرين ومبدلين فيما شرعته السماء وأنزلته على أبيهم إبراهيم عليه السلام... وهكذا يلتقي سياق النصِّ والحكمة منه في هذه الآيات على إلغاء الشرك والجاهلية التي تغذيه، سواء أكان مادياً أم معنوياً، صنماً كان أو حجراً، شجراً أو حيواناً أو بشراً... وأن يُدخل الناس في عبادته تعالى وحده لاشريك له.

هذا، ويقول سيد قطب: وعمّا يعنيه هذا التناسق بين هذه الآيات، وعمّا يريده تكرار البراءة في آيتين، وعمّا يهدف إليه هذا الإعلان الخطير، وعمّا يقتضيه هذا الأذان المبارك الذي افتتحت به السورة، اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوّة ونفس النغمة العالية، حتى لا يُبقي لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ اللهُ منهم ويبرأ رسولُه:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ *وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ

وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

وعنه يقول أيضاً: هذا الإعلان العام، بهذا الإيقاع العالي؛ يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين في ذلك الحين في جزيرة العرب قاطبة؛ إذ كانت العهود المشار إليها هي التي كانت بين رسول الله ﷺ والمشركين في الجزيرة.

والإعلان ببراءة الله وبراءة رسوله من المشركين يحدّد موقف كلّ مسلم؛ ويوقع إيقاعاً عميقاً عنيفاً على قلب كلّ مسلم، بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولا تردد...

ثمَّ تأتي بعد الإعلان العام والمخصّصات والشروح لهذا الإعلان:

﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْض أَرْبَعَةَ أَشْهُر وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ﴾.

فهذا بيان للمهلة التي أجّل الله المشركين إليها... وعما يقتضيه هذا الإعلان العام عبر هذا الأذان المبارك في الآية المباركة: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...﴾ من أمر، نكتفي ببعض ما ذكره سيد قطب: واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأنَّ الله مخزي الكافرين، وأنَّ الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه: ﴿... واعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ﴾... ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَاب أَلِيم﴾ واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله ـ إلّا الذين عاهدوا ثمّ استقاموا، فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه ـ مع تذكير المؤمنين بأنَّ المشركين لا يرقبون فيهم عهداً، ولا يتذممون من فعلة لو أنّهم قدروا عليهم، وتصوير كفرهم، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحياناً من مودة بسبب قوتهم:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَاللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَام فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْاْ بآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

واقتضت استثارة الذكريات المريرة في نفوس المسلمين... واقتضت الأمر بالمفاصلة الكاملة على أساس العقيدة، ومقاومة مشاعر القرابة والمصلحة معاً... واقتضت تذكيرهم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة... واقتضت أخيراً تطمينهم من ناحية الرزق،...[1]

المُؤذِّنُ!

وأمّا الشخص المبلغ لمهمة إنهاء الشرك في هذه البقاع المباركة، بعد إبراهيم الخليل عليه السلام وما قام به من تطهير لها، فهو ذاك الذي حظي باختيار السماء لهذه المهمة الخطيرة دون غيره، إنّه رسول الله صلى الله عليه وآله ممثلاً بعليّ بن أبي طالب عليهما السلام مبعوثاً له حين راحت السماء تخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤدي عنك إلّا رجلٌ منك».

فراح صلى الله عليه وآله يُعلنها صريحةً: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي».

والتفت إلى عليٍّ عليه السلام حين أحضره فأسمعه: «إنّه لا يؤدي عنّي إلّا أنا وأنت».

وفي خبر:... «فنزل جبرئيل فقال: لا يبلغ عنك إلّا عليٌّ. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام، وأمره أن يركب ناقته العضباء، وأن يلحق أبابكر ـ بعد أن دفعها إليه أولاً ـ فيأخذ منه براءة، و يقرأها على الناس بمكة، فقال أبوبكر: أسخط؟ فقال: لا، إلّا أنّه أنزل عليه أنه لا يبلغ عنك إلّا رجل منك».

---

١. في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآيات من سورة التوبة ١ ـ ٢٨.

وفي خبر آخر:... فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أأنزل اللهُ فيَّ شيئاً؟ قال: لا، «إنَّ الله أمرني أن لا يؤدي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي».

فكان عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام هو ذلك الرجل الذي دفع رسول الله ﷺ براءة إليه، وهو ما أجمع عليه المفسرون ونقلة الأخبار، فقد روى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خطب علي عليه السلام الناس واخترط سيفه فقال: لا يطوفنَّ بالبيت عريان ولا يحجنّ البيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر.[1]

إنَّ هذا البيان أو الإعلان باشره الإمامُ عليٌّ عليه السلام بنفسه بأمر من رسول الله ﷺ؛ ليكون عليه السلام مؤذناً في الدنيا ومؤذناً في الآخرة، ففي المعاني بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ عليهما السلام، قال: «خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة منصرفه من النهروان، وبلغه أنَّ معاوية يسبه ويعيبه ويقتل أصحابه، فقام خطيباً، وذكر الخطبة إلى أن قال فيها: وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿... فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. أنا ذلك المؤذن، قال: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنا ذلك الأذان».

أقول ـ والقول للعلامة الطباطبائي ـ: أي أنا المؤذن بذلك الأذان بقرينة صدر الكلام، ويشير عليه السلام به إلى قصة آيات البراءة.

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذن». وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس أنّه قال لعليٍّ عليه السلام في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس؛ قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾. يقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي...».

وفي تفسير المنار: قال الآلوسي: هو على ما روي عن ابن عباس صاحب الصور عليه السلام،

١. تفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآيات. بتلخيص.

وقيل: مالك خازن النار، وقيل: ملك من الملائكة غيرهما يأمره الله بذلك، ورواية الإمامية عن الرضا عليه السلام وابن عباس أنّه عليٌّ عليه السلام مما لم يثبت من طريق أهل السنة وبعيد عن هذا الإمام أن يكون مؤذناً وهو إذ ذاك في حظائر القدس. وأقول ـ والقول لصاحب المنار ـ: إنَّ واضعي كتب الجرح والتعديل لرواة الآثار لم يضعوها على قواعد المذاهب وقد كان في أئمتهم من يعد من شيعة عليّ وآله كعبد الرزاق والحاكم، وما منهم أحد إلّا وقد عدل كثيراً من الشيعة في روايتهم، فإذا ثبتت هذه الرواية بسند صحيح قبلناها، ولا نرى كونه في حظائر القدس مانعاً منها، ولو كنّا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه عليه السلام وجهه معنى يعد به فضيلة أو مثوبة عند الله تعالى لقبلنا الرواية بما دون السند الصحيح ما لم يكن موضوعاً أو معارضاً برواية أقوى سنداً أو أصح متناً.

وقال السيد العلامة: ولقد أجاد فيما أفاد...[1]

إشارة أخيرة:

ولنا أخيراً أن نُشير إلى العلاقة والاقتران بين آيات الحجِّ وآيات القتال، فإضافة إلى ما ذكرناه في الحلقة الأولى عن آيات الحج في سورة البقرة هناك موضوع آخر عن آيات الحجّ واقترانها بآيات القتال التي تأتي بعدها مباشرةً في سورة البقرة، فآيات الحجّ تبدأ بالآية ١٨٩: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا واتقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وبعد فاصلة قرآنيّة تشكّل مقطعاً من آيات تتحدث عن القتال تبدأ من الآية ١٩٠ وتنتهي بالآية ١٩٥: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ

١. تفسير الميزان، للعلامة الطباطبائي ٨: ١٤٢ ـ ١٤٤؛ وفيه كلام طويل حول هذه المسألة وما قاله كلٌّ من الآلوسي، وصاحب تفسير المنار...؛ تفسير روح المعاني، للآلوسي؛ وتفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا؛ وتفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، سورة الأعراف: ٤٤.

لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يأتي مقطع آخر طويل يتحدث فيه التنزيل العزيز عن الحجّ مرّةً أُخرى؛ يبدأ من الآية١٩٥ حتى الآية٢٠٣ .

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَّريضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّام فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَاتقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ*الحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يا أُوْلِي الأَلْبَابِ*لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَام وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ* ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاس مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا

لَهُ فِي الآخِـرَةِ مِـنْ خَـلاَقٍ *ومِنْهُـمْ مَّن يَقُـولُ رَبَّنَآ آتِنَـا فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَـنَةً وَقِنَـا عَـذَابَ النَّار*أولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيـبٌ مِّمَّا كَسَـبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَـابِ *وَاذْكُـرُواْ اللّهَ فِي أيَّـام مَّعْـدُودَاتٍ فَمَـن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَـيْن فَلاَ إِثْمَ عَلَيْـهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَـلا إِثْـمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّـقَى وَاتَّقُـواْ اللّهَ وَاعْلَمُـوآ أَنَّكُـمْ إِلَيْـهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هـذا في سـورة البقرة، وقد توسـط القتـال مقطعي الحجِّ، وكـذا الأمر في سـورة الحجِّ، فبعـد أن ذكر التنزيـل العزيز الذين كفـروا ومؤامرة صدّهـم في الآية:٢٥.

﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَيَصُـدُّونَ عَـن سَـبيل اللّهِ وَالْمَسْـجِدِ الْحَـرَام الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّـاس سَـوَآءً الْعَاكِـفُ فِيـهِ وَالْبَـادِ وَمَـن يُـرِدْ فِيهِ بِإِلْحَـادٍ بِظُلْـم نُّذِقْهُ مِـنْ عَذَابٍ أَلِيم﴾.

وبعد أن ذكر نبيّه إبراهيم عليه السلام، وقد بوَّأه مكان البيت وتطهيره:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لإِبْرَاهِيـمَ مَـكَانَ الْبَيْـتِ أَنْ لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْئاً وَطَهِّرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِـينَ وَالرُّكَّع السُّـجُودِ﴾.

بدأ بذكر أذان الحج ومنافعه وأحكامه وآدابه الأخرى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّـاسِ بِالْحَـجِّ يَأْتُـوكَ رِجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِـرٍ يَأْتِـينَ مِـن كُلِّ فَـجٍّ عَمِيقٍ *لِّيَشْـهَدُواْ مَنَافِـعَ لَهُـمْ وَيَذْكُـرُواْ اسْـمَ اللّهِ فِي أيَّـام مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِّـن بَهِيمَـةِ الأَنْعَـام فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُـواْ الْبَآئِـسَ الْفَقِيرَ *ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُـمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُـمْ وَلْيَطَّوَّفُـواْ بِالْبَيْـتِ الْعَتِيقِ *ذلِكَ وَمَـن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُـوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّـهِ وَأُحِلَّـتْ لَكُـمُ الأَنْعَـامُ إِلاَّ مَا يُتْـلَى عَلَيْكُـمْ فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْسَ مِـنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُـواْ قَـوْلَ الزُّورِ *حُنَفَـآءَ لِلّهِ غَـيْرَ مُشْرِكِـينَ بِـهِ وَمَـن يُـشْرِكْ بِـاللّهِ فَكَأَنَّمَـا خَـرَّ مِـنَ السَّـمَآءِ فَتَخْطَفُـهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْـوِى بِهِ الرِّيـحُ فِي مَكَانٍ سَـحِيقٍ * ذلِكَ وَمَن يُعَظِّـمْ شَـعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَـا مِن تَقْـوَى الْقُلُوبِ *لَكُـمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَـآ إِلَى الْبَيْـتِ الْعَتِيقِ *وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَـكاً لِّيَذْكُرُواْ اسْـمَ اللّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ

مِّـن بَهِيمَةِ الأَنْعَام فَإِلَهُكُمْ إِلـهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْـلِمُواْ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِـينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَـتْ قُلُوبُهُـمْ وَالصَّابِريـنَ عَلَى مَـآ أَصَابَهُـمْ وَالْمُقِيـمِى الصَّلَوةِ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ*وَالْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَـا لَكُـمْ مِّـن شَـعَآئِرِ اللهِ لَكُـمْ فِيهَا خَـيْرٌ فَاذْكُرُواْ اسْـمَ اللهِ عَلَيْهَـا صَـوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَـتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَـا وَأَطْعِمُواْ الْقَانِـعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَـخَّرْنَاهَا لَكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ*لَن يَنَـالَ اللهَ لُحُومُهَـا وَلاَ دِمَآؤُهَـا وَلَكِـنْ يَنَـالُهُ التَّقْـوَى مِنكُـمْ كَذلِكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَـبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُـمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وبعـد كل هـذا جـاء حديثه مبـاشرةً في مقطع من الآيـة٣٨ حتى الآيـة٤١ وقد تضمّن أولاً دفـاع الله تعـالى عن المؤمنين، فالـكلام عن القتال وعن نـصر الله للمؤمنين وتمكينهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِـعُ عَـنِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِـبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُـورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُـونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِـمْ لَقَدِيـرٌ * الَّذِيـنَ أُخْرِجُوا مِـنْ دِيَارِهِمْ بِغَـيْرِ حَـقٍّ إِلّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللهُ وَلَـوْلاَ دَفْـعُ اللهِ النَّـاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْـضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِـعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَـوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَـرُ فِيهَا اسْـمُ اللهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْـصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْـصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وهـذا أمـر يُثير الانتبـاه حقًّا، ولا بـدَّ مـن أن يكـون في هـذا حكمـة، قـد يُدركها القـارئ المتدبّـر، وقـد لا يسـتطيع، ولكنّهـا تسـتحق الذكـر ولو بإشـارة بسـيطة، والله أعلـم بمـراده. ففـي المقطع القـرآني في سـورة البقـرة لم يواصـل التنزيل العزيـز كلامه عـن الحـجّ، الـذي ابتـدأه بالآيـة١٨٩، وإنّـما انتقـل مبـاشرةً للـكلام عـن القتـال في الآيات١٩٠ـ١٩٥ ليعـود مـرّة ثانية لآيات الحجّ، وبنفس الشـكل تـرى التنزيل العزيز في سـورة الحـجّ مـا إن يذكر مقطعاً لآيـات الحج بدءًا بآيـة الأذان حتى ينتقـل إلى آيات عـن القتـال بـدءًا بالآيـة٣٨. إنَّ هـذا لم يـأت إلّا وفـق حكمـة ودلالـة، ولعلَّـه ـ والله أعلـم بمـراده ـ يُشـير إلى أنَّ هناك ارتباطـاً بين فريضة الحـج المباركة والقتـال، يبدأ من

كـون كلّ منهـما يحتـاج إلى مقدمات، وهي بإيجـاز تتمثل بعدم الانشـغال بالهم الخاص، وبالاسـتعداد لتحمـل أعباء رحلـة لا تخلو من مشـاق وأتعاب ومخاطـر خاصة في تلك القـرون الماضيـة، فالانتقال والسـفر والإنفاق وتعطيـل العمل وفراق الأهـل والعزيز والحبيـب، وقـد يطـول هذا الفـراق أو يكـون فيه الأجـل، وبنظرة بسـيطة إلى رحلات الحـجّ المدوّنـة، نجـد كلَّ هـذه الآلام والمُعانـاة والمخاطـر في قطـع الصحـاري والقفار والتعـرض لقطـاع الطـرق في رحلـة قد تدوم أشـهراً عديـدةً وأياماً قاسـية، وقد يكون هنـاك الكثـير غيرها، يتحملهـا كلُّ من يريد الجهـاد والقتال في سـبيل الله تعالى وإعلاء كلمتـه والدفـاع عنهـا، وجميعهـا تحتاج إلى عـزم وصبر ومصابـرة وتحمّل مـن الحجيج بجموعهـم المهيبـة المتراصـة والقادمـة بأشـكالها وألوانهـا ولغاتهـا وأعرافهـا مـن كلّ حـدب وصـوب، مـن كلّ فـجٍّ عميـق كـما في آيـة الأذان، وأيضـاً مـن جمـوع المقاتلين وهم صـفٌّ كأنَّهـم بنيانٌ مرصـوصٌ...

فالحـجُّ بلا شـك خير مدرسـة بما يحمله من بناء للإنسـان المسـلم، وتعويـده على تحمل المسـؤولية، وتدريبـه على عـدم الانشـغال والغفلة عن تكاليفـه، وبما يتضمّنـه من تضحية بالمـال والجهـد، وإخـلاص في العمل، وتوجّـه نحو البارئ تعـالى، ورجـاء مغفرته وعفوه ورضوانـه، وهـو بهـذا يُعـدُّ المشـهد الأقرب إلى مشـاهد القتـال في سـبيل الله تعـالى؛ لأنه بمثابـة دورة تدريبيـة تتضمّن ألواناً من مفاهيـم التضحية والفداء والبـذل والعطاء؛ ابتغاءً لفضلـه تعـالى ورضـاه، ونصرةً لرسـالة الدين الحنيف، وحفظـاً لمبادئه، ودفاعـاً عن قيمه، وتوطيـداً لدعائمه، وترسـيخاً لأركانه في مختلف الأصعـدة والميادين.

إنَّ السـياق القـرآني المتوفـر على هـذا الاقتران بـين آيات فريضـة الحجّ وآيـات القتال، يسـتدعي الوقـوف طويـلاً عنده؛ لمعرفـة ما يعنيه مـن أمور وآفـاق وأبعاد، ومـا يحمله من مبررات تكمـن فيه، وحكم ينشـدها...

هـذا فيـما تيـسر لنـا مـن أحاديـث وروايـات عـن فضائـل الحـجّ أنَّه يعـدل الجهـاد في

سبيل الله تعالى: «أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ» كما في حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه صلى الله عليه وآله لما سئل؛ أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حجٌّ مبرور».

وجاء في رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «من اتخذ محملاً للحجِّ كان كمن ارتبط فرساً في سبيل الله عزَّوجلَّ».[1]

* * *

١. صحيح البخاري كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور؛ ومن لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق ٢: ١٣٣، باب فضائل الحجّ.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٣)

مالك الأشتر رجلٌ كاد أن يُبدّل وجه التاريخ !

محمد سليمان.[١]

ملخّص البحث:

مولده: اليمن، ولد مالك بن الحارث بن عبد يَغُوث بن سَلَمَة (مَسلَمَة) بن ربيعة بن الحارث بن جَذيمة (خُزيمة) بن سعد (بن قيس) بن مالك بن النخع بن عمرو بن عُلة بن خالد (جَلد) بن مالك بن أدد بن زيد بن يَشجُب بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سبإ، فهو النخعيّ، فالكوفيّ، المعروف بالأشتر، إنَّه شريف كبير القدر، فهو أحد الأشراف والأبطال المذكورين في التاريخ، كان (يركب الفرس الجسام فتخط إبهاماه في الأرض) وكذا عدي بن حاتم.

إنّ مالكاً فارسٌ شجاع، عُرف بصلابته وجرأته وشدّة بأسه، فشهدوا بفروسيته وشجاعته، وكان يُلقب «كبش العراق».

قال العلّامة في الخلاصة: مالك الأشتر جليل القدر عظيم المنزلة، كان اختصاصه بعليٍّ عليه السلام أظهر من أن يخفى، وتأسّف أمير المؤمنين عليه السلام بموته، وقال: «لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال السيد الخوئي: إنَّ جلالة مالك واختصاصه بأمير المؤمنين عليه السلام وعظم شأنه ممّا اتفقت عليه كلمة الخاصة والعامة...

قال ابن أبي الحديد: وكان فارساً شجاعاً رئيساً، من أكابر الشيعة وعظمائها ...

---

١. محقق و باحث ديني .

هنـاك في بـلاد اليمن وفي واحـدة من قبائلها وقبل الإسـلام ولد مالـك بن الحارث بـن عبـد يَغُـوث بن سَـلَمَة (مَسـلَمَة) بـن ربيعة بـن الحارث بـن جَذيمـة (خُزيمة) بن سـعد (بـن قيس) بـن مالك بـن النَّخَع بـن عمرو بـن عُلَة بن خالـد (جَلد) بـن مالك بـن أُدَد بـن زيـد بـن يَشـجُب بـن عَريب بـن زيد بـن كهلان بـن سـبإ، فهـو النخعيّ؛ فالكـوفيّ المعـروف بالأشـتر؛ مـن «الشـتر: انقـلاب جفـن العـين مـن أعـلى وأسـفل وتشـنجه». وهـو وصـف جـاءه متأخـراً واشـتهر بـه، وذلـك حين شُـتِرَت عينـه، أي شُـقّت وانقلـب جفنها في فتح دمشـق وحرب اليرموك، فاشـتهر بالأشـتر، وصار لقباً يعـرف به عـلى مـا ذكروا.

وممّـا قالـوا عنه: إنَّـه «شريف كبـير القدر»، فهـو أحـد الأشراف والأبطـال المذكورين في التاريـخ، كان يركـب الفـرس الجسـام فتخط إبهامـاه في الأرض،فمالك فارس شـجاع، عُـرف بصلابتـه، وجرأتـه، وشـدّة بأسـه، فشـهدوا بفروسـيته وشـجاعته. وكان يُلقـب «كبـش العـراق» كـما ذكـره النجـاشي أحد شـعراء وقعة صفـين في قصيـدة له:

دعونا لهـا الكبـش كبش العراق وقد خالط العسـكر العسكر ...

«... أمّـا كبش العـراق، وهـو الأشـتر، فلـم يكن يـرى إلّا الحـرب، ولكنّه سـكت على مضض...».

قـال ابـن منظـور: «كَبْـشُ القوم: رئيسُـهم وسـيِّدُهم، وقيـل: كَبْـش القـوم حامِيتُهم والمنظـورُ إليـه فيهم، وكَبْشُ الكتيبةِ: قائدُها»، فهو «أحد الشـجعان الأبطال المشـهورين»، «كان فارسـاً شـجاعاً رئيسـاً»، «فـارس شـاعر» طفحت فروسـيته وشـجاعته على ألسـنة المؤرخـين وأقلامهم ...

هـذا إضافـةً إلى فصاحتـه وبلاغتـه، حتـى وصـف بأنـه كان «ذا فصاحـة وبلاغـة» وأنـه «خطيـب بليـغ»، حيـث ذكـروا أنـه كان خطيبـاً شـاعراً مكثـراً، حتى احتـلّ بخطبه

وشاعريته منزلةً جيدةً في معاجم الشعراء وتراجمهم، وقد امتازت أشعاره وأرجوزاته بالجودة والإبداع، ومثال ذلك ما ذكروه عنه في القسم، والقسم هو أن يريد الشاعر الحلف على شيءٍ، فيحلف بما يكون له مدحاً، وما يكسبه فخراً، أو ما يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً له، أو جارياً مجرى التغزل والترفّق. واختاروا مثالاً للأول قول الأشتر النَّخعيّ من الكامل:

بقَّيتُ وفري وانحرفتُ إلى العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لم تخلُ يوماً من نهاب نفوس

وأبيات الأشتر تضمّنت فخراً له، ووعيداً لغيره، فحصل فيها الافتنان مقترناً بالقسم.

أراد بابن هند هذا معاوية بن أبي سفيان، والأشتر قد أبلى بلاءً في صفين، وبرَّ في قسمه الذي نوّه عنه في شعره!. ولا أستعجل أشعاره وخطبه وحتى مواقفه الآن، تاركاً ذكرها لما ستتضمّنه مقالتنا هذه.

هذا وإنَّ جميع هذه المناقب ولعلَّ هناك غيرها؛ جعلته يحظى بزعامة قومه، ولم يُكتفَ بنعته «رئيس قومه» وسيدهم وخطيبهم وفارسهم بل هو «ملك العرب» .. كما أنَّهم وصفوه بأنه «أحد ذوي النصرة والحمية» بعد أن ذكروا أنه كان «أحد أصحاب عليٍّ عليه السلام». وهكذا ذكر فضائلَه عددٌ من كبار المؤرخين، وعلماء الرجال كما يأتينا.

أمّا عن أولاده فابنه إبراهيم كان «أحد الأبطال والأشراف كأبيه، وكان شيعيًّا فاضلاً ـ والكلام للذهبي ـ وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد بن أبيه يوم وقعة الخازر، ثمَّ إنه كان من أُمراء مصعب بن الزبير، **وما علمت له رواية**، وقتل مع مصعب في سنة اثنتين وسبعين».

إسلامه :

اختلف في وقت إسلامه، وتبعاً لذلك اختلفوا في كونه صحابيًّا أو تابعيًّا، فالمشهور أنه لم ينل الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ وبالتالي لم يُعدُّ من الصحابة، بل كان من التابعين ومن كبارهم. وممّا يدلّ على صحبته نصوص عديدة؛ منها أنه كان ممن «أدرك الجاهلية والإسلام» و «ممّن أدرك زمان النبوّة» ... فآمن برسالة الإسلام بقلبه وفكره وجوارحه.

ومنها قوله ـ رحمه الله ـ في جواب بطل الروم حين برز إليه في وقعة اليرموك، فقال له ماهان: أنت صاحب خالد بن الوليد؟ قال: لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ.

وعدّه ابن شهر آشوب في المناقب من وجوه الصحابة وخيار التابعين، وقد ألّف بعض العلماء رسالة في إثبات صحبته للنبيِّ ﷺ كما في الذريعة ...

وأمّا الأعظم شهادةً

فهي تلك التي شهد رسول الله ﷺ له ولعدد من المؤمنين معه بالإيمان! فقد شهد النبيُّ ﷺ بإيمانه، وهي شهادة وصفها ابن أبي الحديد بأنها «شهادة قاطعة من النبيِّ ﷺ بأنه مؤمن!».

وقد جاءت هذه الشهادة في قوله ﷺ لجماعة:

«ليموتنّ أحدكم بفلاةٍ من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين».

فكان الذي مات هو أبوذرٍّ، وكان مالك بن الحارث الأشتر واحداً من تلك العصابة المباركة، التي شهد لها رسول الله ﷺ بالإيمان، وقد وصفها الصحابي الجليل أبوذرّ الغفاري بالبشارة حينما أسمعها هذه العصابة التي ما إن سمعت به حتى أسرعت إليه، وهو في ساعته الأخيرة، وكانوا يُفدّونه بآبائهم وأمّهاتهم! فقال لهم:

«أبشروا فإنّي سمعتُ رسول اللهﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «ليموتَنّ رجلٌ منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين!».

وليس من أولئك النفر أحد إلّا وقد هلك في قرية وجماعة، فأنا لا شكَّ ذلك الرجل، والله ما كَذبتُ ولا كُذبتُ...».

كلمته التأبينيّة:

كانت لمالك الأشتر كلمة في تأبين أبي ذرٍّ رضوان الله تعالى عليه؛ بعد أن سووا عليه التراب، قام على قبره: «فحمد الله وأثنى عليه وذكر نبيَّه محمداًصلوات الله عليه، ثمّ قال: اللهم! هذا أبوذر جندب بن جنادةبن سكن الغفاري صاحب رسولك محمدﷺ، اتبع ما أنزلت من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغير ولم يبدل، ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه، فحقر وحرم حتى افتقر وضيّع حتى مات غريباً في أرض غربة، اللهم! فأعطه من الجنّة حتى يرضى، واقصم من طرده وحرمه ونهاه من مهاجرة حرم رسولك محمدﷺ!».

ثمّ أقاموا يومهم ذلك عندقبره، فلمّا كان بالعشيّ عرضت عليهم أمُّ ذرٍّ الطعام فأكلوا، فلما كان من غد سلموا عليها، وانصرفوا. وفي قول: حملوا أهله معهم حتى أقدموهم المدينة...

إنَّ تلكم الشهادة أو البشارة بإيمان هذه العصابة ـ ومنهم مالك الأشتر ـ لتعدّ وسام فخر وعزٍّ له في الدنيا والآخرة، وهي دليل اعتناقه الإسلام بصدق، وأنه آمن بإخلاص، وجاهد بلا توان ولا تردّد أو تخاذل طيلة حياته المفعمة بمواقف البطولة والثبات على المبدإ، حتى كان من المسلمين حقًّا، ومن أولئك الذين وصفهم التنزيل العزيز:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ...﴾.[1]

---

١. الأحزاب: ٢٣.

لم يترك مالك الأشتر ميادين القتال، فتراه مقاتلاً خاض معارك عديدة منها مشاركته في فتوح الشام، وفي معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم.

ماهان قائد الروم :

«... وبرز ماهان فخرج إليه رجل من دوس فقتله ماهان، وخرج إليه ثان فقتله، وجال ماهان وقوى قلبه ودعا بالبراز، فسارع المسلمون إليه وكلٌّ يقول: اللهمّ اجعل قتله على يدي!

فكان أول من برز إليه مالك النخعي، ثمّ جاوله في ميدان الحرب، فقال له ماهان: أنت صاحبي خالد بن الوليد؟ قال: لا، أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ فحمل على مالك، وضربه بعموده على بيضته، فغاصت البيضة في جبهته فشترت عينه، فمن ذلك اليوم سمي (الأشتر) وكان من فرسان العرب المذكورة، فصبَّر نفسه وحمل على ماهان والدم يسيل من جبهته، وأخذته أصوات المسلمين فقوى عزمه. قال مالك: فاستعنتُ عليه بالله عزَّوجلَّ وصليتُ على محمد ﷺ وضربته ضربة عظيمة، فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن، فلما أحسَّ بحرارة الضربة ولّى منهزماً...».

وهكذا هي مواقفه في مواقع أخرى كفتوح دمشق و بلاد الشام ومصر وبلاد البهنسا والروم والعراق، ولّما احتاجت معركة القادسية ضدَّ كسرى الفرس في جهة العراق إلى مقاتلين، كان مالك في ألف مقاتل منهم هاشم بن عُتبة بن أبي وقّاص، وقيس بن هُبيرة المُراديّ قد التحقوا بجيش اليرموك، وتوجهوا بعد فتح دمشق ليحسموا مع إخوانهم من جند الإسلام معركة القادسيّة هناك.

قال ابن الأثير: سَيَّر أبوعبيدة بن الجرّاح جيشاً مع مَيسَرة بن مَسروق العَبْسيّ، فسلكوا درب (بغراس) من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول من سلك ذلك الدرب، فلقيَ جمعاً للروم معهم عربٌ من قبائل غسّان وتَنُوخ وإياد يريدون اللَّحاق

بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثمّ لحق به مالك الأشتر النَّخَعيّ؛ مدداً من قِبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا.

كما ذكر ابن أعثَم في (الفتوح): أنّ الأشتر تزعّم جيشاً قوامُه ألف فارس ليفتح (آمُد) و (مِيافارقين)، فلمّا رأى مالك حصانةَ حصن آمُد أمر جيشَه بالتكبير وتعالت أصواتهم بالتكبير، فظنّ العدوّ أنّهم عشرة آلاف، فأرسلوا إلى الأشتر في طلب الصلح، وكذلك فعل أهل ميافارقين حيث صالحوه وانتهى الأمر بنصر المسلمين...[1]

كان منه كلُّ ذلك قبل أن يأخذ قراره ويختار الاستقرار، فكانت الكوفة سكناً له حتى عدَّ من الطبقة الأولى من أهل الكوفة، والحقيقة أنَّ الذي يطّلع على سيرته لا يرى فيها استقراراً وسكناً، فلم يترك الرجل الجليل جهاده بالحكمة والكلمة الطيبة والوقوف بشدّة إذا ما اقتضى الأمر ذلك، ضدَّ أيّ ابتعادٍ أو انحراف عن سيرة الإسلام

---

١. المحبر: ١١٣؛ تحرير التحبير في صناعة النثر والشعر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هجرية) تحقيق د.حفني محمد شرف؛ الكتاب الثاني، باب القسم: ٣٢٧ مع هامشها؛ وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ٣٩٦ـ٤٨٤؛ وابن منظور، في لسان العرب ٦: ٣٣٨ كبش، الطبعة الثالثة، سنة: ١٤١٤ هجرية، دار صادر، بيروت/ لبنان؛ الكشاف، للزمخشري ٢: ٢٦٦؛ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: أربعة وعشرون جزءًا: إبراهيم بن الأشتر النخعي؛ فتوح الواقدي ٢: ٢٢٤؛ أسد الغابة ١: ٦١؛ وابن الأعثم ١: ٢٠٨؛ والذريعة، آغابزرك الطهراني ٧: ٣٧؛ معجم رجال الحديث ١٥: ١٦٧؛ وانظر سير أعلام النبلاء، الجزء الرابع: ٣٤؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني ١٠ حرف الميم ١١ـ١٢؛ سِمط اللآلي، للوزير أبي عبيد البكري ١: ٢٧٧ـ٢٧٨؛ وانظر التجليات البلاغية في شروح الحماسة، للدكتور إبراهيم عبد الفتاح رمضان: ٥٢ وبهامشها عن شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي ١: ١١١؛ وشرح ديوان الحماسة، للتبريزي ١: ٤٠؛ وانظر قصة وفاة أبي ذرٍّ في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، جندب بن جنادة، أبو ذر الغفاري؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٥: ٩٨ـ١٠٠؛ وكتاب الفتوح، لابن أحمد الكوفي ٢: ٣٧٧ـ٣٧٨، ١: ٢٠٨؛ وتاريخ الطبري ٢: ٨٠؛ وتاريخ ابن الأثير ٢: ٢٦٥ أو ٣٤٤ سنة ١٥؛ وطبقات ابن سعد ٤: ١٧٢ـ١٧٣.

ومبادئـه وأحكامه.

ثورتهم على الخلافة الثالثة :

مـن أهـم المفاصـل في حياتـه أن كان من تلـك النخبة المؤمنـة التي آلت على نفسـها أن تكـون مـن دعاة الإصـلاح، إبلاغاً وثـورةً وتأثـيراً، وكيـف لا يكونون هكـذا وهم قريبو عهـد بعـصر النبوّة والرسـالة، وقد اسـتوعبوها قيـماً ومواقـف، وظلّت حيّةً نشـطةً لم تخبو آثارها في نفوسـهم، وإذا بهم اليوم يُشـاهدون جهازَ خلافةٍ وبطانةَ سـلطةٍ طغت وتكبّرت وتجـبّرت على مـشروع الإسـلام وواجبات الخلافـة، وصالحـي الأُمّة وحقـوق ضعفائها، فراحـت تكبـت أنفـاس بعضهـم وتـسيء لبعض آخـر، وتـؤذي طائفـةً ثالثة حـين ينطق رجالهـا بالحـقِّ... ويشـاهدون أيضـاً طغيـان جمـع مـن الصحابـة، واسـتئثارهم بالأموال والمقاطعـات هنـا وهنـاك، فغدا مجتمـع يومذاك بـين طبقة محرومة مسـتضعفة مسـحوقة، وطبقـة أثـرت، حين تكدسـت الثروات بـين أيديها، خصوصـاً عند أشـخاص مقرّبين من سـلطة الخلافـة ومن أعمدتهـا: «... وَقَـامَ مَعَـهُ بَنُو أبيـهِ يَخْضَمُونَ مَـالَ اللهَّ خِضْمَـةَ الإِبل نِبْتَـةَ الرَّبيـع إِلىَ أن انْتكَـثَ عَلَيْـهِ فَتْلُهُ، وأَجْهَـزَ عَلَيْهِ عَمَلُـهُ، وكَبَتْ بـهِ بطْنَتُهُ...».

لقـد كان رائد ذلك الخليفة نفسـه؛ أو حبُّـه لأقربائه ومريديه، أو ضعفـه أو إهماله؛ فلم يـضرب عـلى أيدي الآخذين المسـتأثرين بأمـوال العامـة، ومنعهم من التسـلط على رقاب النـاس وإذلال الرعيـة حتى صاروا مدعاةً للفسـاد، وغضبـاً من الناس.

وعـلى عهـدة المسـعودي وصفـه لتلك الفـترة، ونقلـه عدد ممـن كتب عن تلـك الفترة مـن تاريخ المسـلمين ومنهـم ابن خلـدون حيث نقل في مقدمتـه عن المسـعودي قوله: «في أيـام عثـمان اقتنـى الصحابـة الضيـاع والمـال، فكان له يـوم قتل عنـد خازنه خمسـون ومئة ألـف دينـار، وخلف إبـلاً وخيلاً كثـيرة، وبلغ الثمن الواحـد من متروك الزبـير بعد وفاته خمسـين ألـف دينار، وخلـف ألف فرس وألـف أمة، وكانـت غلة طلحة مـن العراق ألف دينـار كلّ يـوم، ومن ناحيـة السراة أكثر من ذلـك، وكان على مربط عبـد الرحمن بن عوف

ألـف فـرس، وله ألـف بعير وعـشرة آلاف من الغنـم. وبلغ الربـع من متروكه بعـد وفاته أربعـة وثمانـين ألفـاً، وخلف زيد بن ثابـت من الفضـة والذهب ما يكـسر بالفؤوس، غير مـا خلـف من الأمـوال والضيـاع بمئة ألف دينـار وبنى الزبـير داره بالبـصرة وكذلك بنى بمـصر والكوفـة والإسـكندرية، وكذلـك بنـى طلحـة داره بالكوفـة، وشـيد داره بالمدينة وبناهـا بالجص والآجر والسـاج. وبنى سـعد بـن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سـمكها وأوسـع فضاءهـا، وجعل على أعلاهـا شرفات».

ومنهـم الدكتـور طـه حسـين، تحـدث عـن تلـك الفـترة بشـكل واضـح، وممّـا ذكره: «... وملكـت قلـة قليلـة مـن المسـلمين أرض الأقاليـم، فانقطـع النـاس إليها وانقسـموا بينهـا شـيعًا وأحزابًـا. ونتيجـة هـذا كلّـه أنّ هـذا النظام الـذي اسـتحدثه عثمان عـن رأيه هـو، أو عـن رأي مشـيريه لم تكـن لـه نتائجـه السياسـية وحدهـا، مـن نشـأة هـذه الطبقة الغنيـة المسرفـة في الغنـى التـي اسـتهوت النـاس وفرقتهـم أحزابًـا، وتنازعـت السـلطان فيـما بينهـا بفضـل هـذه التفرقـة. وإنّـما كانت لـه نتائجـه الاجتماعية أيضًـا؛ فقد بلـغ نظام الطبقـات غايتـه بحكم هـذا الانقلاب، فوُجـدت طبقة الأرسـتقراطية العليـا ذات المولد والثـراء الضخم والسـلطان الواسـع، ووجدت طبقة البائسـين الذين يعملـون في الأرض ويقومـون عـلى مرافـق هـؤلاء السـادة، ووجـدت بين هاتـين الطبقتـين المتباعدتـين طبقة متوسـطة هـي طبقـة العامة مـن العرب الذيـن كانـوا يقيمـون في الأمصار ويغـيرون على العـدو، ويحمـون الثغـور ويـذودون عمّـن وراءهم من النـاس وعـمّا وراءهم مـن الثراء. وهـذه الطبقة المتوسـطة هـي التي تنازعهـا الأغنياء ففرَّقوها شـيعًا وأحزابًـا. والذي يتتبع تاريـخ المسـلمين يلاحـظ أنَّ الـصراع الأول إنّـما كان بـين الأغنيـاء، ثـمّ بـين هـذه الطبقة الوسـطى وهؤلاء الأغنيـاء. فأمّا الطبقة الثالثـة، طبقة العاملـين في الأرض والقائمين على المرافـق المختلفـة، فلـم يظهـر أمرهـا إلّا بعد ذلـك، ولها قصـة أخرى!

فالفتنـة إذن إنّـما كانت عربية، نشـأت من تزاحـم الأغنياء على الغنى والسـلطان، ومن حسـد العامـة العربية لهـؤلاء الأغنيـاء. ولم يكد نظام عثمان هـذا يذاع ويـسرع الأغنياء إلى

الانتفـاع بـه؛ حتـى ظهر الشرُّ، وظهـر في الكوفة قبـل أن يظهر في أيّ مصر آخـر، وظهر في مجلس سـعيد بن العاص نفسـه. وقد كان ذلك سـنة ثـلاث وثلاثين...».

وهكـذا، والقـول لطـه حسـين، صار «المـال يجتمـع إلى المـال والنقد يضـاف إلى النقد، وكان الفقـراء وأوسـاط النـاس يـرون ذلـك فيعجبـون لـه ويعجبون بـه، وقـد تنطلق فيه الألسنة ...».

ومنهـم العلايـلي: في بيـان أسـباب الثورة: «لـين عثـمان، ولا أقول ضعفـه في مواجهة الطغيـان الجديـد حتـى انجرف بـه، فلم تكـن له فيه صفـة الزعيـم الذي يـداوره ويخفّف مـن حدّته وامتـداده، بل وقف عنـه حتى طغى عليه، فـكان انتقاد المصلحـين لهذا الوضع بمثابـة الانتقـاد له؛ لانخراطه الشـديد فيما عليـه الناس».

فيـما تحـدث آخرون عن تسـليط الخليفـة لبني أميّة عـلى رقاب المسـلمين، وعن توزيعه الأمـوال العامـة العائـدة لدولة الخلافة عليهـم وعلى غيرهم ممّـن ارتضاه الخليفـة، خاصّةً أولئـك الذيـن استبسـلوا وتنافسـوا في تحقيق المزيـد من المكاسـب الاجتماعية والسياسـية والاقتصاديـة، ولا يمكـن إغفـال دورهـم فيـما آلت لـه الأحـداث وفي صياغتهـا، بل وفي قتـل الخليفة؛ لإفسـاد أهداف الثوار وثورتهم، وإرباك السـاحة، وخلـط الأوراق؛ لتحقيق مصالحهـم وبقـاء سـلطتهم التـي هددهـا الثـوار... فعبدالرحمن بـن عوف ـ وهـو صهره الـذي اختـاره للخلافـة ـ تـوفي وكان فيـما تـرك ذهـب قطِّع بالفـؤوس حتى مجلـت أيدي الرجـال منه.

وكان مـن جملـة مـا انتقـم بـه عـلى عثـمان أنـه أعطـى ابـن عمّه مـروان بـن الحكم مئة ألـف، وخمسـين أوقية..

وأن عثـمان كتـب لمـروان بخمس مصر، وأعطـى أقرباءه المـال، وتـأول في ذلك الصلة التـي أمـر الله بها، واتخذ الأمـوال (المزارع والعقـارات)...

فتلـك وهـذه أمثلـة من سياسـة الخلافـة الثالثـة الإداريـة والماليـة، وتقديـم بعض من

الصحابة وإبعاد آخرين، كانت السبب في إذكاء التنافس بينهم والتنازع والاقتتال فيما بعد، وكانت سبباً في إماتة مبدإ المساواة في الساحة المسلمة وهو المبدأ الذي أرساه رسول الله صلى الله عليه وآله وأظهرت بدلاً عنه مبدأ الطبقات الذي أدى إلى أن تعصف الفتنة بالنسيج الاجتماعي، وبكيان الخلافة... فكانت الثورة التي أودت بالخليفة قتيلاً، وإن ترك قتله آثاراً وخيمة على الساحة يومذاك، وفتنة كبرى شعارها (الثأر لدم عثمان، ولقميص عثمان ...) حملته صفحات التاريخ وأحداثه وبقيت و ما زالت تئنُّ منه الساحة المسلمة فرقةً وتشتتاً وتسقيطاً واتهامات، بل وحقداً وبغضاً وقتلاً و...[1]

ولاؤه للإمام عليٍّ عليه السلام :

لقد عرف مالك الأشتر بولائه المطلق للإمام عليٍّ عليه السلام، وتميّز هو والصحابي الجليل عمرو بن الحمق بعظيم تمسكهما بولاية الإمام عليه السلام، وأنّهما من شيعته المخلصين، حتى عُدَّ: «من أكابر الشيعة وعظمائها»، كما يصفه ابن أبي الحديد، وأنه «أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة». ويضيف قائلاً أيضاً: وكان شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته:

«رحم اللهُ مالكاً، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله».

وقال ابن القيسراني: وكان الأشتر أحد الفرسان من ذوي النصر والحمية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه...».

وقد صدّر الشيخ المفيد ذكره للذين بايعوا الإمام عليّاً عليه السلام بالخلافة بقوله: «ونحن

---

١. انظر ابن سعد، في الطبقات ٣ : ١٣٦ و ٣ : ٤٤ ؛ البلاذري، في الأنساب ٥ : ٢٥ ؛ الحلبي، في سيرته ٢ : ٨٧ ؛ ابن خلدون، في مقدمته ؛ نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية ؛ المسعودي، في تاريخه ؛ الدكتور طه حسين، في كتابه الفتنة الكبرى، الفصل الثامن ؛ وعبد الله العلايلي، الإمام الحسين عليه السلام المقدمة : ٢١ ؛ وانظر بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ٣١ : ١٤٩ـ٢٤٦ حيث خصص باباً عنوانه: تفصيل مثالب عثمان وبدعه.. ؛ وانظر الهوامش مع مصادرها...

نذكـر الآن مـن جملـة مبايعـي أمير المؤمنـين عليه السلام الراضـين بإمامتـه، الباذلـين أنفسـهم في طاعته...».

ثـمَّ راح يذكـر بيعـة المهاجريـن وبيعـة الأنصار وبيعة بني هاشـم فبيعة سـائر الشـيعة ومـن يلحق منهـم بالذكر مـن أوليائهم وعليه شـيعتهم وأهـل الفضل في الديـن والايمان والعلـم والفقـه والقـرآن المنقطعـين إلى الله تعـالى بالعبـادة والجهـاد والتمسـك بحقائـق الايـمان. وراح يعـدّد أسـماءهم: ... ومالـك بـن الحرث الأشـتر النخعي سـيفه، المخلص في ولايتـه ...

ثـمَّ واصـل كلامـه قائـلاً: «ممّـن كانـوا بالمدينـة عنـد قتـل عثـمان وأطبقوا عـلى الرضا بأمير المؤمنـين عليه السلام فبايعـوه على حرب مَن حاربَ وسِـلم مَن سـالمَ وأن لا يولّـوا في نصرته الأدبـار وحـضروا مشـاهده كلهـا لا يتأخر عنـه منهم أحد حتـى مضى الشـهيد منهم على نصرتـه، وبقـى المتأخـر منهم عـلى حجّتـه حتى مـضى أمير المؤمنـين عليه السلام لسـبيله وكان من بقـى منهم بعـده على ولايتـه والاعتقـاد بفضله عـلى الكافّة بإمامتـه ...».

وكيـف لا يكون كذلك، وهـو الذي احتلّ منه منزلـةً عظيمةً، ومكانةً جليلةً، يُشـبِّهها الإمـام عـليّ عليه السلام بمنزلتـه هو مـن خاتـم الأنبياء صلى الله عليه وآله حيـث قال عنـه عليه السلام: «لقـد كان لي كما كنت لرسـول الله صلى الله عليه وآله».[1]

وشهد مع الإمام عليه السلام: وقعة الجمل و وقعة صفين

وكانتـا بعـد البيعـة للإمـام عـليٍّ عليه السلام بالخلافـة التـي يصفهـا الإمـامُ عليه السلام وكذا أسـبابها بقولـه: «... فَـمَا رَاعَنِـي إلّا وَالنَّـاسُ كَعُـرْفِ الضَّبُـعِ إلَيَّ يَنْثَالُونَ عَـلَيَّ مِـنْ كُلِّ جَانِب حَتَّى

١. شرح نهـج البلاغـة، لابـن أبي الحديـد ١٥ : ١٠٠ ؛ المؤتلـف والمختلف، ابن القيسراني ١ : ٩ ؛ الجمل والنـصرة لسـيد العـترة في حـرب البـصرة، للشـيخ المفيـد (ت٤١٣ هجريـة) تحقيق: السـيد علي مير شريفـي، مكتب الإعـلام الإسـلامي : ١٠١ـ١١٠ .

لَقَدْ وُجِئَ الْحَسَنَان،[1] وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَم، فَلَمَّا نَهَضْتُ بالأَمْر: نَكَثَتْ طَائِفَةٌ! وَمَرَقَتْ أُخْرَى! وَقَسَطَ آخَرُونَ»! ثمَّ يقول عليه السلام: «كَأنهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾! بَلَى والله لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، ولَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وراقَهُمْ زِبْرِجُهَا! أَمَا والَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لاَ حُضُورُ الْحَاضِر وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِر ومَا أَخَذَ الله عَلَى الْعُلَمَاءِ ألاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ولأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْز»![2]

بعد هذه المقدمة، وتقييم الإمام عليه السلام للمرحلة المذكورة التي انتهت بالأمّة إلى حروب ثلاثة... فمن أجمل ما قرأتُ في صفين هو ما كتبه الإمامُ عليٌّ عليه السلام وصفاً لمالك الأشتر حين أمّره على زياد وشريح في صفين قائلاً: «أمّا بعد، فإنّي قد أمّرتُ عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا أمره، فإنه ممن لا يخاف رَهَقَه ولا سِقاطه، ولا بُطؤه عمّا الإسراعُ إليه أحزم، ولا الإسراعُ إلى ما البطء عنه أمثل ...».

أو «وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فَاسْمَعَا لَهُ وأَطِيعَا، واجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ ولاَ سَقْطَتُهُ، ولاَ بُطْؤُهُ عَمَّا الإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، ولاَ إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

فمالك: لا يخاف رَهَقَه. والرهق: الجهل وخفّة العقل، وهو الكذب والعربدة. وأما السِّقاط فهو الخطأ والعثرة والزلّة ...[3]

---

١. لا يصحّ وُطئ الحسنان، وإنّما الصحيح ما أثبتناه، وللحسنين عليهما السلام يومئذٍ فوق العشرين (اليوسفي الغروي).

٢. نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٥ : ٣٠٧ .

٣. انظر وقعة صفين؛ ونهج البلاغة، لصبحي الصالح : ٤٨ الخطبة ٣، ٣٧٢؛ والكتاب رقم ١٣ من كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه .

هـذه هـي صفـات مالـك الـذي دخـل مشـاهد الإمـام عـليٍّ عليه السلام في قتالـه للناكثين في وقعـة الجمـل، وللقاسـطين في وقعـة صفين، شـارك فيها وهو يحمـل تلـك المناقب فضلاً عـن غيرهـا من قـدرات، وولجهـا بأشـعاره وأرجوزاته وخطبـه، وهي لا تقـل صولةً عن سـيفه، وجميعهـا راحـت تحكي لنـا بصيرتـه ووعيه وعقلـه وحكمتـه ومعرفته بـما يجري، وجرأتـه في الحـقّ وشـجاعته في الميادين، مبيّنةً صدقـه وإخلاصه وتفانيـه في خدمة مبادئه وقيمـه ومسـيرته الواضحـة الجليّـة، يُزينهـا ولاؤه للإمام عـليٍّ عليه السلام، وقد اتّصـف به وحمله عـن بصـيرة واعتقـاد بـه وبالحـقّ الذي يـدور معـه حيـث دار، فعليٌّ مـع الحقِّ والحـقُّ مع عليٍّ !

لقـد أجـاد الرجل في كلّ مـا قدّمه في هـذه المواقع، فمواقفـه وخطبه وكلماته وأشـعاره مـلأت أجـواء هـذه المشـاهد وخصوصـاً وقعة صفـين الوقعـة التـي كادت تحسـم الأمر وتطيـح بالقاسـطين الظالمين!

وقعة الجمل :

هنـاك بعيـداً عـن المدينـة المنـورة، وفي منطقـة الخُرَيبَـة مـن نواحي البـصرة في جنوب العـراق، وفي شـهر جمـادى الأولى أو جمـادى الآخـرة سـنة سـت وثلاثين هجريـة، وقف ذلـك الثلاثـي متمثـلاً بالصحـابي طلحـة بـن عبيـد الله والزبـير بـن العـوام، وعرفـوا بالناكثـين، وصـف لاحقهـم التاريـخُ بـه، حيـث فعلـوا نكثهم لبيعتهـم الإمـام عليٍّ عليه السلام، وجنّـدوا أتباعهـم ومـن والاهم حول جمـل كان يحمـل أمَّ المؤمنين عائشـة؛ ليعلنوا حربهم عـلى الإمـام عليٍّ عليه السلام في فتنـة خطيرة أزهقت فيهـا نفوس كثـيرة...! (أكثر مـن ١٠ آلاف)

مـن خطبـه عليه السلام يصـف فَعلَتَهـم ومؤامرتهـم بعـد أن وصـل خبرهـم إليـه: «فخرجُوا يجـرّون حُرْمَةَ رسـول الله صلى الله عليه وآله كـما تُجرُّ الأَمَةُ عنـدَ شرائها مُتوجهـينَ بها إلى البصرة، فَحَبَسَـا نِسَـاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِـمَا، وأَبْـرَزَا حَبِيـسَ رَسُـول الله صلى الله عليه وآله لَهُمَا ولغَيْرِهِمَـا فِي جَيْش مَـا مِنْهُمْ رَجُلٌ

إلّا وقَدْ أعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بالْبَيْعَةِ طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بهَا، وخُزَّان بَيْتِ مَال الْمُسْلِمِينَ وغَيْرِهِمْ مِنْ أهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً وَطَائِفَةً غَدْراً، فَوالله لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إلّا رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ بلاَ جُرْم جَرَّهُ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْش كُلِّهِ؛ إذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، ولَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بلِسَان ولاَ بيَدٍ دَعْ مَا أنهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بهَا عَلَيْهِمْ».

«كلّ واحد منهما ـ أي: طلحة والزبير ـ يرجو الأَمرَ لهُ، ويَعْطِفُهُ عليه دون صاحبه، لا يَمُتّان إلى الله بحبل، ولا يَمُدَّان إليه بسبب ...».

ولــمّا أعلم عدداً من أصحابه بتحركهم هذا، قال محمد بن أبي بكر، وكان واحداً ممن دعاهم؛ ليُخبرهم بذلك: ما يريدون يا أمير المؤمنين؟ فتبسم عليه السلام، وقال: «يطلبون بدم عثمان»! فقال محمد: والله ما قتله غيرهم! ثمّ قال عليٌّ عليه السلام: «أشيروا عليَّ بما أسمع منكم القول فيه».

... وممّا أشار به ابنُ عباس «... وتكتب إلى أمِّ سلمة، فتخرج معك، فإنها لك قوة».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بل أنهض بنفسي ومن معي في اتباع الطريق وراء القوم، فإن أدركتهم بالطريق أخذتهم، وإن فاتوني كتبت إلى الكوفة واستمددت الجند من الأمصار وسرت إليهم، وأما أمُّ سلمة فإنّي لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرجلان إخراج عائشة».

ثمَّ نادى أمير المؤمنين عليه السلام في الناس: «تجهّزوا للسير؛ فإنَّ طلحة والزبير قد نكثا البيعة ونقضا العهد وأخرجا عائشة من بيتها يريدان البصرة لإثارة الفتنة وسفك دماء أهل القبلة». ثم رفع يديه إلى السماء، فقال عليه السلام: «اللهمّ إنَّ هذين الرجلين قد بغيا عليّ، ونكثا عهدي ونقضا عقدي وشاقّاني بغير حقٍّ منهما في ذلك. اللهمّ خذهما بظلمهما واظفرني بهما وانصرني عليهما! ...».

وقد اصطدمت جهود أمير المؤمنين عليه السلام في التوجه إلى البصرة حيث أوى إليها

الناكثون واتخذوها قاعدة لهم في الكيد، اصطدم هذا الجهد وهو في بدايته بمعارضة أبي موسى الأشعري والي الكوفة منذ أواخر خلافة عثمان ـ وكان عليه السلام وهو يستعد للذهاب للبصرة، قد أرسل إلى الكوفة كلاً من ابنه الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر وقيس بن سعد؛ لحمل أهلها على الخروج إلى المعركة في البصرة ـ وتمثّلت معارضة الأشعري ومخالفته بعدم التعاون وعدم نصرته وبتخذيل أهل الكوفة عن الانضمام لجنده عليه السلام، فأعلم الإمامُ عليه السلام أتباعه بموقف أبي موسى، فقام إليه مالك الأشتر، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّك قد بعثتَ إلى الكوفة رجلاً قبل هذين فلم أره أحكم شيئاً وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على غير ما تحب، ولست أدري ما يكون، فإن رأيت جعلت فداك أن تبعثني في إثرهم، فإنَّ أهل الكوفة أحسنُ لي طاعة، وإن قدمتُ عليهم رجوتُ أن لا يخالفني أحدٌ منهم! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلحق بهم على اسم الله عزَّ وجلَّ»! فأقبل الأشتر حتى دخل الكوفة، وقد اجتمع الناس بالمسجد الأعظم، فأخذ لا يمرُّ بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلّا دعاهم، وقال لهم: اتبعوني إلى القصر، فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر، وأبو موسى في المسجد الأعظم يخطب الناس ويثبّطهم عن نصرة عليٍّ عليه السلام وهو يقول: «أيها الناس هذه فتنة عمياء تطأ خطامها، النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الراكب، إنها فتنة باقرة كداء البطن أتتكم من قبل مأمنكم، تدع الحليم فيها حيران كابن أمس، إنا معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أعلم بالفتنة، إنها إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت أسفرت».

وعمار والحسن وقيس يقولون له: اعتزل عملنا لا أمَّ لك وتنحَّ عن منبرنا.

وأبو موسى يقول لعمار: هذه يدي بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«ستكون بعدي فتنة، القاعد فيها خير من القائم».

فقال له عمار: إنّما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لك خاصة ستكون فتنة أنت فيها يا أبا موسى

قاعداً خير منك قائماً.

فبينا هم في الكلام، إذ دخل غلمان أبي موسى ينادون «يا أبا موسى، هذا الأشتر، أُخرج من المسجد».

ودخل عليه أصحاب الأشتر، فقالوا له: أُخرج من المسجد، يا ويلك أخرج اللهُ روحَك، إنك والله...

فخرج أبو موسى، وأنفذ إلى الأشتر أن أجِّلني هذه العشية. قال: قد أجَّلتُك، ولا تبت (ولا تبيتنَّ) في القصر هذه الليلة، واعتزل ناحية عنه. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فأتبعهم الأشتر بمن أخرجهم من القصر، وقال لهم: إنّي أجَّلتُه (أخَّرتُه) فكفَّ الناس عنه ...

وهنا خطبة أُخرى للأشتر، وقد صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناس، اصغوا لي بأسماعكم، وأفهموا لي بقلوبكم، إنَّ الله عزَّوجلَّ قد أنعم عليكم بالإسلام نعمةً لاتقدِّرون قدرها، ولاتؤدون شكرها، كنتم أعداءً؛ يأكل قويكم ضعيفَكم، وينتهب كثيرُكم قليلَكم، وتنتهك حرمات الله بينكم، والسبيل مخوف، والشرك عندكم كثير، والأرحام عندكم مقطوعة، وكل أهل دين لكم قاهرون، فمنَّ اللهُ عليكم بمحمدﷺ، فجمع شمل هذه الفُرقة، وألف بينكم بعد العداوة، وكثركم بعد أن كنتم قليلين، ثمَّ قبضه الله وحوله إليه، فحوى بعده رجلان، ثمّ ولي بعدهما رجل نبذ كتاب الله وراء ظهره، وعمل في أحكام الله بهوى نفسه، فسألناه أن يعتزل لنا نفسه، فلم يفعل وأقام على أحداثه، فاخترنا هلاكه على هلاك ديننا ودنيانا، ولا يبعد الله إلّا القوم الظالمين، وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكاناً، وأعظمهم في الإسلام سهماً؛ ابن عمِّ رسول اللهﷺ، وأفقه الناس في الدين، وأقرأهم للكتاب، وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس، وقد استنفركم فما تنتظرون؟!

أسعيد أم الوليد الذي شرب الخمر وصلى بكم على سكر وهو سكران منها،

واستباح ما حرمه الله فيكم؟ أيّ هذين تريدون؟! قبّح الله من له هذا الرأي!

ألا فانفروا مع الحسن ابن بنت نبيكم، ولا يتخلّف رجل له قوة، فوالله ما يدري رجل منكم مايضرُّه وما ينفعه، وإنّي لكم ناصح شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تُبصرون، أصبحوا إن شاء الله غداً عادَّين مستعدّين، وهذا وجهي إلى ما هُنالك بالوفاء».

فكان لمالك ومن معه الأثر في توعية أهل الكوفة وبيان حقيقة ما يجري، فحصلت إجابتهم وتلبيتهم لدعوة الإمام عليه السلام، فتوجه مجاهدوهم إلى ذي قار حيث مقر الإمام وجنده، وراحوا يستمعون إلى خطبته عليه السلام، وما إن انتهى الإمام منها بالدعاء حين رفع يديه، فقال: «اللهمّ إنَّ طلحة والزبير قطعاني، وظلماني، وألَّبا عليَّ، ونكثا بيعتي، فاحلُل ما عقدا، وانكُث ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءة فيما عمِلا وأمَّلا»! حتى قام الأشتر، فقال:

«الحمد لله الذي مَنَّ علينا فأفضل، وأحسن إلينا فأجمل، قد سمعنا كلامك يا أميرالمؤمنين، ولقد أصبت ووفِّقت، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره، ووصيّه، وأول مصدّق به، ومصلٍّ معه، شهدت مشاهده كلَّها، فكان لك الفضل فيها على جميع الأُمّة، فمَن اتّبعك أصاب حظَّه، واستبشر بفَلَجِه، ومَن عصاك، ورغب عنك، فإلى أمّه الهاوية! لعمري يا أمير المؤمنين، ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه، وفارقا على غير حدث أحدثتَ، ولا جور صنعتَ، فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان، فليُقيدا من أنفسهما؛ فإنّهما أولُ من ألَّب عليه، وأغرى الناسَ بدمه، وأشهد اللهَ لئن لم يدخلا فيما خرجا منه، لنُلحقنَّهما بعثمان، فإنَّ سيوفنا في عواتقنا، وقلوبَنا في صدورنا، ونحن اليوم كما كنّا أمس. ثمّ قعد»!

وهناك كلام قريب من هذا، بعد الفراغ من خطبة أميرالمؤمنين عليه السلام وفيه تسكين لفورته عليه السلام، وذلك حين قام الأشتر فقال: «خفَّض عليك يا أميرالمؤمنين؛ فوالله ما أمر

طلحة والزبير علينا بمُخيل (بمُحيل) ولقد دخلا في هذا الأمر اختياراً، ثمَّ فارقانا على غير جور عملناه، ولا حدثٍ في الإسلام أحدثناه، ثم أقبلا يُثيران الفتنة علينا تائهَين جائرَين، ليس معهما حجّة تُرى ولا أثر يُعرف؛ لقد لبسا العارَ، وتوجها نحو الديار، فإن زعما أنَّ عثمان قتل مظلوماً، فليستقد آلُ عثمان منهما. فأشهد أنّهما قتلاه، وأُشهد الله يا أمير المؤمنين عليه السلام لئن لم يدخلا فيما خرجا منه، ولم يرجعا إلى طاعتك، وما كانا عليه لنُلحقنَّهما بابن عفان».

وكما أنَّ الأشتر كان جريئاً صريحاً مخلصاً في خطبه وفي دعوته لنصرة الإمام عليٍّ عليه السلام في معركة الجمل، كان أيضاً في ميدان القتال حين كان أولاً على ميمنة الإمام عليه السلام في رحلته إلى القوم الناكثين، ثمَّ كان على ميسرة جيشه في ألف رجل ومعه في نفسه عشرة آلاف رجل، أو على اليمن في الميمنة، وقبل احتدام القتال، إذا بصائح من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يُحذّر شباب قريش المنضمين في جند الناكثين من الأشتر، وذلك حين تصاف الناس يوم الجمل، كما في الخبر، «صاح صايح من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا معاشر شباب قريش! أراكم قد لَجَجتُم وغُلبتُم على أمركم هذا، وإنّي أنشدكم الله أن تحقنوا دماءكم ولا تقتلوا أنفسكم، اتقوا الأشترَ النخعيَّ...، فإنَّ الأشتر نشر (يشمّر) درعه حتى يعفُو أثره (يقفوا) تتبعوا أثرُه...

ولمّا التقى الناس صفّين تقدم الأشتر بين الجمعين وهو يزأر كالأسد عند فريسته، ويقول في ذلك شعراً، فخرج إليه من أصحاب الجمل رجل يقال له عامر بن شداد الأزدي، وأجابه على شعره، فحمل عليه الأشتر فقتله، ثمَّ نادى فلم يُجبه أحدٌ فرجع؛ ليعود أخرى ومرات، وذلك حين أقبل الأشتر وجندب بن زهير العامري قبال الجمل يرفلان في السلاح، ويجولان في ميدان الحرب، حتى قتلا عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ومعبد بن زهير بن خلف بن أمية، وعمد جندب لابن الزبير فلمّا عرفه قال: أتركك لعائشة ...».

وراح الأشتر على عادته يجول في ساحته فرأى رجلاً خرج من عسكر البصرة يُعرف بخبّاب بن عمرو الراسبي، وهو يرتجز:

أضربهم ولو أرى عليًّا عمّمتُه أبيضَ مشرفيّا
أريح منه معشراً غويّا

قصده فقتله.

وهكذا حين تقدّم كعب بن سور الأزدي حتى أخذ بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها:

يا معشر الناس عليكم أمّكم فإنها صلاتكم وصومكم
والرحمة العظمى التي تعمّكم ...

قال: فحمل عليه الأشتر فقتله، وخرج من بعده غلام من الأزد يقال له وائل بن كثير فجعل يتلو ويقول شعراً، فبرز إليه الأشتر مجيباً له وهو يقول شعراً، ثمّ حمل عليه الأشتر فقتله.

وخرج من بعده عمرو بن خنفر من أصحاب الجمل وهو يقول شعراً، ثمّ حمل عليه الأشتر فقتله. وخرج من بعده عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية، فجعل يلعب بسيفه بين يدي عائشة وهو يقول شعراً. قال: فبدر إليه الأشتر مجيباً له، ثمّ حمل عليه فضربة ضربة رمى بيمينه فسقط لما به، وثنّاه الأشتر بضربة أخرى فقتله. ثمّ جال في ميدان الحرب وهو يقول شعراً، ثمّ رجع الأشتر إلى موقفه.

وما إن تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو من أشراف قريش ـ وكان اسم سيفه «ولول» ـ فارتجز، فقال:

أنـا ابـنُ عتّـابٍ وسـيفي ولـول والمـوتُ دون الجمـل المجلَّـل

حتـى حمـل عليـه الأشـتر فقتلـه. ثـمّ خرج عبـد الله بـن حكيم بـن حـزام، من بنـي أسـد بن عبد العـزى بن قصي، مـن أشراف قريـش أيضاً، فارتجـز وطلب المبـارزة، فخرج إليـه الأشـتر، فضربه على رأسـه فصرعـه ... وهكـذا وهكـذا حتى تهالك القـوم دفاعاً عن الجمل وعمّـن عليه!

وعـن ابـن أبي الحديـد أنهـم قالـوا: اسـتدار الجمـل كـما تـدور الرّحـا، وتكاثفـت الرجـال مـن حولـه، واشـتدّ رُغـاؤه، واشـتدَّ زحـام النـاس عليـه، ونـادى الحُتات المجاشـعي: أيّهـا النـاس! أمّكـم أمّكـم! واختلـط النـاس، فـضرب بعضهـم بعضـاً، وتقصّـد أهل الكوفة قصـد الجمـل، والرجـال دونـه كالجبـال، كلـّما خـفَّ قـوم جـاء أضعافهـم، فنادى عـليٌّ عليه السلام:

«ويحكـم! ارشـقوا الجمـل بالنَّبـل، اعقـروه لعنـه الله»! فرُشـق بالسـهام، فلـم يبق فيه موضـع إلّا أصابـه النَّبـل، وكان مُتَجَفجفاً، فتعلَّقت السـهام بـه، فصار كالقنفـذ، ونادت الأزد وضبّـة: يـا لثـارات عثـمان! فاتخذوهـا شـعاراً، ونـادى أصحاب عـليٍّ عليه السلام يـا محمد! فاتخذوهـا شـعاراً، واختلـط الفريقـان، ونادى عـليٌّ عليه السلام بشعار رسـول الله صلى الله عليه وآله: يـا منصور أمـت! وهـذا في اليـوم الثـاني من أيـام الجمل، فلـمّا دعا بهـا تزلزلت أقـدام القـوم، وذلك وقت العـصر، بعـد أن كانـت الحـرب مـن وقـت الفجر...

وعن الواقدي أنه روى أنَّ شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم:

«حم لا ينصرون، اللهمّ انصرنا على القوم الناكثين»!

وهكذا توالت نداآته عليه السلام، وكان منها:

«اعقروا الجمل فإنّه شيطان»!

... فكان آخر من أخذ بزمام الجمل رجل من بني ضَبّة، فجعل يقول:

نحن بني ضبّـة أصحاب الجمل ننعي ابنَ عفان بأطراف الأسـل
ردوا إلينا شيخنا ثمّ بجل

فبرز إليه الأشتر وهو يقول:

كيـف نـرد نعثـلاً وقـد قحـل سـارت بـه أمُّ المنايـا ورحـل

وضربه على هامته ففلقها فخرَّ صريعاً...

تقول عائشة: فما زلتُ في عزٍّ حتى فقدتُ أصوات بني ضبَّة!

فـلاذ بالجمل عبـد الله بـن الزبير وتنـاول خطامه بيـده، فقالت عائشـة: مَن هـذا الذي أخـذ بخطـام جملي؟ قـال: أنـا عبد الله ابـن أختك.

فقالت: واثكل أسماء!

ثـمّ برز الأشـتر إليـه، فخلّى الخطـام من يـده وأقبل نحوه، فقـام مقامـه في الخطام عبد أسـود، واصطـرع عبـد الله والأشـتر فسـقطا إلى الأرض، فجعـل ابـن الزبير يقـول: وقد أخذ الأشـتر بعنقـه، ينادي:

اقتلوني ومالكاً، واقتلوا مالكاً معي!

قال الأشـتر: فـما سرّني إلّا قولـه مالك، لو قال: الأشـتر؛ لقتلـوني، ووالله لقد تعجّبت مـن حمـق عبـد الله؛ إذ ينادي بقتله وقتـلي، ومـا كان ينفعـه المـوت إن قتلتُ وقتـل معـي، ولم تلـد امـرأةٌ مـن النخـع غـيري، فأفرجـتُ عنـه، فانهـزم، وبـه ضربـة مثخنـة في جانب وجهه ...

فلـما تفـرّق النـاس عـن الجمـل، أشـفق أمير المؤمنين عليه السلام أن يعـودوا إليـه فتعود الحرب فقـال عليه السلام: «عرقبـوا الجمـل»! فتبـادر إليـه أصحاب علي عليه السلام فعرقبـوه ووقـع لجنبـه، وصاحـت عائشـة صيحـة أسـمعت مـن في العسـكرين!...

ولـه مـع أمِّ المؤمنـين عائشـة لقـاء حـين جاءهابعـد أن عُقـر الجمـل وانتهـت المعركة، وقـال لها:

الحمـد لله الـذي نـصر وليّـه وكبـت عـدوّه، جـاء الحـقُّ وزهق الباطلُ إنَّ الباطـل كان زهوقـاً، كيـف رأيـتِ صنع الله بـك يا عائشـة؟ فقالت: من أنـت ثكلتك أمُّك؟ فقـال: أنا ابنـك الأشـتر. قالـت: كذبتَ لسـتُ بأمّك. قـال: بـلى وإن كرهت.

فقالـت: أنـت الـذي أردتَ أن تُثـكل أختي أسـماء بابنهـا؟! فقـال: المعـذرة إلى الله ثمَّ إليـكِ، والله إنّي لـو لا كنـت طاويـاً ثلاثـةً لأرحتُـك منـه! وأنشـأ يقـول بعد الصـلاة على الرسول:

أعائـشُ لولا أنّنـي كنـتُ طاوياً ثلاثاً لغادرتِ ابـن أختك هالكاً
غـداةَ ينـادي والرمـاح تنوشـه بآخـر صـوت: اقتلـوني ومالكاً

فبكت وقالت: فخرتُم وغلبتُم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾

وعـن الواقـدي:.. فـبرز أول الناس عبـد الله بـن الزبـير، ودعـا إلى المبـارزة، فـبرز إليه الأشـتر، فقالـت عائشـة: مـن بـرز إلى عبـد الله؟ قالـوا: الأشـتر، فقالـت: واثُكلَ أسـماء! فـضرب كلٌّ منهـما صاحبـه فجرحـه، ثـمّ اعتنقـا، فـصرع الأشـترُ عبـدَ الله، وقعـد عـلى صـدره، واختلـط الفريقـان؛ هـؤلاء لينقـذوا عبـد الله، وهـؤلاء ليعينـوا الأشـتر، وكان الأشـتر طاويـاً ثلاثة أيـام لم يُطعم، وهـذه عادته في الحرب، وكان أيضاً شـيخاً عالي السـنّ، فجعـل عبـد الله ينـادى: اقتلوني ومالـكاً...

فلـو قـال: اقتلوني والأشـتر لقتلوهمـا، إلّا أنَّ أكثر مـن كان يمرُّ بهـما لا يعرفهما؛ لكثرة مـن وقـع في المعركـة صرعى بعضهـم فوق بعـض، وأفلت ابن الزبـير من تحتـه أو لم يكد، فذلك قول الأشـتر:

أعائـشُ لـو لا أنّنـي كنـت طاويـاً ثلاثـاً لألفيتِ ابـن أختـك هالكاً

غـداةَ ينـادي والرجـال تحـوزه بأضعف صوت: اقتلوني ومالكاً!
فلـم يعرفـوه إذ دعاهـم وغمّـه خِـدَبٌّ عليـه في العَجاجـة بـاركاً
فنجّـاه منّـي أكلُـه و شـبابه وأنّيَ شـيخٌ لم أكـن متماسـكاً

وروى أبـو مخنـف عن الأصبغ بن نباتـة: دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشـتر عـلى عائشـة بعـد انقضاء أمـر الجمـل، فقالت عائشـة: يا عمار! مـن معك؟ قال: الأشـتر. فقالـت: يـا مالـك! أنـت الـذي صنعت بابـن أختي مـا صنعـت؟ قال: نعـم، ولـو لا أنّي كنـت طاويـاً ثلاثـة أيـام؛ لأرحـتُ أمّة محمـد منه! فقالـت: أما علمـتَ أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «لا يحـلّ دمُ مسـلم إلّا بأحـد أمـور ثـلاث: كفر بعـد الإيـمان، أو زناً بعـد إحصان، أو قتل نفـس بغـير حـقٍّ»! فقـال الأشـتر: عـلى بعـض هـذه الثلاثـة قاتلنـاه يـا أمَّ المؤمنين، وأيـمُ الله مـا خانني سـيفي قبلهـا، ولقد أقسـمتُ ألّا يصحَبنـي بعدها.

قال أبو مخنف: ففي ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذي ذكرناه:

وقالت: على أيّ الخصال صرعته؟! بقتل أتـى، أم رِدّة لا أبـا لـكا!
أم المحصن الزاني الـذي حلَّ قتلـه فقلـتُ لها: لا بدَّ مـن بعض ذلكا.[1]

وقعة صفين:

بغـي آخر، وهـذه المرّة من القاسـطين، حيـث الطلقـاء وأتباعهم، يقودهـم معاوية بن

١. كتـاب الجمـل، للشـيخ المفيـد، استشـارة أمير المؤمنـين أصحابـه ٢٣٩ـ٢٥١، ٢٤١ـ٢٥٦، ٢٦٩، ٣٦٢،٣٦٤،٣٧٠، وفي وقعـة الجمـل، لمحمد بن زكريـا بن دينار الغلابي البـصري (ت٢٩٨هجرية) بروايـة محمـد بـن يحيـى بـن عبـد الله بـن العبـاس الصـولي (ت٣٣٥هجريـة) تحقيـق الشـيخ محمـد حسـن آل ياسـين، مطبعـة المعـارف، بغـداد سـنة ١٣٩٠هجرية ـ ١٩٧٠م: ٤٣ - ٤٤؛ ونهـج البلاغـة، صبحـي الصالـح، الخطبتـان: ١٧٢، ١٤٨؛ وفي شرح نهـج البلاغة، لابن أبي الحديـد ١: ٢٦٢ـ٢٦٥، ٣٠٩ـ٣١١، ١٤: ٢١؛ والفتـوح، لابـن الأعثـم ٢: ٤٧٩ـ٤٨٠؛ وتاريـخ الطـبري ٤: ٤٨٦ـ٤٨٧؛ والكامـل، لابن الأثـير ٣: ١١٨.

أبي سفيان، ومستشاره عمرو ابن العاص، ذو الكيد العظيم ... ولعلّ مالكاً الأشتر هو صاحب الساعة الأخيرة في هذه المعركة تلك التي لو بقيت كما تمنّاها؛ وبذل قصارى جهده من أجلها؛ لتغيّر وجه تلك المرحلة من التاريخ، وما بعدها!!

لقد تفرّد وامتاز بدوره فيها، وهو القائل:

بقَّيتُ وفري وانحرفتُ عن العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشنّ على ابن حرب غارةً ... لم تخل يوماً من نهاب نفوس

حتى سجّل له التاريخ مواقف عديدة حازمة ...

يقول الذهبي: وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب عليٍّ عليه السلام لما رأوا مصحف جند الشام على الأسنة يدعون إلى كتاب الله، وما أمكنه مخالفة عليٍّ عليه السلام؛ فكفَّ ...! نراه في صفين، كما في الخبر؛ وقد خرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب، عليه السلاح لا يرى منه إلّا عيناه، وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بالقناة، ويقول: سوّوا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولّى أهل الشام ظهره، ثمّ حمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمٍّ نبيه، أقدمهم هجرةً، وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حمي الوطيس، وثار القتام، وتكسَّر المران، وجالت الخيل بالأبطال، فلا أسمع إلّا غمغمة أو همهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري!

ثمّ حمل على أهل الشام فكسر فيهم رمحه، ثمّ رجع فإذا هو الأشتر!

وفي خبر نصر: وأقبل الأشتر على فرس كميت محذوف، وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس، ورجعت الشمس من الكسوف، واشتد القتال، وأخذت السباع بعضها بعضاً. فهم كما قال الشاعر:

مضت واستأخر القرعاء عنها وخلى بينهم إلّا الوريع

يقول واحد لصاحبه في تلك الحال: أيّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأيّ نية أعظم من هذه ثكلتك أمّك وهبلتك! إنّ رجلاً كما ترى قد سبح في الدم، وما أضجرته الحرب، وقد غلت هام الكماة من الحر، وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما تراه جذعاً يقول هذه المقالة: اللهمّ لا تبقنا بعد هذا!

وكان من مواقفه :

موقفه من جرير بن عبد الله البجلي الذي أرسله الإمام عليه السلام بكتاب إلى معاوية، وقد وقَّت له وقتاً لا يقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً . فأبطأ عليه حتى اتّهمه الناس. يقول الخبر: ولمّا رجع جرير إلى عليٍّ عليه السلام كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند عليٍّ عليه السلام فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين عليه السلام لو كنتَ أرسلتني إلى معاوية؛ لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخى من خناقه، وأقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو رَوحه إلّا فتحه، أو يخاف غمَّه إلّا سدَّه!

فقال جرير: والله لو أتيتَهم لقتلوك ـ وخوَّفه بعمرو، وذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم ـ وقد زعموا أنّك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيته والله يا جرير لم يُعيني جوابُها، ولم يثقل عليَّ محملها، ولحملت معاوية على خُطّة أعجِله فيها عن الفكر. قال: فائتهم إذاً. قال: الآن وقد أفسدتَهم ووقع بينهم الشرّ؟!

وفي خبر آخر: اجتمع جرير والأشتر عند عليٍّ عليه السلام، فقال الأشتر: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً، وأخبرتك بعداوته وغشّه؟ وأقبل الأشتر يشتمه ويقول : يا أخا بجيلة، إنَّ عثمان اشترى منك دينك بهمَذان. والله ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حيًّا. إنّما أتيتَهم؛ لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم، ثمّ رجعتَ إلينا من عندهم تُهددنا بهم! وأنت والله منهم، ولا أرى سعيك إلّا لهم، ولئن أطاعني فيك

أميرُ المؤمنين؛ ليحبسنّك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستبين هذه الأمور، ويُهلك الله الظالمين! قال جرير: وددت والله أنّك كنت مكاني بُعثت، إذاً والله لم ترجع!...

وراح الأشتر يردُّ على ما كان من تخويف جرير إيّاه بعمرو وحوشب ذي ظُليم، وذي الكلاع قائلاً:

لعمرك يا جرير لقول عمرو ... وصاحبه معاوية الشآمي
وذي كلع وحوشب ذي ظليم ... أخفُّ عليّ من زفّ النعام
إذا اجتمعوا عليّ فخلِّ عنهم ... وعن باز مخالبه دوام
فلست بخائفٍ ما خوّفوني ... وكيف أخاف أحلام النيام
وهمّهم الذي حاموا عليه ... من الدنيا وهمّي ما أمامي
فإن أسلم أعمّهم بحرب ... يشيب لهولها رأس الغلام
وإن أهلك فقد قدّمت أمراً ... أفوز بفلجه يوم الخصام
وقد زأروا إليّ وأوعدوني ... من ذامات من خوف الكلام.[1]

وكان للأشتر موقف آخر، وذلك لمّا قام عليٌّ عليه السلام خطيباً على منبره حين حرّض الناس وأمرهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام، وقد بدأ فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

«سيروا إلى أعداء الله! سيروا إلى أعداء السنن والقرآن! سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار!». فقام رجل من بني فزارة يقال له أربد، فقال: أتريد أن تسيّرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم. كلاّ، ها الله إذاً لا نفعل ذلك! فقام الأشتر فقال: مَن لهذا أيّها الناس؟ وهرب الفزاري، واشتدَّ الناس على أثره، فلُحق بمكان من السوق تباع فيه البراذين، فوطئوه بأرجلهم

١. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم ١: ٥٩ـ٦١؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي: ترجمة الأشتر؛ شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٠٧،٢١٣ مع الهامش.

وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل.

فأُتي عليٌّ عليه السلام، فقيل: يا أمير المؤمنين، قتل الرجل. قال: ومن قتله؟ قالوا: قتلته همدَانُ وفيهم شوبة من الناس. فقال: قتيل عِمّيَّةٍ لا يُدرى من قتله! دِيته من بيت مال المسلمين.

وقال علاقة التيمي:

أعوذ بربي أن تكون منيتي ... كهامات في سوق البراذين أربدُ
تعاوره همدَانُ خفق نعالهم ... إذا رفعت عنه يد وضعت يدُ

وقام الأشتر فحمد الله وأثنى عليه فقال: «يا أمير المؤمنين عليه السلام، لا يهدنَّك ما رأيت، ولا يؤيسنَّك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن. جميع من ترى من الناس شيعتك، وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبون بقاءً بعدك. فإن شئتَ فسر بنا إلى عدوك. والله ما ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاء من أحبَّه، وما يعيش بالآمال إلّا شقيٌّ. وإنّا لعلى بيّنة من ربّنا أنَّ نفساً لن تموت حتى يأتي أجلها، فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس، فأسخطوا الله، وأظلمت بأعمالهم الأرض، وباعوا خَلاقهم بعرض من الدنيا يسير»!

فقال علي عليه السلام:

«الطريق مشترك، والناس في الحقِّ سواء، ومن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه». ثمّ نزل فدخل منزله ...

معركة نهر الفرات:

وقد كان لمالك بن الأشتر دور كبير في هذه المعركة التي كان سببها استيلاء معاوية وجنده على الفرات وصدّهم عن أن يستفيد من مائه جيش الإمام عليٍّ عليه السلام، وإصرار

معاويـة عـلى حرمـان هـذا الجيـش عـلى الرغم مـن معارضـة بعـض ونصيحة آخـر، فقد ذكـروا أنّـه لماغلب أهل الشـام على الفرات فرحوا بالغلبـة، فقـال معاويـة: ياأهل الشـام، هـذا والله أول الظفـر، سـقاني الله ولا سـقى أبـا سـفيان إن شربـوا منـه أبـداً حتـى يقتلوا بأجمعهـم عليـه. وتبـاشر أهل الشـام، فقـام إلى معاويـة رجـل مـن أهل الشـام[همداني]، يقـال لـه المعـري بـن الأقبـل وكان ناسـكاً، وكان لـه ـ فيـما تذكـر همـذان ـ لسـان، وكان صديقـاً ومؤاخياًلعمـرو بـن العاص، فقـال: يا معاويـة! سـبحان الله! الآن سـبقتم القوم إلى الفـرات، فغلبتموهـم عليـه تمنعونهـم عنـه؟! أمـا والله لو سـبقوكم إليه لسـقوكم منه. أليـس أعظـم مـا تنالـون مـن القـوم أن تمنعوهم الفـرات، فينزلـوا عـلى فرضـة أخـرى، فيجازوكـم بـما صنعتم؟ أمـا تعلمـون أنَّ فيهم العبد والأمـة والأجـير والضعيف ومن لا ذنـب لـه. هـذا والله أول الجـور! لقد شـجّعت الجبان، وبـصّرت المرتـاب، وحملت من لا يريـد قتالك عـلى كتفيك. فأغلظ لـه معاوية، وقال لعمـرو: اكفني صديقـك. فأتاه عمرو فأغلـظ، فقـال الهمـداني في ذلك:

لعمـرو أبى معاوية بن حرب ... وعمـرو مـا لدائهـا دواء
سـوى طعن يحـار العقل فيه ... وضرب حـين يختلـط الدماء
فلسـت بتابـع دين ابـن هند ... طوال الدهر ما أرسـى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب ... قـد ذهـب الـولاء فـلا ولاء
وقـولي في حـوادث كل أمـر ... على عمـرو وصاحبـه العفاء
ألا لله دَرّك يـا ابـن هنـد ... لقـد برح الخفاء فـلا خفـاء
أتحمون الفرات عـلى رجـال ... وفي أيديهـم الأسـل الظـماء
وفي الأعنـاق أسـياف حداد ... كأنّ القـوم عندهـم نسـاء
فترجـو أن يجاوركـم عـليٌّ ... بـلا مـاء وللأحـزاب مـاء
دعاهـم دعـوةً فأجـاب قومٌ ... كجرب الإبـل خالطها الهناء

ثمّ سار الهمداني في سواد الليل، فلحق بعليٍّ عليه السلام.

ثـمَّ إنَّ عمـرو بـن العـاص كان معارضاً لمنـع ماء الفـرات عن أهـل العـراق، وقد بيّن لمعاويـة موقفـه هـذا حـين أرسـل إلى معاويـة: أن خـلّ بين القـوم وبين المـاء، أتـرى القوم يموتون عطشـاً، وهـم ينظـرون إلى الماء؟!

وحـين قـال له أيضاً: خـلّ بينهم وبـين الماء، فـإنَّ عليّاً عليه السلام لم يكـن ليظمأ وأنـت ريّان، وفي يـده أعنّـة الخيـل، وهـو ينظـر إلى الفرات حتـى يـشرب أو يمـوت، وأنـت تعلـم أنّـه الشـجاع المطـرق، ومعـه أهل العـراق وأهـل الحجاز، وقد سـمعته أنـا وأنت وهـو يقول: لـو اسـتمكنتُ مـن أربعـين رجـلاً؟ فذكر أمـراً. يعني لـو أنَّ معـي أربعين رجـلاً يوم فتّـش البيـت، يعني بيـت فاطمة!

ولكنَّـه، ومـع نصائحـه هـذه لمعاويـة، كان ممن حـال بين الفـرات وبين أن يـشرب منه أهـل العـراق، حتـى جاء عـن جابر قال: سـمعت تميـماً الناجي، قال: سـمعت الأشـعث بـن قيـس يقـول ـ يـوم حـال عمرو بـن العـاص بيننـا وبـين الفـرات ـ: ويحك يـا عمرو، والله إن كنـت لأظـنُّ لـك رأياً، فـإذا أنت لا عقل لـك، أتُرانـا نُخلّيك والمـاء، تربت يداك وفمُـك! أمـا علمتَ أنّـا معشرُ عُرب، ثكلتك أمُّـك وهبلتك، لقد رمتَ أمـراً عظيماً! فقال لـه عمـرو: أمـا والله لتعلمـنّ اليـوم أنا سـنفي بالعهـد، ونقيم عـلى العقد، ونلقـاك بصبر وجـد. فنـاداه الأشـتر: والله لقـد نزلنا هـذه الفرضة يـا بن العـاص، والنـاس تريد القتال، عـلى البصائـر والدين، وما قتالنا سـائر اليـوم إلّا حميّة. ثم كبّر الأشـعث وكبر الأشـتر، ثمّ حملا، فـما ثار الغبـار حتى انهـزم أهل الشـام...

وكانـت للأشـتر حملـةٌ عـلى عمـرو بـن العـاص يوم الفـرات، فعن إسـماعيل السـدّي يقول:

والله لـكأنّي أسـمع الأشـتر، وهـو يحمـل عـلى عمـرو بـن العاص يـوم الفـرات، وهو يقول:

ويحك يا ابن العاصي تنحَّ في القواصي
واهرُب إلى الصياصي اليوم في عِراص
نأ خذ با لنو ا صي لا نحذر التناصي
نحن ذ و ا لخِما ص لا نقرب المعاصي
في الأدرُع الدِّلاص في الموضع المُصاص

فأجابه عمرو بن العاص:

ويحك يا ابن الحارث أنت الكذوب الحانث
أنت الغرير الناكث أعِدَّ مال الوارث
وفي القبور ماكث

عن بكر بن تغلب قال: حدثّني من سمع الأشتر يوم الفرات، وقد كان له يومئذٍ غناء عظيم من أهل العراق، وهو يقول:

اليوم يوم الحفاظ بين الكماة الغلاظ
نحفزُها والمِظاظ

هذا وقد سجل الأشتر فيها موقفاً آخر لعلّه هو الأكبر، قتل فيها عدداً من كبار فرسان جند الشام، وذلك لما غلب معاوية وجنده على ماء الفرات، وحالوا بين أهل العراق وبينه، وبقي أصحاب عليٍّ عليه السلام يوماً وليلةً بغير ماء، واغتمَّ عليٌّ عليه السلام بما فيه أهل العراق من العطش ... ثم قام الأشتر يحرّض أصحابه؛ فراح مرّةً يدعو الحارث بن همام النخعي، فأعطاه لواءه ثمّ قال: يا حارث لولا أنّي أعلم أنَّك تصبر عند الموت؛ لأخذتُ لوائي منك، ولم أحبُك بكرامتي.

فأجابه الحارث: والله يا مالك؛ لأسرنَّك اليوم أو لأموتنَّ. فاتَّبعني، فتقدَّم وهو يقول:

يا أشتر الخير ويا خيرَ النخع وصاحب النصر إذا عمَّ الفزع

وكاشـف الأمـر إذا الأمـر وقـع ما أنت في الحرب العوان بالجذع
قد جـزع القـوم وعمّـوا بالجزع وجرّعوا الغيـظ وغصّوا بالجرع
إن تسـقنا المـاء فـما هـي بالبـدع أو نعطـش اليـوم فجُنـد مقتطع
ما شئت خُذ منّا وما شئت فدع

فقـال الأشـتر: أدنُ منّـي يـا حارث، فدنـا منه فقبّل رأسـه، وقـال: لا يتبع رأسـه اليوم إلّا خَـيِّر. أو (لا يتبـع هذا اليـوم إلّا خيراً).

وأخـرى يلتفـت إلى أصحابـه جميعـاً ـ وهـو يومئـذٍ عـلى فرس له محـذوف أدهـم كأنه حلـك الغـراب ـ ويصيح فيهم: فدتكم نفسي، شـدّوا شـدّة المُحـرج الراجي الفـرج، فإذا نالتكـم الرماحُ، فالتـووا فيها، وإذا عضَّتكم السـيوفُ، فليعضّ الرجل نواجذه، فإنّه أشـدّ لشـؤون الرأس، ثمّ اسـتقبلوا القـوم بهاماتكم!

الأشتر والفرسان السبعة :

ولكـنَّ أهـل الشـام لم يثبتـوا، وهـم يرون الأشـتر يومئـذٍ على فـرس له محـذوف أدهم كأنّـه حَلـك الغـراب يجـول في عمـق سـاحتهم، وكبار فرسـانهم يتسـاقطون حتـى كانت حصـة الأشـتر منهـم هـي الأكثـر، ففـي خـبر عـن صعصعـة بـن صوحـان، قـال: وقتل الأشـتر في تلـك المعركة سـبعةً ...

لقـد قتـل عـدداً من فرسـان جنـد الشـام، وأولهـم رجل يقـال لـه: صالح بـن فيروز، وكان مشـهوراً بشـدّة البـأس، وقـد ارتجـز على الأشـتر قائلاً:

يـا صاحب الطِّرف الحصان الأدهم أقـدم إذا شـئتَ علينـا أقـدم
أنـا ابـن ذي العـزِّ وذي التكـرُّم سـيّدِ عـكٍّ كلِّ عـكٍّ فاعلـم

فبرز إليه الأشتر، وهو يقول:

آليـتُ لا أرجـع حتـى أضربـا بسـيفيَ المصقـول ضربـاً مُعجباً

أنـا ابـنُ خـير مَذحـج مُركَّبـا مـن خيرهـا نفسـاً وأمًّـا وأبَـا

ثـمّ شـدَّ عليـه بالرمح فقتلـه وفلق ظهـره، ثمَّ رجـع إلى مكانـه! فخرج إليـه مالك بن أدهم السـلماني، وهـو يقول:

إنّي منحـتُ مالـكاً سِـنانيا أُجيبُـه بالرّمـح إذ دَعانيـا
لفارس أمنحه طِعانيا

وشـدَّ عـلى الأشـتر فلما رهقـه التوى الأشـتر على الفـرس، ومار السـنان فأخطـأه. ثمّ استوى على فرسـه، وشـدَّ مالك عليـه بالرمح، وهـو يقول:

خانـك رمـحٌ لم يكـن خوَّانا وكان قدمـاً يقتـل الفُرسـانا
لويتَـه لخـير ذي قحطانَـا وفـارس يخـترمُ الأقرانـا
أشهل لا وغلاً ولا جَبانَا

فقتله.

ثمّ برز إليه فارس آخر يقال له رياح بن عتيك الغساني وهو يقول:

إنّي زعيـم مالـكٍ بـضربِ بـذي غرارين جميـعُ القلـب
عبـلُ الذراعـين شـديدُ الصُّلب (أو شديد العصب).

فارتجز له الأشترُ:

رُويـدَ لا تجـزع مـن جـلادي جـلاد شـخص جامع الفؤادِ
يجيـبُ في الـروع دُعـا المَنـادي يشَـدُّ بالسـيف عـلى الأعادي

فشدَّ عليه فقتله.

وارتجز له فارس آخر يقال له إبراهيم بن الوضّاح الجمحي:

هـل لك يـا أشـترُ في برازي براز ذي غَشـم وذي اعتزاز
مقاوم لِقرنه لزَّاز

فأجابه الأشتر قائلاً:

نعـم نعـم أطلبـه شـهيدا معـي حسـامٌ يقصـمُ الحديـدا
يترك هاماتِ العِدى حصيدا

فقتله.

ثـمّ خـرج إليـه فـارس آخـر يقـال لـه زامـل بـن عبيـد الخزامـي وكان مـن أصحاب الألويـة، فشـدَّ عليـه وهـو يقول:

ياصاحب السيف الخضيب المرسـب وصاحـب الجوشـن ذاك المُذهـبِ
هـل لـك في طعـن غـلام محِـرب يحمـل رُمحـاً مسـتقيم الثعلـبِ
ليس بحيّاد ولا مغلَّبِ

فطعـن الأشـتر في موضع الجوشـن، فصرعـه عن فرسـه، ولم يُصب مقتلاً، وشـدَّ عليه الأشـتر راجلاً، فكسـف قوائـم الفرس بالسـيف وهو يقول:

لا بـدَّ مـن قتـلي أو مـن قتلكا قتلتُ منكم خمسـةً مـن قبلكا
وكلُّهم كانوا حُماةً مثلكا

ثمّ ضربه بالسيف وهما راجلان ...

ثـمّ خـرج إليـه فارس يقال لـه الأجلح بـن منصور الكنـدي، وكان من أعـلام العرب وفرسـانها، وكان عـلى فـرس يقال له لاحق، فلمّا اسـتقبله الأشـتر، كره لقاءه واسـتحيا أن يرجـع، فخـرج إليه... فشـدَّ عليه الأشـتر وهو يقول:

بُليـتَ بالأشـتر ذاك المذحجي بفـارس في حَلَـق مُدَجَّـج
كالليـثِ ليـثِ الغابـةِ المهيَّـج إذا دعـاه القِـرنُ لم يُعـرِّج

فضربه الأشتر فقتله.

وقالـت أختـه حُبلـة بنت منصـور ترثيه في أبيات سـبعة حـين أتاها مصابـه... وماتت حُزنـاً عليه:

ألا فابكـي أخـاً ثقـةً فقـد والله أبكينـا
لقتـل الماجـد القَمقـا م لا مثـلَ لـه فينـا
أتانـا اليـوم مقتلـه فقـد جُـزَّت نواصينـا
كريـم ماجـد الجديـن يشـفي مـن أعادينـا
وممّـن قـاد جيشـهم عـلي وآل مضلونـا
شـفانا الله مـن أهل ال عـراق فقـد أبادونـا
أمـا يخشـون ربّهـم ولم يرعـوا لـه دينـا

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما بلغه مرثيتها أخاها:

أمـا إنّهـن ليـس يملكن مـا رأيتم مـن الجـزع، أما إنّهـم قـد أضرّوا بنسـائهم فتركوهنّ خزايـا مـن قبـل ابن آكلـة الأكبـاد، اللهمّ حمّلـه آثامهـم وأوزارهـم وأثقالاً مـع أثقالهم.

ثـمّ خـرج إليه محمد بـن روضة الجمحي، وهـو يضرب في أهـل العراق ضربـاً منكراً، ويقول:

يـا سـاكني الكوفةِ يا أهـل الفتن يـا قاتـلي عثـمان ذاك المؤتَمـن
ورَّث صـدري قتلُـه طولَ الحزن أضربُكـم ولا أرى أبـا حسـن

فشدَّ عليه الأشتر، وهو يقول:

لا يبعـد اللهُ سـوى عُثمانـا وأنـزل اللهُ بكـم هوانـا
ولا يسـلّي عنكـم الأحزانـا مخالفٌ قـد خالـف الرحمانا
نصرتموه عابداً شيطانا

ثمّ ضربه فقتله.

وعـن صعصعـة قال: ثمّ أقبل الأشـتر يضرب بسـيفه جمهـور الناس حتى كشـف أهل الشـام عن الماء، وهـو يقول:

لا تذكـروا ما قـد مضى وفاتا والله ربّي باعـث الأمواتـا

مـن بعد ما صـاروا كذا رُفاتا لأوردنَّ خيـليَ الفراتـا
شُعث النواصي أو يقال ماتا

ولم تتوقف صولاته وحملاته المرفقة بأُرجوزاته على أصحاب معاوية التي منها:

لسـتُ ـ وإن يكـره ـ ذا الخـلاط ليـس أخو الحرب بـذي اختلاطِ
لكـن عبـوسٌ غـيرُ مستشـاط هـذا عـليٌّ جـاء في الأسـباطِ
وخلَّـف النعيـم بالإفـراط بعرصـة في وسـط البـلاطِ
منحَّـلُ الجسـم مـن الربـاط يحكـم حكـمَ الحـقِّ لا اعتبـاطِ

ومنها:

يا حوشبُ الجِلفُ ويا شيخَ كلع أيُكـما أراد أشـترَ النَّخـعْ
هـا أنـا ذا وقـد يَهولك الفـزع في حومـة وسـطَ قـرار قـد شرعْ
ثَـمَّ تلاقـى بطـلاً غـير جـزع سـائلْ بنا طلحةَ أصحابَ البدعْ
وسلْ بنا ذاتَ البعير المضطجـع كيف رأوا وقـع الليوث في النَّقعْ
تلقـى أمـراً كـذاك مـا فيـه خلع وخالـف الحـقّ بديـن وابتـدعْ

ولّمـا تعـالى بخيله حيـث أمره عـليٌّ عليه السلام، بعث إليه الأشـعث أن أقحم الخيـل، فأقحمها حتـى وضعت سـنابكها في الفرات، وأخذت القوم السـيوف، فولّـوا مدبرين ...!

هـذا وإنَّ الإمـام عليّاً عليه السلام لمّا غلـب على الماء، وطرد عنه أهل الشـام، بعـث إلى معاوية: «إنـا لا نكافيـك بصُنعك، هلـمَّ إلى الماء، فنحن وأنتم فيه سـواء»! فأخذ كلٌّ منهما بالشريعة ممـا يليـه، وقال عليٌّ عليه السلام لأصحابـه: «إنَّ الخطب أعظم مـن منع الماء»!

وراح الأشـتر يواصـل قتالـه في أيام صفـين، ولم يتقدَّم له فارسٌ من فرسـان الشـام إلّا قتلـه، فعـن عبـد الله بن عاصم أنَّـه قال: حدثنـي رجلٌ من قومي؛ أنَّ الأشـتر خـرج يوماً، فقاتل بصفـين في رجـال مـن القـرّاء، ورجـال من فرسـان العرب، فاشـتد قتالهـم، فخرج علينـا رجـلٌ لقـلَّ والله مـا رأيـت رجلاً قط هـو أطـول ولا أعظم منـه! فدعـا إلى المبارزة،

فلـم يخـرج إليه إنسـان، وخـرج إليـه الأشـتر، فاختلفـا ضربتين، وضربـه الأشـتر فقتله. وأيـم الله، لقـد كنّا أشـفقنا عليه وسـألناه ألّا يخـرج إليـه! فلمّا قتله نادى منادٍ مـن أصحابه:

يـا سـهمَ سـهمَ بـن أبي العيـزار يـا خـيرَ مـن نعلمـه مـن زار

وجـاء رجل من الأزد فقال: أقسـم بـالله لأقتلن قاتلك! فحمل على الأشـتر، وعطف عليـه الأشـتر فضربـه، فإذا هو بـين يدي فرسـه، وحمل أصحابه فاسـتنقذوه جريحـاً، فقال أبـو رقيقـة السـهمي: كان هـذا نـاراً، فصادفـت إعصـاراً! فاقتتـل النـاس ذا الحجـة كلّه، فلـمّا مـضى ذو الحجّة تداعـى النـاس أن يكـفَّ بعضهم عـن بعـض إلى أن ينقـضي المحرّم، لعـلَّ الله أن يجـري صلحـاً واجتماعـاً. فكـفَّ الناس بعضهم عـن بعض...

ولمـا انسـلخ المحـرّم واسـتقبل صفـر سـنة سـبع وثلاثـين، وبـدأ الطرفـان يسـتعدان لمرحلـة أخـرى من القتـال، ولّمـا أن دخـلا فيها، كانـت واحدة مـن مفاصلهـا أن انهزمت ميمنـة أهـل العـراق، فأقبـل عليٌّ عليه السلام يركـض نحو الميسـرة، يسـتثيب الناس ويسـتوقفهم ويأمرهـم بالرجـوع نحـو الفـزع، حتـى مـرَّ بالأشـتر فقال عليه السلام لـه: يـا مالك! قـال: لبيك يـا أمـيرَ المؤمنـين! قـال عليه السلام: إئـتِ هـؤلاء القـوم، فقل لهـم: أين فراركـم من المـوت الذي لـن تعجـزوه إلى الحيـاة التـي لا تبقـى لكم؟! فمضى الأشـترُ، فاسـتقبل النـاس منهزمين، فقـال لهـم الكلـمات التي أمـره عـليٌّ عليه السلام بهـنّ. وقـال: أيُّهـا النـاس! أنا مالك بـن الحارث يكرّرهـا فلـم يَلـو أحـدٌ منهـم عليـه. ثـمّ ظنَّ أنّـه بالأشـتر أعـرف في النـاس، فقـال: أيّها النـاس! أنـا الأشـتر، إليَّ أيّهـا النـاس. فأقبلـت إليـه طائفـة، وذهبـت عنـه طائفـة، فقال: عضضتـم بهَـن أبيكـم، مـا أقبـح والله ما قاتلتـم اليـوم! يا أيّهـا النـاس! غُضُّـوا الأبصار، وعضُّـوا عـلى النواجذ، واسـتقبلوا القـوم بهامِكم، ثمّ شـدّوا شـدّة قوم موتوريـن بآبائهم وأبنائهـم وإخوانهـم حَنَقًـا عـلى عدّوهـم، وقد وطَّنـوا على الموت أنفسـهم كي لا يُسـبقوا بثـأر. إنَّ هـؤلاء القـوم؛ والله لن يقارعوكم إلّا عـن دينكم، ليطفئوا السـنّة، ويُحيوا البدعة، ويُدخلوكـم في أمـر قد أخرجكم الله منه بحُسـن البصـيرة. فطيبُوا عبادَ الله نفسـاً بدمائكم

دون دينكم، فإنَّ الفرار فيه سلبُ العزّ، والغلبةُ على الفيء وذلُّ المحيا والممات، وعارُ الدنيا والآخرة، وسخطُ الله، وأليمُ عقابه.

ثمّ قال: أيّها الناس! أخلصوا إليَّ مذحِجاً. فاجتمعت إليه مذحج، فقال لهم: عضَضتم بصُمِّ الجندل! والله ما أرضيتم اليومَ ربَّكم، ولا نصحتم له في عدوِّه، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصباح، وفرسان الطّراد، وحُتوف الأقران، ومَذحِج الطِّعان الذين لم يكونوا يُسبقون بثأرهم، ولا تُطلُّ دماؤهم، ولا يُعرفون في موطن من المواطن بخسفٍ؛ وأنتم أحدُّ أهل مصركم، وأعدُّ حيٍّ في قومكم، وما تفعلوا في هذا اليوم فإنّه مأثور بعد اليوم. فاتّقوا مأثور الحديث في غدٍ واصدُقوا عدوَّكم اللقاء؛ فإنَّ الله مع الصابرين. والذي نفسُ مالكٍ بيده ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلى أهل الشام ـ رجلٌ على مثل جناح بعوضةٍ من دين الله. والله ما أحسنتم اليوم القراع. اجلُوا سوادَ وجهي، يرجع في وجهي دمي. عليكم بهذا السواد الأعظم، فإنَّ الله لو قد فضَّه تبِعه من بجانبيه كما يتبع مؤخّر السيل مُقدَّمه. قالوا: خُذ بنا حيثُ أحببتَ. فصمد بهم نحو عُظمهم مما نحو الميمنة، وأخذ يزحف إليهم الأشتر ويردُّهم،... ليس هذه فقط؛ بل لمّا سمع الأشتر أولئك الذين يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا، ثمَّ نستقدم نحن وهم، فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر! فقال لهم: إليَّ، أنا أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظهر أو نهلك. فوقفوا معه على هذه النية والعزيمة. ففي هذا القول قال كعب بن جعيل:

وهمدان زُرقٌ تبتغي من تحالفُ

وزحف الأشتر نحو الميمنة، وثاب إليه أناس تراجعوا من أهل البصيرة والحياء والوفاء، فأخذ لا يصمُد لكتيبة إلّا كشفها، ولا لجمع إلّا حازه وردَّه!

وكان يقول حين يرى صمود أصحابه، وقد استُشهد بعضهم: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم. ألا يستحي الرجل أن ينصرف لم يَقتُل ولم يُقتَل، ولم يُشفَ به على القتل؟

فهـو في الوقـت الـذي تراه مقاتـلاً؛ أيامه في صفين خطـيرة، تركت الرعـب في أعدائه، يحمـل عـلى أعدائه فيكشـفهم، تـراه يُراقب من حولـه، فيُحـرّض ويشـجّع الآخرين على القتـال، فكلماتـه تمـلأ فضـاء المعركـة: عضّـوا عـلى النواجـذ مـن الأضراس، واسـتقبلوا القـوم بهامكـم، فإنَّ الفـرار من الزحـف فيه سـلبُ العزِّ، والغلبةُ عـلى الفَـيء، وذلُّ المحيا والمماتِ، وعـارُ الدنيـا والآخرة...

هـذا، وكما وصفـوه، فإنَّه كان من أعظم الرجـال وأطولهم، إلّا أنَّ في لحمـه خِفّةً قليلة، وكان يومئذٍ يقاتـل عـلى فـرس لـه، وهـو مقنـع في الحديـد، في يـده صفيحـة لـه يمانيـة إذا طأطأهـا، خلـت فيها ماءً منصبًّا، فإذا رفعها، كاد يُغشي البصرَ شـعاعُها، ويضرب بسـيفه قُدمـاً، وهو يقـول: الغَمراتُ ثـمَّ ينجَلينا.

حتى قال أحدهم: ما في العرب رجلٌ مثل هذا، إن كان ما أرى من قتاله على نيّته ...

واستُشهد عمار فقال مالك الأشتر:

نحـن قتلنـا حوشـباً ... لمـا غـدا قـد أعلـما
وذا الـكلاع قبلـه ... ومعبـداً إذ أقدمـا
إن تقتلـوا منّـا أبـا ال ... يقظان شـيخاً مسـلما
فقـد قتلنـا منكـم ... سـبعين رأسـاً مجرمـا
أضحـوا بصفـين وقد ... لاقـوا نـكالاً مؤثـما

ومـن أيـام مالـك في صفين، حـين أقبل عمرو بـن العاص في خيـل من بعـده... وأقبل النـاس عـلى الأشـتر فقالـوا: يـوم مـن أيامـك الأُوَل، وقد بلـغ لـواء معاوية حيـث ترى. فأخذ الأشـتر لـواءه ثـمّ حمل وهـو يقول:

إنّي أنـا الأشـترُ معـروف الشَّـتر ... إنّي أنـا الأفعـى العراقـيُّ الذكـر
لسـتُ مـن الحـي ربيـع أو مضر ... لكنَّنـي مـن مَذحـج الغُـرِّ الغُرر

فضارب القوم حتى ردّهم على أعقابهم، فرجعت خيل عمرو.

وقال النجاشيُّ في ذلك:

رأيت اللواء لواء العقاب ... يقحمه الشانئ الأخزرُ
كليث العرين خلال العجاج ... وأقبل في خيله الأبترُ
دعونا لها الكبشَ كبشَ العراق ... وقد خالط العسكرَ العسكرُ
فردَّ اللواء على عقبه ... وفاز بحظوتها الأشترُ
كما كان يفعل في مثلها ... إذا ناب معصوصِبٌ منكرُ
فإن يدفع الله عن نفسه ... فحظُّ العراق بها الأوفرُ
إذا الأشترُ الخيرُ خلَّى العراق ... فقد ذهب العُرفُ والمنكرُ
وتلك العراقُ ومن قد عرفت ... كفقع تنبَّته القَرقَرُ.[1]

أسير أهل القبلة!

الأصبغ بن ضرار الأزدي، وكان طليعةً ومسلحةً لمعاوية، فندب الإمامُ عليٌّ عليه السلام له الأشتر، فأخذه أسيراً من غير أن يقاتل. وكان عليٌّ عليه السلام ينهى عن قتل الأسير الكافّ، فجاء به ليلاً، وشدَّ وثاقه وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوّهاً،... فأسمع الأشتر قصيدةً من اثني عشر بيتاً، وكان منها:

ألا ليتَ هذا الليل طبَّق سرمداً ... على الناس لا يأتيهم بنهار
يكون كذا حتى القيامة إنّني ... أحاذر في الإصباح ضرمةَ نار
فيا ليلُ طبِّق إنَّ في الليل راحةً ... وفي الصبح قتلي أو فِكاك إساري
فيا نفسُ مهلاً إنَّ للموت غايةً ... فصبراً على ما نابَ يا ابنَ ضرار
أأخشى ولي في القوم رحمٌ قريبةٌ ... أبى اللهُ أن أخشى والأشترُ جاري

---

١. انظر في هذا كله: وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ١٦٣ـ١٧٠، و ٣٩٦ـ٣٩٧ مع الهامش؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٣ : ٣٢٧، و ٨ : ٤٢؛ إضافة إلى الفتوح، لابن الأعثم؛ وتاريخ الطبري: أحداث وقعة صفين.

فغـذا به الأشـتر على عـليٍّ عليه السلام، فقال: يـا أمير المؤمنين عليه السلام، هذا رجل من المسـلحة لقيتُه بالأمـس، فـوالله لـو علمـتُ أنَّ قتله الحـقُّ قتلته، وقـد باتَ عندنـا الليلة وحركنا بشـعره، فـإن كان فيـه القتـلُ فاقتلـه وإن غضبنـا فيه، وإن سـاغ لك العفو عنـه، فهبه لنـا. قال: هو لـك يـا مالـك، فـإذا أصبـت منهم أسـيراً فلا تقتلـه، فإنَّ أسـير أهـل القبلة لا يفـادى ولا يقتـل. فرجـع بـه الأشـتر إلى منزله وقـال: لك مـا أخذنا منـك، ليس لك عندنـا غيره!

ومـن مواقفـه أيضـاً قصيدتـه التـي أخافـت معاويـة وأربكتـه، وقـد قالها حين سـمع عليًّـا عليه السلام يقول:

«إنّني مناجز القوم إذا أصبحتُ».

قد دنا الفصل في الصباح وللسلم ... رجـالٌ وللحـروب رجـالُ
فرجـالُ الحـروب كلُّ خِـدَبٍّ ... مُقحـم لا تهـدُّه الأهـوالُ
يضربُ الفارسَ المدجَّج بالسـيف ... إذا فُـلَّ في الوغـى الأكفـالُ
يـا ابن هنـدٍ شُـدَّ الحيازيمَ للموت ... ولا يذهبـنْ بـك الآمـالُ
إنَّ في الصبـح إن بقيـتَ لأمـراً ... تتفـادى مـن هولـه الأبطـالُ
فيـه عزُّ العـراق أو ظفرُ الشـام ... بأهل العراق والزلـزالُ
فاصبروا للطعان بالأسـل السُّـمر ... وضربٍ تجـري بـه الأمثـالُ
إن تكونـوا قتلتـم النفـرَ البيـضَ ... وغالـت أولئـك الآجـالُ
فلنـا مثلُهـم وإن عظـم الخـط ... بقليـل أمثالهـم أبـدالُ
يخضِبون الوشـيجَ طعناً إذا جُرَّت ... مـن المـوت بينهـم أذيـالُ
طلـبَ الفـوز في المعـاد وفي ذا ... تُسـتهان النفـوسُ والأمـوالُ

فأجابه الأشتر قائلاً:

نعـم نعـم أطلبـه شـهيدا ... معي حسـامٌ يقصمُ الحديدا
يترك هاماتِ العِدى حصيدا

فقتله.

فلما انتهى إلى معاوية شعر الأشتر، قال: شعرٌ مُنكرٌ من شاعر مُنكر، رأس أهل العراق وعظيمهم ومِسعَر حربهم، وأول الفتنة وآخرها. وقد رأيتُ أن أكتب إلى عليٍّ عليه السلام كتاباً أسأله الشام ـ وهو الشيء الأول الذي ردّني عنه ـ وألقي في نفسه الشكُّ والريبةُ... فإذا هو الأشتر!

ثمَّ زحف الإمام عليٌّ عليه السلام إلى أهل الشام بعسكر العراق والناس على راياتهم، وزحف إليهم أهل الشام، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين، ولكنّها في أهل الشام أشدّ نكاية وأعظم وقعاً، فقد ملّوا الحرب وكرهوا القتال، وتضعضعت أركانهم. فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذَنوب، عليه السلاح، لا يرى منه إلّا عيناه وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أصحاب عليٍّ عليه السلام بالقناة، ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدّل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولّى أهل الشام ظهره، ثمَّ حمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: الحمد لله الذي جعل فينا ابنَ عمِّ نبيه، أقدمهم هجرةً، وأولهم إسلاماً، سيفٌ من سيوفِ الله صبَّه على أعدائه. فانظروا إذا حَمِيَ الوطيسُ، وثار القَتامُ، وتكسَّر المرانُ، وجالت الخيلُ بالأبطال، فلا أسمعُ إلّا غمغمةً أو همهمةً، فاتّبعوني وكونوا في إثري. ثمَّ حمل على أهل الشام، وكسر فيهم رُمحَه، ثمَّ رجع، فإذا هو الأشتر!

وهكذا ظلَّ الأشتر يسجل موقفاً تلو الآخر، وهو على فرس كميتٍ محذوف، قد وضع مِغفره على قربوس السرج، يخوض غمار قتال ما أشدَّه في ليلة الهرير، دون أن يغفل عمّن حوله، فمرّةً يناديهم: «اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس»! وأخرى: «شدّوا، فدى لكم عمي وخالي! شدّةً ترضون بها الله وتُعزون بها الدين، فإذا شددتُ فشدّوا». ثمَّ نزل وضرب وجه دابته، ثمَّ قال لصاحب رايته: أقدم. فأقدم بها ثمَّ شدَّ على القوم، وشدَّ معه أصحابه يضرب أهل الشام حتى

انتهى بهم إلى عسكرهم. ثمَّ إنَّهم قاتلوا عند العسكر قتالاً شديداً، فقتل صاحب رايته. وأخذ عليٌّ عليه السلام ـ لمّا رأى الظفر قد جاء من قبله ـ يمدّه بالرجال. وهنا قام الإمامُ عليه السلام خطيباً:

فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أيّها الناس! قد بلغ بكم الأمرُ وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبقَ منهم إلّا آخر نفس، وإنَّ الأمور إذا أقبلت، اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غادٍ عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عزَّ وجلَّ»!

وكاد الأشتر أن يُغيّر وجه التاريخ!

حين «لم يبقَ منهم إلّا آخر نفس»! هكذا كان إخبار الإمام عليه السلام؛ إنَّه الشوط الأخير، يتولاه مالك الأشتر، ليُعلن انتصار الحقّ على الباطل، فيتغيّر وجه تاريخنا بانتهاء مرحلة الضلال التي طرأت عليه، وسلطة البغاة وتمردهم، واستبداد الطغاة وتعسفهم ... وإذا بالخديعة قد وقعت، وجاءت صيغتها:

«ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا! أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنَّك بالغ به حاجتك في القوم، فإنّي لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه! فعرف ذلك معاوية فقال: صدقت»!

هكذا تمخّض دهاءُ ابن العاص؛ ليُنقذ الموقف في ساعته الأخيرة، فكانت النهاية كما وصفها وتوقّعها: إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا؛ وختم الأمر بالتحكيم!

جاءت نصيحة عمرو هذه لمعاوية، حين دعاه بعد أن بلغه خطاب عليٍّ عليه السلام، فقال: يا عمرو، إنّما هي الليلة حتى يغدو عليٌّ عليه السلام علينا بالفيصل أو بالفصل، فما ترى؟

قال: إنَّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولستَ مثله؛ هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاءَ وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم،

وأهل الشام لا يخافون عليًّا عليه السلام إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً...

فرفعت المصاحف على أطراف الرماح، استقبلوا عليًّا عليه السلام بمئة مصحف، حتى بلغت خمسمئة مصحف. والإمام عليه السلام يقول:

«اللهمّ إنَّك تعلم أنَّهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم، إنَّك أنت الحكم الحقّ المبين».

فيما أصحابه اختلفوا في الرأي، فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحلّ لنا الحرب، وقد دعينا إلى حكم الكتاب!

وأما كبشُ العراق، وهو الأشتر، القائل وهو يخوض معارك صفين والمنادي بأعلى صوته في المخدوعين: «إنّي قد رجوتُ الله أن يفتح لي»!

«أمهلوني فواقاً، فإنّي قد أحسست بالفتح»! «فأمهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعتُ في النصر»! فكان يصبو إلى تحقيق ضربته الأخيرة، فيُنهي ملك بني أميّة وخطّهم ومنهجهم إلى الأبد، ويحظى بتغيير وجه تلك المرحلة بل ذلك التاريخ؛ فيأتي تاريخٌ آخر تحت ظلال الإمامة العادلة والصادقة والمحقّة ...

وكان صبيحة ليل الهرير ـ وهو الذي لم يكن يرى إلّا الحرب إنهاءً وإسقاطاً لمشروع القاسطين ـ قد أشرف على عسكر معاوية؛ ليدخله.

عن نصر قال: حدّثني فضيل بن خديج، عن رجل من النخع، قال: «رأيت إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير (ويبدو أنَّ السائل هو مصعب بن الزبير) فسأله عن الحال كيف كانت؟ فقال: كنت عند عليٍّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه عليٌّ عليه السلام يزيد بن هانئ: أن ائتني. فأتاه فبلَّغه، فقال الأشتر: ائته فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إنّي قد رجوتُ الله أن يفتح لي فلا تعجلني! فرجع يزيد بن هانئ إلى عليٍّ عليه السلام فأخبره، فما هو إلّا أن انتهى

إلينا حتى ارتفع الرَّهجُ، وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائلُ الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال له القوم: والله ما نراك إلّا أمرته بقتال القوم. قال: أرأيتموني ساررتُ رسولي إليه؟ أليس إنّما كلّمتُه على رؤوسكم علانيةً وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلّا فوالله اعتزلناك.

قال: ويحك يا يزيد! قل له: أقبل إليَّ، فإنَّ الفتنة قد وقعت! فأتاه فأخبره. فقال له الأشتر: ألِرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال: أما والله لقد ظننت أنَّها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقةً، إنَّها من مشورة ابن النابغة ـ يعني عمرو بن العاص ثمّ قال ليزيد: ويحك ألا ترى إلى ما يَلقَون؟! ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟! أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد: أتحبُّ أنَّك ظفرت هاهنا، وأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام بمكانه الذي هو به يُفرج عنه ويُسلَم إلى عدوه؟! قال: سبحان الله! لا والله ما أحبُّ ذلك! قال: فإنّهم قالوا: لترسلنَّ إلى الأشتر، فليأتينّك أو لنقتلنّك بأسيافنا؛ كما قتلنا عثمان، أو لنُسلمنَّك إلى عدوِّك. فأجابهم: يا أصحاب الجباه السود ...!

هكذا خاطبهم حين أقبل الأشتر حتى انتهى إليهم، فصاح فقال: يا أهل الذلّ والوهن! أحين علوتم القوم، فظنوا أنّكم لهم قاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم. أمهلوني فواقاً، فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فأمهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعتُ في النصر. قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: فحدّثوني عنكم ـ وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم ـ متى كنتم محقّين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيراً منكم في النار! قالوا:

دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم في الله. إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا. قال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود! كنا نظنُّ أنَّ صلاتكم زهادة في الدنيا؛ وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت! ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلاّلة! ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون! فسبوه وسبّهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم عليٌّ عليه السلام فكفوا. وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين عليه السلام، احمل الصف على الصف يصرع القوم. فتصايحوا: إنَّ عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القرآن، ولم يسعه إلّا ذلك. قال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين عليه السلام قد قبل ورضي بحكم القرآن، فقد رضيتُ بما رضي أمير المؤمنين عليه السلام. فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين عليه السلام، قد قبل أمير المؤمنين عليه السلام. وهو ساكت لا يبضُّ بكلمة مطرق إلى الأرض...» وهو الذي عرف بقوله:

«وأما كبش العراق، وهو الأشتر، فلم يكن يرى إلّا الحرب، ولكنه سكت على مضض».

وإن تقطّع قلبه حسرات، وانطوت نفسه على أهداف، فقد ختم موقفه أن كان واحداً ممن شهد بما في الكتاب أو وثيقة التحكيم؛ نزولاً عند إرادة الإمام عليه السلام وامتثالاً له...

وعاد مالك الأشتر إلى ولايته على الجزيرة حين ردَّه الإمامُ عليه السلام إليها بعد رجوعه من صفين؛ وإذا به يقود قتالاً ضدَّ هجمات وغارات في بعض أراضي الجزيرة من قبل أتباع معاوية بقيادة الضحّاك بن قيس الذي بعثه معاوية على ما في سلطانه من أرض الجزيرة...[1]

١. وقعة صفين ٢٥٠ ـ ٢٥٤، و ٤٧٣ ـ ٤٧٤، و ٤٨٤، ٤٩٢؛ كتاب الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي ١: ٣٢٢ـ٣٢٤ والهامش.

وأخيراً ولاية مصر :

فبعد أن رجع الإمامُ عليٌّ عليه السلام من صفين، وردَّ مالك الأشتر إلى ولايته على الجزيرة، اضطربت الأمور في مصر، وفسدت على محمد بن أبي بكر، فبلغ عليًّا عليه السلام توثبهم عليه، فقال: ما لمصر إلّا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها بالأمس، يعني قيس بن سعد، أو مالك بن الحارث الأشتر. فكتب الإمام عليه السلام لمالك وهو يومئذٍ بنصيبين:

«أما بعد، فإنّك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأسدّ به الثغر المخوف. وقد كنتُ وليتُ محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه خوارج، وهو غلام حدث السن ليس بذي تجربة للحروب، فأقدم عليَّ لننظر فيما ينبغي. واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك. والسلام».

فأقبل الأشتر إلى عليٍّ عليه السلام، واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي... فلمّا دخل الأشتر على عليٍّ عليه السلام حدّثه حديث مصر وخبّره خبر أهلها، وقال له:

«ليس لها غيرك، فاخرج إليها رحمك الله، فإنّي إن لم أوصك اكتفيتُ برأيك، أو (لا أوصيك اكتفاءً برأيك) واستعن بالله على ما أهمّك، واخلط الشدّة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدّة حين لا يغني عنك إلّا الشدّة».

سؤال: أبعد أن قتل محمد بن أبي بكر حصل هذا التعيين للأشتر، أو في حياته؟

لو اكتفينا بما جاء في كتاب الإمام عليٍّ عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر، لدلّنا على أنَّ محمد بن أبي بكر مازال حيًّا وقت تعيين الأشتر بدلاً عنه واليًّا على مصر، وأنَّ الأشتر قتل قبل وصوله مصر، أثناء استعداده، أو في طريقه إليها، فكتاب الإمام عليه السلام خير دليل على ذلك والمتضمّن ثلاثة أمور:

الأول: ما أصاب محمد بن أبي بكر من غيظٍ، أو شقَّ عليه وصعب وثقل ... «أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك...».

الثاني: إشادته بالأشتر وترحّمه عليه... «إنَّ الرجل الذي كنتُ وليتُه أمر مصر كان

رجلاً لنـا ناصحاً... فرحمـه اللهُ...»!

الثالـث: طلبـه مـن محمـد بمواصلـة ولايتـه ... «فأصحِـر لعـدوّك، وامـض عـلى بصيرتِـك ...».

هـذا، إضافـةً إلى جـواب محمـد بن أبي بكـر نفسـه... ففي النهـج: ومن كتـاب لهعليه السلام إلى محمـد بـن أبي بكر لمّـا بلغـه توجّـده مـن عزلـه بالأشـتر عـن مصر، ثـمّ توفي الأشـتر في توجهـه إلى مصر قبـل وصولـه إليها:

«أمّـا بعـد، فقـد بلغنـي موجدتك مـن تسريـح الأشـتر إلى عملـك، وإني لم أفعل ذلك اسـتبطاءً لـك في الجهـد، ولا ازدياداً لـك في الجدِّ، ولو نزعـتُ ما تحت يدكَ من سـلطانكَ لولّيتُـكَ مـا هو أيسر عليك مؤونـةً، وأعجب إليـكَ ولايـةً! إنَّ الرجل الذي كنـتُ وليتُه أمـر مـصر كان رجـلاً لنا ناصحـاً، وعلى عدوّنـا شـديداً ناقماً، فرحمـه اللهُ! فلقد اسـتكمل أيامـه ولاقـى حِمامَه، ونحـن عنـه راضـون. أولاهُ اللهُ رضوانَه وضاعف الثـوابَ له!

فأصحِـر لعـدوّك، وامض على بصيرتِك، وشـمِّر لحـرب من حاربك، وادع إلى سـبيل ربِّـك، وأكثـر الاسـتعانة بالله، يكفِـك ما أهمّـكَ، ويُعِنكَ على ما نـزل بكَ، إن شـاء اللهُ»!

وعـن ابـن أبي الحديـد: قـال إبراهيـم: وحدثنا محمـد بـن عبـد الله، عـن المدائنـي، عن رجالـه، أنّ محمـد بـن أبي بكر لمـا بلغـه أنَّ عليّـاًعليه السلام قد وجـه الأشـتر إلى مصر، شـقَّ عليه، فكتـبعليه السلام إليـه عند مهلـك الأشـتر: أمّا بعد، فقـد بلغنـي موجدتك من تسريح الأشـتر إلى عملـك، ولم أفعـل ذلك اسـتبطاءً لك عـن الجهاد، ولا اسـتزادة لك منـي في الجد، ولو نزعـت مـا حوت يداك مـن سـلطانك لولّيتك ما هـو أيسر مؤنـة عليك، وأعجـب ولاية إليـك! إلّا أن الرجـل الـذي وليته مـصر كان رجلاً لنا مناصحـاً، وهو على عدوّنا شـديد، فرحمـة الله عليـه! فقـد اسـتكمل أيامـه، ولاقـى حمامـه ونحـن عنـه راضـون، فـرضي الله عنـه، وضاعـف له الثواب، وأحسـن لـه المـآب! فأصحر لعدوك وشـمر للحـرب، وادع إلى سـبيل ربِّـك بالحكمة والموعظة الحسـنة، وأكثـر ذكـر الله والاسـتعانة به، والخوف منه،

يكفك ما همّك، ويعنك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلّا برحمته! والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه: إلى عبد الله أمير المؤمنين عليه السلام من محمد بن أبي بكر سلام عليك! فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أمّا بعد، فقد انتهى إليَّ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام وفهمته، وعرفت ما فيه، وليس أحد من الناس أشدّ على عدوّ أمير المؤمنين عليه السلام، ولا أرأف وأرق لوليه مني. وقد خرجت فعسكرت، وأمنت الناس إلّا من نصب لنا حرباً، وأظهر لنا خلافاً، وأنا أتبع أمر أمير المؤمنين عليه السلام، وحافظ ولاجئ إليه وقائم به، والله المستعان على كلّ حال، والسلام على أمير المؤمنين عليه السلام ورحمة الله وبركاته!

يقول صاحب النجوم الزاهرة: وفي ولاية الأشتر هذا على مصر قبل محمد بن أبي بكر الصديق اختلاف كثير، حكى جماعة كثيرة من المؤرخين، وذكروا ما يدل على أنَّ ولاية محمد بن أبي بكر كانت هي السابقة بعد عزل قيس بن سعد بن عُباجة، وجماعة قدموا ولاية الأشتر هذا، ولكلّ منهما استدلال قويّ، والذين قدّموا الأشتر هم الأكثر، وقد رأيت في عدّة كتب ولاية الأشتر هي المقدمة فقدمته لذلك.

ثمَّ الرجل لما ترجم للأشتر، وذكر التالي: قال علماء السيرة ـ كابن إسحاق وهشام والواقدي ـ: لما اختلَّ أمر مصر على محمد بن أبي بكر الصديق، وبلغ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: ما لمصر إلّا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها ـ يعني قيس بن سعد بن عُبادة ـ أو مالك بن الحارث، يعني الأشتر هذا.

قلتُ: وهذا مما يدلُّ على أنَّ ولاية محمد بن أبي بكر الصديق كانت هي السابقة، اللهمّ إلّا إن كان لما اختلَّ أمر مصر على محمد، عزله عليٌّ رضي الله عنه بالأشتر، ثمَّ استمرّ محمد ثانياً بعد موت الأشتر على عمله حتى وقع من أمره ...

أقول: أي حتى قُتل ألقاه قاتله في جيفة حمار ثمَّ حرقه بالنار، وقيل: إنّه قطع

رأسه، وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به، وهو أول رأس طيف به في الإسلام ... فإن صحَّ هذا فرأس عمرو بن الحمق الخُزاعي هو الثاني الذي طيف به، لا الأول ...

وقُتل الأشتر ـ رضوان الله عليه ـ مسموماً:

وختاماً وبما كان يُحبُّ الأشتر ويرجو؛ ختمتِ السماءُ حياته المعطرة إيماناً، وسيرته المفعمة حيويةً ونشاطاً في سبيل الحقِّ تعالى، ومواقفه التي لا تردد فيها ولا تخاذل، ولا تهالك على منافع دنيوية هنا وهناك، بل ثبوت على القيم والمبادئ الإسلامية التي وعاها واقتنع بها؛ ختمتها له بفوز طالما تمنّاه؛ ليجد مكانه، ﴿... مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

وقع هذا الأمر إمّا في شهر رجب ٣٧ هجرية، وإمّا في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة ٣٨ هجرية، وقيل في سنة ٣٩ هجرية، عن عمر لعلّه تجاوز سبعين سنة. ودفن إمّا في القلزم، ولضريحه قبة في منطقة المرج؛ قلزم القديمة...

وقد وردت أخبار في كيفية قتله، منها: أنّه قتل بمصر بعد قتال شديد... ومنها: أنَّه مات حتف أنفه ... ولكن أشهرها أنه سقي السمّ قبل أن يبلغ مصر، فمات مسموماً، وأنَّ معاوية بن أبي سفيان وراء ذلك، فهو الذي تابع أخبار تعيينه والياً على مصر، وراح يُحرّض ويُشجع على قتله قبل وصوله مصر. ففي الغارات: أنَّ عليًّا عليه السلام لمّا بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها، وبلغ معاوية خبره، بعث رسولاً يتبع الأشتر إلى مصر يأمره باغتياله، فحمل معه مزودين فيهما شراب، وصحب الأشتر فاستسقى الأشتر يوماً، فسقاه من أحدهما ثمّ استسقى ثانيةً فسقاه من الآخر وفيه سمٌّ فشربه، فمالت عنقه، فطلبوا الرجل ففاتهم...

وخبر آخر عن مغيرة الضبي: أنَّ معاوية دسَّ للأشتر مولى لآل عمر، فلم يزل

المولى يذكر للأشتر فضل عليٍّ عليه السلام وبني هاشم حتى اطمأنّ إليه الأشتر واستأنس به، فقدم الأشتر يوماً ثقله أو تقدم ثقله، فاستسقى ماء، فقال له مولى عمر: هل لك ـ أصلحك الله ـ في شربة سويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سمٌّ فمات.

قال: وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دسَّ إليه السمَّ مولى عمر: ادعوا على الأشتر فدعوا عليه، فلمّا بلغه موته، قال: ألا ترون كيف استجيب لكم!

يقول ابن أبي الحديد: فخرج الأشتر من عنده، فأتى برحله، وأتت معاوية عيونه، فأخبروه بولاية الأشتر مصر فعظم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أنَّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدَّ عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له: إنَّ الأشتر قد ولّي مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ، فاحتل في هلاكه ما قدرتَ عليه...

الذهبي: ولمّا رجع عليٌّ عليه السلام من موقعة صفين، جهز الأشتر والياً على ديار مصر، فمات في الطريق مسموماً، فقيل: إنَّ عبداً لعثمان عارضه فسمَّ له عسلاً، وقد كان علي يتبرّم به؛ لأنّه صعب المراس، فلمّا بلغه نعيه، قال: إنا لله، مالك، وما مالك، وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان حديداً لكان قيداً، ولو كان حجراً؛ لكان صلداً على مثله فلتبك البواكي!

عالَمان! لقد كان لوقع أنباء مقتله رضوان الله عليه أصداء عظيمة، توزعت بين عالَمين؛ كما جاء في كلمة الإمام عليٍّ عليه السلام وهو يؤبّن مالكاً ويرثيه:

«أما والله ليهدّنَّ موتُك عالَماً، وليُفرحنَّ عالَماً»! عالَم الإمام عليٍّ عليه السلام وأتباعه. عالَم معاوية وأتباعه. وشتّان بين هذين العالَمين في تلقي خبر رحيل مالك الأشتر! فبقدر حزن عليٍّ عليه السلام وألمه، بل أكثر من ذلك، كانت شماتة معاوية وفرحه الذي لم يخفه، فكانت له كلمات، منها: أنَّه ما إن وصله نبأ مقتله حتى ردّد كلمته المشهورة:

«إنَّ لله جنوداً من عسل»! كلمة طالما كان يُرددها هو وصاحبه عمرو بن العاص

الـذي سرَّ أيضـاً بهـلاك مالـك، وقـال: إنَّ لله جنـوداً من عسـل. ومنهـا: أنَّه لمّـا أقبل إليه الـذي سـقاه السـمَّ، وأخبره بهـلاك الأشـتر، قام في النـاس خطيبـاً، فقال:

أمّـا بعـد، فإنّـه كان لعليّ بـن أبي طالب عليه السلام يـدان يمينـان، فقطعت أحدهمـا يوم صفين (يعني عـمار بـن يـاسر)، وقطعـت الأخرى اليـوم وهو مالك الأشـتر.

فيـما كان لمقتلـه أثـر كبـير عـلى الإمـام عـليٍّ عليه السلام، حتـى ورد عن صعصعة بـن صوحان أنَّـه لـمّا بلـغ عليًّـا عليه السلام مـوت الأشـتر، قـال: «إنـا لله وإنا إليـه راجعـون، والحمـد لله ربِّ العالمـين، اللهـمّ إنّي أحتسـبه عندك، فإنَّ موتـه من مصائب الدهـر، فرحـم الله مالكاً! فقد وفى بعهـده، قـضى نحبـه، ولقى ربَّه، مـع أنّا قد وطّنا أنفسـنا على أن نصبر عـلى كلِّ مصيبة بعـد مصابنا برسـول الله صلى الله عليه وآله، فإنّها أعظـم المصائب»!

عـن أشـياخ النخـع؛ قالـوا: دخلنـا على عليٍّ عليه السلام حـين بلغـه مـوت الأشـتر، فجعـل يتلهّـف ويتأسـف عليه ويقـول: لله درّ مالك..! وما مالـك! لو كان جبلاً لـكان فنداً، ولو كان حجـراً لـكان صلـداً، أمـا والله ليهـدنّ موتـك عالمـاً وليفرحـنّ عالماً، عـلى مثل مالك فلتبـك البواكـي، وهل موجـود كمالك؟!

وقريـب منـه عن الشريف الـرضي: مَالِـكٌ وَمَا مَالِـكٌ! والله لَـوْ كَانَ جَبَلاً لَـكَانَ فِنْداً، ولَـوْ كَانَ حَجَراً لَـكَانَ صَلْـداً، لاَ يَرْتَقِيهِ الْحَافِـرُ، ولاَ يُوفِي عَلَيْـهِ الطَّائِرُ!

قال الرضي: و الفند: المنفرد من الجبال.

عـن مغـيرة الضبـي قـال: لم يـزل أمـرُ عـليٍّ عليه السلام شـديداً حتى مات الأشـتر، وكان الأشتر بالكوفة أسـود (هـو أسـود مـن فـلان أي أجـلّ منـه، الأسـود مـن القـوم أجلّهم) مـن الأحنـف بالبـصرة.

ابـن أبي الحديـد، بعد أن يذكر ما هو خلاف المشـهور من تاريخ وفاتـه وأنّه مات حتف أنفـه قال: أنَّ الأشـتر مات في سـنة تسـع وثلاثـين متوجهـاً إلى مصر واليـاً عليها لعليٍّ عليه السلام. قيل: سـقي سـمًّا، وقيل: إنّه لم يصـح ذلـك، وإنّما مات حتف أنفه.

قال: فأمّا ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل، فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق.

وقال ابن أبي الحديد عنه، وهو يذكر سيرته في القتال:

لله أمٌّ قامت عن الأشتر، لو أنَّ إنساناً يقسم أنَّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلّا أستاذه عليه السلام؛ لما خشيتُ عليه الإثم! ولله درّ القائل، وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق!

وبحقّ ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله»!

وقال عليه السلام: «وبكته أختُه».

وقد روى أبو العباس المبرد في «الكامل» لأخت الأشتر مالك بن الحارث النخعي تبكيه:

أبعد الأشتر النخعي نرجو ... مكاثرةً ونقطع بطن واد
ونصحب مذحجاً بإخاء صدق ... وإن نُنسب فنحن ذرا إياد
ثقيفٌ عمُّنا وأبو أبينا ... وإخوتنا نزار أولو السّداد.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: حدّثنا مولى للأشتر، قال: لما هلك الأشتر، أصيب في ثقله رسالة علي عليه السلام إلى أهل مصر: «من عبد الله أمير المؤمنين عليه السلام إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عُصي في الأرض، وضرب الجور برواقه على البر والفاجر، فلا حق يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه. سلام عليكم! فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو.[1]

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ٤٠٧؛ ٣٤، رقم: ٤٤٣ ومن كتاب له عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٦: ٧٨-٧٩ و ١٥: ١٠١-١٠٢ و ٢: ٢١٣-٢١٤ و ٨: ٣٠٤؛ تهذيب التهذيب،

رسائلُ وكتبٌ وعهدٌ مباركٌ :

بضاعـة اصطحبهـا الأشـتر معـه؛ من الإمـام عليه السلام إلى أهل مـصر، عُثر عليهـا في خرجه بعـد أن غُدر بـه، فقُتل!

عـن فضيـل بـن خديـج، عـن مـولى الأشـتر، قـال: لماهلك الأشـتر وجدنـا في ثقلـه رسـالة عـلي عليه السلام إلى أهل مـصر: «بسـم الله الرحمـن الرحيم، من عبـد الله أمـير المؤمنين إلى النفـر من المسـلمين الذين غضبـوا لله إذ عصي في الأرض، وضرب الجـور برواقه، على البرِّ والفاجـر، فلا حق يسـتراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه، سـلام عليكم فـإنّي أحمد إليكم الله الـذي لا إلـه إلّا هـو. أمّا بعـد، فقد وجّهت إليكـم عبداً من عبـاد الله لا ينـام أيام الخوف، ولا ينـكل عـن الأعـداء حذار الدوائر، أشـدّ عـلى الكفار مـن حريق النـار، وهو مالك بن الحـارث الأشـتر أخو مذحج، فاسـمعوا لـه وأطيعوا، فإنه سـيف من سـيوف الله، لا نابي الضريبـة ولا كليـل الحد، فـإن أمركم أن تقيمـوا فأقيمـوا، وإن أمركم أن تنفـروا فانفروا، وإن أمركـم أن تحجمـوا فأحجمـوا، فإنّـه لا يقـدم ولا يحجـم إلّا بأمـري، وقـد آثرتُكم به عـلى نفـسي لنصيحته وشـدّة شـكيمته على عـدوّه، عصمكـم الله بالحـقِّ وثبتكـم باليقين، والسـلام عليكم ورحمـة الله وبركاته».[1]

والأشـتر في طريقـه إلى مـصر سـنة ٣٨، يحمـل كتـاب تعيّنـه واليًـا عليهـا مـن قبـل الإمـام عـلي عليه السلام وبيـده عهد، يُعـدُّ هو الوثيقـة الأطـول والأحكم بمضامينها السياسـية

لابـن حجر العسـقلاني ١٠ : ١٣ ؛ وسـير أعلام النبلاء، للذهبي ٤ : ٣٤ ؛ كتـاب الغارات، للثقفي ١ : ٢٥٦ـ٢٥٩ ، ٢٦٤ـ٢٦٥ ؛ الصحـاح والقامـوس: أسـود ؛ شرح نهـج البلاغـة، لابـن أبي الحديد ٦ : ٧٤؛ النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسـن يوسـف بـن تغرى (ت ٨٧٤ هجريـة) سـنة ٣٦ ذكر ولاية الأشـتر النخعـي على مصر وولاية محمـد بن أبي بكـر ١ : ١٣٥ـ١٤٨

١. نهـج البلاغـة، صبحـي الصالح : ٤١٠، الكتاب رقـم ٣٨ و رقـم ٦٢ : ٤٥١ـ٤٥٢ ؛ إضافةً لغيرها من الكتـب إلى أهـل مـصر التي رافقـت مالك الأشـتر، وكلهـا بمضامينها العاليـة مع ما فيهـا من ترجمة صادقة لمالك ولسـيرته وإشـادة به تُعـدُّ الوثائق الأدقّ لتلـك المرحلة .

والاجتماعية والأخلاقية، تُعدُّ دستور عمل، سميت بالعهد، أو هكذا عرفت واشتهرت في التاريخ، لم يكتب الإمامُ عليه السلام مثلَه إلى ولاته، بل اختصَّ مالكاً به دون غيره، وهو دليل آخر على أهمية هذا العبد الصالح وجدارته، وأنّه أهل لهذا العهد إلتزاماً وعملاً، لولا كيد الظالمين، وكما يصفه صبحي الصالح: وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن.

ويصفه ابن أبي الحديد: إنَّه نسيج وحده، ومنه تعلم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة.

وقال فيه شهاب الدين النويري: لم أرَ فيما طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه مصر، فأحببت أن أورده على طوله، وآتي على جملته وتفصيله؛ لأنَّ مثل هذا العهد لا يُهمل، وسبيل فضله لا يُجهل.

وقال فيه القلقشندي: كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعي حين ولّاه مصر، وهو من العهود البليغة، جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك، وهذه نسخته فيما ذكره ابن خلدون في تذكرته: ...[1]

... ومن كتاب له عليه السلام، كتبه للأشتر النخعي، لمّا ولّاه مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَفِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ ولاَّهُ مِصْرَ جبَايَةَ خَرَاجِهَا وجِهَادَ عَدُوِّهَا وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا وعِمَارَةَ بلاَدِهَا.

---

١. كتاب صبح الأعشى، للشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٠ : ١٢ شرح ١ : ٢٦٦ـ٢٦٧ ؛ نهاية الأرب في فنون الآداب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣ هجرية) تحقيق: الدكتور علي بو ملحم، دار الكتب العلمية بيروت ٦ـ٧ـ٨: ٢١ـ٣١ .

أَمَـرَهُ بتَقْـوَى الله وإيْثَـار طَاعَتِـهِ واتِّبَـاع مَا أَمَرَ بـهِ فِي كِتَابِهِ مِـنْ فَرَائِضِهِ وَسُـنَنِهِ، الَّتِي لاَ يَسْـعَدُ أَحَـدٌ إلَّا باتِّبَاعِهَـا ولاَ يَشْـقَى إلَّا مَـعَ جُحُودِهَا وإضَاعَتِهَـا، وأنْ يَنْصُرَ اللهَ سُـبْحَانَهُ بقَلْبِـهِ ويَـدِهِ ولسَـانِهِ فَإنَّهُ جَلَّ اسْـمُهُ قَـدْ تَكَفَّلَ بنَصْر مَـنْ نَصَرَهُ وإعْـزَاز مَنْ أعَـزَّهُ، وأمَرَهُ أنْ يَكْـسِرَ نَفْسَـهُ مِـنَ الشَّـهَوَاتِ ويَزَعَهَا عِنْـدَ الْجَمَحَـاتِ فَإنَّ النَّفْـسَ أمَّارَةٌ بالسُّـوءِ إلَّا مَا رَحِمَ اللهُ!

ثُـمَّ اعْلَـمْ يَـا مَالِـكُ أنِّي قَـدْ وَجَّهْتُكَ إلَى بـلاَدٍ قَـدْ جَـرَتْ عَلَيْهَـا دُولٌ قَبْلَكَ مِـنْ عَدْل وَجَـوْر، وأنَّ النَّـاسَ يَنْظُـرُونَ مِـنْ أمُـورِكَ فِي مِثْـل مَـا كُنْـتَ تَنْظُـرُ فِيـهِ مِـنْ أمُور الْـوُلاَةِ قَبْلَـكَ، ويَقُولُـونَ فِيـكَ مَا كُنْتَ تَقُـولُ فِيهِمْ، وإنَّمَا يُسْـتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بمَا يُجْـرِي اللهُ لَهُمْ عَـلَى أَلْسُـن عِبَـادِهِ، فَلْيَكُنْ أحَـبَّ الذَّخَائِـرِ إلَيْكَ ذَخِـيرَةُ الْعَمَـل الصَّالِح، فَامْلِـكْ هَوَاكَ وَشُـحَّ بنَفْسِـكَ عَـمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ فَإنَّ الشُّـحَّ بالنَّفْس الإنْصَـافُ مِنْهَا فِيمَا أحَبَّـتْ أوْ كَرِهَتْ، وأشْـعِرْ قَلْبَـكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّـةِ والْمَحَبَّةَ لَهُـمْ واللُّطْفَ بِهِـمْ، ولاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَـبُعاً ضَارياً تَغْتَنِـمُ أكْلَهُـمْ؛ فَإنَّهُـمْ صِنْفَـان إمَّا أخٌ لَـكَ فِي الدِّين وإمَّـا نَظِيرٌ لَـكَ فِي الْخَلْق يَفْـرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَـلُ وتَعْـرِضُ لَهُـمُ الْعِلَـلُ، ويُؤْتَى عَـلَى أيْدِيهِـمْ فِي الْعَمْـدِ وَالْخَطَـإ فَأعْطِهِمْ مِـنْ عَفْوكَ وَصَفْحِـكَ مِثْـل الَّـذِي تُحِـبُّ وتَـرْضَى أنْ يُعْطِيَـكَ اللهُ مِنْ عَفْـوِهِ وصَفْحِـهِ فَإنَّـكَ فَوْقَهُمْ ووَالِي الأَمْـر عَلَيْـكَ فَوْقَـكَ واللهُ فَوْقَ مَـنْ ولاَّكَ ...[1]

وهـذه خلاصة مـا جاء عنـه في أقوالهم: معجم رجـال الحديث: الأشـتر النخعي: من أصحاب عليٍّ عليه السلام، رجال الشـيخ.

وعدَّه البرقي في أصحاب عليٍّ عليه السلام من اليمن...

وعدَّه ابـن شهرآشـوب في المناقـب: مـن وجـوه الصحابـة وخيـار التابعـين... عـدَّ الأشـتر مـن التابعـين الكبـار، ورؤسـائهم وزهادهـم... وقـال الكـشي: حدّثني عبيـد بن محمد النخعـي... وكانـت لـه صحبة، قال: مكـث أبوذر رحمـه الله بالربذة حتى مـات، فلمّا

١. انظر نصُّ العهد كاملاً في الكتاب رقم٥٣ نهج البلاغة، صبحي الصالح ٤٢٦ـ٤٤٥ .

حضرته الوفاة، قال لامرأته: اذبحي شاة من غنمك واصنعيها، فإذا نضجت فاقعدي على قارعة الطريق، فأول ركب ترينهم قولي: يا عباد الله المسلمين! هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قد قضى نحْبه ولقي ربَّه، فأعينوني عليه، وأجيبوه، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أنّي أموت في أرض غربة، وأنّه يلي غسلي ودفني والصلاة عليَّ رجال من أمّته صالحون.

محمد بن علقمة بن الأسود النخعي، قال: خرجت في رهط أريد الحجَّ، منهم مالك بن الحارث الأشتر... حتى قدمنا الربذة، فإذا امرأة على قارعة الطريق تقول: يا عباد الله المسلمين! هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قد هلك غريباً، ليس لي أحد يعينني عليه، قال: فنظر بعضنا إلى بعض وحمدنا الله على ما ساق إلينا، واسترجعنا على عظم المصيبة، ثمّ أقبلنا معها، فجهّزناه وتنافسنا في كفنه حتى خرج من بيننا بالسواء، ثمّ تعاونّا على غسله حتى فرغنا منه، ثمّ قدّمنا مالك الأشتر فصلّى بنا عليه، ثمّ دفنّاه، فقام الأشتر على قبره، ثم قال: اللهمّ هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عبَدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغير ولم يبدل، لكنّه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي، ونفي، وحرم، واحتقر، ثمّ مات وحيداً غريباً، اللهمّ فاقصم من حرمه، ونفاه من مهاجره وحرم رسولك، قال: فرفعنا أيدينا جميعاً، وقلنا: آمين، ثمّ قدمت الشاة التي صنعت، فقالت: إنّه قد أقسم عليكم ألّا تبرحوا حتى تتغدوا، فتغدينا وارتحلنا

قال الكشي: ذُكر أنّه لما نعي الأشتر مالك بن الحارث النخعي إلى أمير المؤمنين عليه السلام، تأوه حزناً، وقال: «رحم الله مالكاً! وما مالك؟! عزَّ عليَّ به هالكاً، لو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً، وكأنّه قُدَّ مني قدًّا».

وروى الشيخ المفيد مرسلاً عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «يخرج مع القائم عليه السلام من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلاً، خمسة عشر من قوم موسى عليه السلام،

الذيـن كانـوا يهـدون بالحـقّ وبـه يعدلـون، وسـبعة مـن أهـل الكهف،ويوشـع بـن نون، وسـلمان، وأبـو دجانـة الأنصـاري، والمقداد،ومالك الأشـتر، فيكونـون بين يديـه أنصاراً وحكاماً».

وروى بإسـناده إلى عبـد الله بـن جعفـر ذي الجناحـين، قـال: لمـا جاء علي بـن أبي طالب صلـوات الله عليـه مصاب محمـد بـن أبي بكـر، حيث قتله معاويـة بـن خديـج السـكوني بمـصر، جـزع عليه جزعاً شـديداً، وقال: ما أخلق مـصر أن يذهب آخـر الدهر، فلوددت أنّي وجـدت رجـلاً يصلح لهـا فوجهته إليهـا، فقلت:

تجـد، فقـال: مـن؟ فقلـت: الأشـتر، قـال عليه السلام: «ادعـه لي، فدعوتـه، فكتب لـه عهده، وكتـب معه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من علـي بـن أبي طالـب إلى المـلإ مـن المسـلمين الذيـن غضبـوا لله حـين عـصي في الأرض وضرب الجـور بأرواقـه عـلى البرّ والبحـر، فـلا حقّ يسـتراح إليـه، ولا منكر يتناهـى عنـه، سـلام عليكـم! أمّـا بعـد؛ فـإنّي قد وجهـت إليكـم عبـداً من عبـاد الله، لا ينـام أيام الخـوف، ولا ينـكل عـن الأعـداء، حـذار الدوائـر، أشـدّ على الفجـار من حريـق النـار، وهو مالـك بـن الحارث الأشـتر أخـو مذحـج، فاسـمعوا لـه وأطيعـوا؛ فإنّـه سـيف مـن سـيوف الله لا يـأتي الضريبـة، ولا كليـل الحد، فـإن أمركـم أن تنفروا فانفـروا، وإن أمركـم أن تقيمـوا فأقيمـوا، وإن أمركـم أن تحجمـوا فاحجمـوا، فإنّه لا يقـدم إلّا بأمـري، فقـد آثرتكـم بـه على نفـسي؛ لنصيحتـه لكم، وشـدّة شـكيمته على عدوكـم، عصمكـم ربُّكـم بالهـدى وثبتكـم باليقين».

وروى عن عبـد الله بـن جعفـر، قـال: وكان لمعاويـة بمـصر عـين يقـال له مسـعود بن جرجـة، فكتـب إلى معاويـة بهـلاك الأشـتر، فقـام معاويـة خطيبـاً في أصحابه، فقـال: إنَّ عليًّـا عليه السلام كانـت لـه يميـنان قطعـت إحداهمـا بصفـين، (يعني عـمار بـن يـاسر)، وأخرى

اليـوم، إنَّ الأشـتر مرَّ بأيلـة متوجهاً إلى مـصر، فصحبه نافـع مولى عثمان، فخدمـه وألطفه حتـى أعجبـه واطمـأن إليـه، فلـمّا نـزل القلزم حـاضر له شربة من عسـل بسـمٍّ، فسـقاها فـمات، ألا وإنّ لله جنـوداً من عسـل!

وروى بإسناده إلى عوانة، قال: لمّـا جاء هلاك الأشتر إلى عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، صعد المنبر وخطـب الناس، ثمّ قال:

«ألا إنَّ مالـك بـن الحارث قد مضى نحبـه، وأوفى بعهـده، ولقي ربَّه، فرحـم الله مالكاً، لـو كان جبـلاً لـكان فنـداً، ولـو كان حجراً لـكان صلـداً، لله مالـك! وما مالـك؟! وهل قامـت النسـاء عن مثـل مالك؟ وهـل موجـود كمالك»؟!

قـال: فلما نـزل ودخل القـصر، أقبل عليـه رجال من قريـش، فقالوا: لشـدّ ما جزعت عليـه ولقدهلك، قـال: أم (أمّـا) هلاكه فقد أعزّ أهـل المغرب، وأذلّ أهـل المشرق! وبكى عليـه أياماً، وحـزن عليه حزناً شـديداً، وقال: لا أرى مثلـه بعده أبداً!

وتقـدّم في ترجمة جنـدب بـن جنادة رواية الفقيـه: قـول رسـول صلى الله عليه وآله لأبي ذر ـ رحمة الله عليـه ـ: يـا أبـاذر، تعيـش وحدك، وتمـوت وحـدك، وتدخل الجنـة وحدك، ويسـعد بك قـوم مـن أهل العراق يتولّـون غسـلك وتجهيـزك ودفنك...

وقال السـيد الخوئي: ولقد أجاد العلّامة في الخلاصة حيث قال: مالك الأشتر، قدّس الله روحـه ورضي الله عنـه، جليـل القـدر عظيـم المنزلـة، كان اختصاصه بعليٍّ عليه السلام أظهـر من أن يخفى، وتأسـف أمير المؤمنين عليه السلام بموته، وقال:

«لقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله!

وذكر ابن داود في رجاله قريباً من ذلك.

وبعـد أن قال السـيد الخوئـي: إنَّ جلالة مالـك واختصاصه بأمير المؤمنـين عليه السلام، وعظم شـأنه، ممـا اتفقت عليـه كلمة الخاصـة والعامـة... راح يذكر ما قالـه كلٌّ من ابـن عبد البرّ في ترجمة جنـدب بـن جنـادة (أبي ذر)، وابـن أبي الحديـد في شرحـه. ونحـن ننقل مـا ذكراه

ومـا ذكره غيرهمـا بإيجاز:

فمـمّا ذكـره الأول: هو ما جـاء عن الصحابي الجليـل أبي ذر الغفاري رضـوان الله عليه مـن حديث رسـول الله ﷺ يحمل وسـاماً خالداً وشـهادة بإيـمان جماعة من المسـلمين، كان مالـك الأشـتر واحـداً منهم: ... ثمَّ اسـتقدمه عثمان؛ لشـكوى معاوية به وأسـكنه الربذة، فـمات بهـا، وصـلّى عليـه عبد الله بـن مسـعود؛ صادفه وهـو مقبل مـن الكوفة مـع نفر من فضـلاء مـن أصحابـه؛ منهـم حجـر بـن الأدبـر ومالـك بـن الحـارث الأشـتر وفتـى من الأنصـار، دعتهـم امرأته إليه، فشـهدوا موتـه، وغمّضوا عينيه وغسـلوه وكفّنـوه في ثياب الأنصـاري في خبر عجيب حسـن فيـه طول!

ثـمّ روى عـن أبي ذر أنّـه قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول لنفـر أنا فيهـم: «ليموتنّ رجـل منكم بفـلاة مـن الأرض تشـهده عصابة من المؤمنـين ...».

أمّـا ابـن أبي الحديـد، فقـد خصّص فصـلاً كاملاً تحت عنوان: فصلٌ في نسـب الأشـتر وذكـر بعـض فضائله؛ مبتدئـاً ذلك بكتـاب الإمـام عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشـه، يقول فيه:

«وقـد أمـرتُ عليكـما وعـلى مـن في حيزكما مالـكَ بـن الحارث الأشـتر، فاسـمعا لـه وأطيعـا، واجعلاه درعـاً ومجناً، فإنّه ممّن لا يخاف وهنه ولا سـقطته، ولا بطـؤه عمّا الإسراع إليـه أحـزم، ولا إسراعـه إلى مـا البطء عنـه أمثل»!

ثـمَّ بعـد أن يذكر نسـبه: هـو مالك بن الحـارث بن عبد يغـوث... يقول: وكان فارسـاً شـجاعاً رئيسـاً من أكابر الشـيعة وعظمائها، شـديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعـد موته:

«رحم الله مالكاً! فلقد كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ».

وقـد روى المحدثـون حديثـاً (الحديـث أعـلاه) يـدل عـلى فضيلـة عظيمـة للأشـتر رحمـه الله! وهي شـهادة قاطعة من النبيِّ ﷺ بأنـه مؤمـن...

ويقـول أيضـاً:... وأمّـا الأشـتر فهـو أشـهر في الشـيعة مـن أبي الهذيـل في المعتزلـة... وذكرنـا آثـار الأشـتر ومقاماتـه بصفـين...[1]

وإنه لمن الصالحين ، والحمد لله ربِّ العالمين !

١. انظـر معجـم رجال الحديث، للسـيد الخوئـي ١٥ : ١٦٧ ـ ١٧١ تحت رقم ٩٨٢٠ ؛ الاسـتيعاب لابن عبـد الـبرّ، حـرف الجيم، جندب بن جنـادة ؛ شرح نهج البلاغة، لابـن أبي الحديد ١٦ مـن ٩٨ ـ ١٠٣ مبتدئاً ذلـك بالأصل ١٣ .

التشيع الإمامي بالمدينة المنورة في العصور الإسلامية الوسطى

دراسة تاريخية موجزة

أحمد خامه يار

أهدي هذا المقال إلى فضيلة الشيخ حسين الواثقي وفاءً وتقديراً لجهوده العلمية في إحياء تاريخ وتراث الشيعة في مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة.

ملخّص البحث :

يهدف هذا البحث إلى دراسة موجزة للتشيع الإمامي في المدينة المنورة والتطور التاريخي الذي شهده التشيع بها من حيث مراحل انتشاره وانحساره، كما يتطرّق البحث إلى الوضع الاجتماعي للشيعة الإمامية، وأهمّ أعلامها في المدينة المنورة في العصرين الأيوبي والمملوكي، وذلك اعتماداً على المعطيات المتوفّرة والمواد التي تقدّمها أمهات المصادر التاريخية، وخاصة مصادر العصر المملوكي. وتُظهر نتائج البحث أن المدينة المنورة كانت قد أصبحت مدينة ذات أغلبية شيعية خلال العصر الأيوبي؛ ربما كان لظهور الخلافة الفاطمية واستيلائها على الحجاز وتأسيس إمارة الأشراف من آل مهنّا الإماميّين في المدينة دوراً في انتشار التشيع بها. كما تُظهر نتائج البحث أنّه مع قيام دولة المماليك بدأت مرحلة انحسار التشيع الإمامي بالمدينة، حيث شهد النصف الأول للقرن الثامن الهجري محاولات عديدة من أعلام أهل السنة في مواجهة التشيع بالمدينة بدعمٍ من السلطة المملوكية، أدّت إلى تقليص الوجود الشيعي بالمدينة المنورة، إلى أن تحوّلت إلى مدينة ذات أغلبية سنّية في نهاية العصر المملوكي.

الكلمات المفتاحية : الشيعة الإمامية، المدينة المنورة، تاريخ التشيع، العصر الأيوبي، العصر المملوكي

عن هذا البحث

قبل نحو سنتين من إنهاء كتابة هذا البحث كنتُ قد بدأتُ باستخراج المعلومات المتوفرة عن التشيّع الإمامي في المدينة المنورة من مصادر تاريخ المدينة المنورة، وبشكل خاص كتاب «*نصيحة المشاور وتعزية المجاور*» لابن فرحون المالكي (ت ٧٦٩هـ)، حيث نويتُ إعداد بحث علمي في هذا الموضوع، ولكن بما أنّه لم تتهيّأ لي الظروف حينها بالبدء بكتابة البحث، فقد سبقني فضيلة الدكتور الشيخ رسول جعفريان في كتابة مقالة باللغة الفارسية تتضمّن جمع ودراسة المعلومات الموجودة عن التشيّع الإمامي في المدينة المنورة، من كتاب «*نصيحة المشاور لابن فرحون*». وقد نُشرت المقالة أولاً في مجلة «*ميقات حج*» الفارسية، ثم تُرجمت إلى العربية لاحقاً ونُشرت في مجلة «*ميقات الحج*».

وبعد فترةٍ قصيرةٍ أيضاً أصدر فضيلة الشيخ حسين الواثقي كتابه القيّم «*أعلام المدينة المنورة*»، الذي تتضمّن تراجم أعلام الشيعة الإمامية في المدينة المنورة من المدنيّين والمجاورين، وعرض المعلومات المتوفّرة عنهم في ثنايا المخطوطات.

وبما أنّ فضيلة الشيخ جعفريان اكتفى في مقاله بعرض وتحليل النصوص المتعلقة بالتشيع في المدينة المنورة من ذلك الكتاب فقط، دون غيره من المصادر الأخرى؛ وكذلك عمل الشيخ الواثقي أيضاً ـ مع أهميته وقيمته ومع الجهد الكبير الذي بذله في سبيل إنجازه ـ يشتمل على عرض تراجم أكبر عددٍ من أعلام المدينة المنورة مرتّبةً على طريقة المعاجم إلّا أنّه لم يتطرّق للسير التاريخي لنموّ التشيع وانحساره بالمدينة من حيث التسلسل التاريخي.

فلهذه الأسباب وغيرها قرّرتُ أن أتابع عملي في إعداد بحث علمي يتضمّن تاريخ الشيعة الإمامية بالمدينة المنورة خلال العهدين الأيوبي والمملوكي، بحيث تتطرّق ـ ولو بإيجاز ـ إلى ظروف انتشار التشيع بالمدينة والسير التاريخي الذي شهده

انحسار التشيع بها، وهي هذه المقالة التي نقدّمها بين يدي القارئ الكريم.

نَبْذة من التشيّع الإمامي في المدينة المنورة قبل العصر الأيوبي

ترجع سابقة الوجود الشيعي في المدينة المنورة إلى العصور الإسلامية الأولى، حيث كان يمثّل وجود الشيعة في المدينة، أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن يتولاهم ويتشيع لهم من الصحابة والتابعين، وعدداً من الرواة والمحدّثين عنهم في القرنين الثاني والثالث للهجرة. وحيث إنّنا نعلم أنّ المدينة النبوية كانت في القرون الإسلامية الأولى معقلاً لأصحاب مدرسة الحديث، فمن الطبيعي أن لا نتوقّع أن نعدّها مدينة شيعية، بمعنى أنّ المجتمع الشيعي يمثّل الأغلبية السكّانية فيها.

ولكنّنا نجد في نفس الوقت في مصادر رجال الشيعة، ولا سيما كتاب: «**الرجال**» للشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، أسماء عددٍ كبير من الرواة عن الأئمة عليهم السلام وخاصةً الرواة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ممّن عُرفوا بنسبة «المدني»، مما يدلّ على وجود حركة علمية لمحدّثي الشيعة وأصحاب الأئمة عليهم السلام، وبالتالي وجود مجتمع شيعي في المدينة المنورة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريّين.

وقد زوّدنا أبو العبّاس النجاشي (ت٤٥٠هـ)، بأسماء عددٍ من رجال الشيعة ومحدّثيهم ممّن كان لهم كتب أو أجزاء حديثية، منهم: أبو مَعشر أحمد بن كامل المَدَني، وأبو ضَمرة أنس بن عياض الليثي المدني، وأخوه أبو الحسن جبلة أو جلبة بن عياض،[1] وأبو عاصم حفص بن عاصم السُلَمي المدني، وداود بن عطاء المدني، وسيابة بن ناجية المدني، وعبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغِفاري، ومُطّلب بن زياد

١. في المطبوع من رجال النجاشي أنه «جَلَبة»، كما سقطت منه نسبة «المدني» له، بينما ذكره ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان ٢ :٤٢١ نقلاً عن رجال النجاشي باسم «جبلة»، وأضاف إلى اسمه نسبة «المدني»، وتتأكّد نسبته إلى المدينة كون أخيه مدنياً أيضاً.

الزُّهـري القُـرَشي المدني.[1]

وممّـن عرفنـا من شـعراء الشـيعة المدنيّين في هـذا العصر: أبو المُشـيَّع جبر بـن خالد بن عقبـة بـن سـلمة بن عمـر بن الأكـوع الأسـلمي المـدني[2]، وقـد غلبـت كنيته على اسـمه، فعُـرف بـأبي المُشـيّع المـدني.[3] وهذا الشـاعر وإن لم تـشر مصـادر ترجمته إلى تشـيّعه، ولكن نظـنّ قوياً أنه الشـاعر الـذي ذكره ابن شهرآشـوب (ت ٥٨٩ هـ) باسـم «المشـيّع المدني»، وعـدّه مـن شـعراء الشـيعة المتّقـين،[4] وأورد قطعـة من قصيـدة له رثـى بها الإمـام علي بن موسـى الرضـا عليه السلام، أولها:[5]

يـا بقعـةً مـات بهـا سـيّد ما مثله في الناس من سـيّد

ويظهـر من خلال النصـوص التاريخية أنّ المجتمع الشـيعي بالمدينة المنـورة كان يتألف بمعظمـه مـن أسَر الأشراف العلويـين، حيـث كانـوا منتشريـن انتشـاراً واسـعاً في المدينة ومـا حولهـا مـن مـدن وقُـرى، كينبـع والـرّسّ وغيرهمـا، وكانـوا ينتمـون في الغالـب إلى المذهـب الإمامـي أو الزيـدي. فقـد ذكـر البَشّـاري المقـدسي (كان حيّـاً سـنة ٣٧٥ هـ) في كتابـه الـذي ألّفـه في النصف الثاني مـن القرن الرابـع الهجري، عند وصفـه للمدينة المنورة

---

١. رجال النجاشي: ٤٥٧ و١٠٦ و١٢٨ و١٣٦ و١٥٧ و١٩٤ و٢٢٥ و٤٢٣.

٢. ذكـره ابـن الجـرّاح (ت ٢٩٦هـ) في كتـاب الورقـة: ٦، ووصفـه بشـاعر مجيـد، وراويـة للأشـعار والأخبـار، وذكـر أن إسـحاق الموصـلي (ت ٢٣٥هـ) يروي عنه شـيئاً كثـيراً، ثم أورد ثـلاث قصائد لـه. وروايـة الموصـلي عنـه تـدل على أنّـه عـاش تقريبـاً في النصـف الثاني مـن القـرن الثـاني الهجري.

٣. بالإضافـة إلى ابـن الجـرّاح، ذكـره النديـم (ت٣٨٠هـ) في كتـاب الفهرسـت (١: ٥١٨) في الشـعراء المقلّـين، علـماً أنـه ورد اسـمه في المطبوع من الكتاب: «أبو المُشـبَّع المـدني» تصحيفاً. كما ذكـره المرزباني (ت٣٨٤هـ) في معجم الشـعراء (: ٥١٥) باسـم «أبي المشـيّع المازني»، وربما نسـبة المازني هنا تصحيف للمدني.

٤. معالم العلماء، ابن شهرآشوب: ١٥٢.

٥. مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب ٤: ٣٨٨.

وأهلها، أنّ «أكثرهم بنو الحسين بن علي عليه السلام»،[1] وذكر عن ينبع أنّ «الغالب عليها بنو الحسن عليه السلام».[2]

وربما كان لظهور الخلافة الفاطمية ومحاولتهم الاستيلاء على الحرمين الشريفين، والتي تزامنت مع تولّي الأشراف العلويين إمارة مدينتي مكة والمدينة، دورٌ في انتشار التشيع ـ ولا نقصد بالضرورة التشيع الإمامي ـ في منطقة الحجاز وكانت لعددٍ من مشاهير الأشراف المقيمين بالحجاز صلات حسنة مع أمراء مصر في العصر الأخشيدي، فاستمرت هذه العلاقات مع الخلفاء الفاطميين من بعدهم.

فقد كان الشريف أبو القاسم جعفر بن محمد الموسوي الحسيني (ت٣٤٠ هـ)، وهو محدّثٌ شيعيّ ذكره الشيخ الطوسي في رجاله،[3] ممّن دخل مصر وأعقب بها ولداً كثيراً،[4] وكان يحظى بمكانة مرموقة عند أمراء بني الأخشيد، حيث كان يقوم بمهمّة إرسال شمسة الكعبة إلى مكة المكرمة لوضعها على كسوة الكعبة.[5] وكان حفيده أبو جعفر إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر المكّي (ت٣٩٩ هـ) قاضياً وخطيباً بمكة المكرمة، ووصفه ابن عساكر بـ«القاضي الخطيب وإمام الحرمين».[6]

وكان الحسن بن طاهر بن يحيى، وهو حفيد الشريف النسّابة المحدّث يحيى بن جعفر العلوي ـ صاحب كتابي: «*أخبار المدينة*» و«*نسب آل أبي طالب*» ـ رحل إلى الأخشيد بمصر وأقام عنده، وأقطعه الأخشيد ما يُغِلُّ في كل سنة مائة ألف دينار. وكان محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المُلقّب بالشريف مسلم (ت٣٦٦ هـ)،

١. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، البشّاري المقدسي: ٨٠.
٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ٨٣.
٣. رجال الطوسي: ٤١٩.
٤. فضائل مصر وأخبارها وخواصها، ابن زولاق: ٤٦.
٥. إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تقي الدين المقريزي١: ١٤٢.
٦. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر ٦: ٣٥١ـ٣٥٢.

صديقاً لكافور الأخشيدي،[1] وكان يُدبّر أمر مصر أيام كافور،[2] ولمّا اختل وضعُف أمر الدولة الأخشيدية دعا مسلم للخليفة الفاطمي المُعزّ لدين الله (الحكم:٣٤١ـ٣٦٥ هـ). ثمّ قدم ابنه طاهر بن مسلم (ت٣٨١هـ) من مصر إلى المدينة المنورة، فولاّه أهلها إمارة المدينة، ثمّ ولي بعده ابنه الحسن بن طاهر.[3]

وكانت إمارة المدينة المنورة قد استقرّت منذ بداية القرن الخامس الهجري بيد الأشراف الحسينيين منذ أن استولى عليها أبو هاشم داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر الحجّة بن عبد الله بن الحسين ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهم السلام في سنة ٤٠١ هـ؛ فاستمرّت الإمارة في ولده لمدة لا تقلّ عن خمسة قرون، وقد عرفت أمراء هذه الأسرة بآل مهنّا، نسبةً إلى مهنّا بن أبي هاشم داود بن القاسم.

ويُلاحظ في المصادر التاريخية تشتّت في آراء المؤرخين في تحديد أول من حكم المدينة من أمراء هذه الأسرة، وربما يرجع سبب ذلك إلى الضبابية الموجودة في المعلومات المتوفّرة عنهم في المصادر القديمة. فقد عدّ السخاوي (ت٩٠٢هـ) أول أمراء هذه الأسرة، حسين بن مهنّا بن داود الحسيني.[4] بينما اعتبر ابن فرحون أنّ أول من عُرف من أمراء هذا البيت هو الأمير عزّ الدين أبو فُلَيتة قاسم بن مهنّا بن حسين بن مهنّا الحسيني.[5]

---

١. صبح الأعشى، القلقشندي٤ :٣٠٢؛ وقد عرّف القلقشندي الشريف مسلم بأنّه محمد بن طاهر بن الحسن بن يحيى العلوي، بينما اتفق علماء الأنساب على أنّه محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى. وذكر السيد ضامن بن شدقم في كتابه «*تحفة الأزهار*»٢: ١٩٩ أنّ الشريف مسلماً «كان إمامي المذهب متعصباً جدّاً». ولا ندري إن كان قد اعتمد على مصادر تاريخية، أو أنّه قد عبّر عن رأيه.

٢. جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي: ٥٥.

٣. صبح الأعشى ٤ : ٣٠٢؛ وقد ذكره القلقشندي باسم الحسين بن طاهر، والتصحيح من مصادر الأنساب.

٤. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، السخاوي ١: ١٦٢.

٥. نصيحة المشاور وتعزية المجاور، ابن فرحون: ٣٤٠.

وهنـاك نصـوص وقرائـن عديدة تـدلّ عـلى أنّ كثيراً مـن أمـراء المدينة الحسـينيّين من آل مهنّـا كانـوا من الشـيعة الإمامية. فقـد ذكر القلقشـندي (ت٨٢١هـ) عن أمـراء المدينة الأشراف، مـن بني عطيّـة وبني جَمّاز، أنّهم «جميعـاً على مذهب الإماميـة الرافضة، يقولون بإمامـة الاثنـي عـشر إمامـاً وغـير ذلـك مـن معتقـدات الإماميـة».[1] وذكـر ابـن خلدون (ت٨٠٨ هــ) أنّ «بالمدينـة دولـة للرافضـة لولـد المهنّا»،[2] وقـال عنهم الذهبـي (ت٧٤٨ هــ): إنّ «فيهم تشـيّع ظاهر».[3]

التشيّع بالمدينة في العصر الأيوبي

هنـاك العديـد مـن الشـواهد التاريخيـة التي يظهر منهـا أنّ المدينـة النبوية كانـت مدينة ذات غالبيـة شـيعية خـلال العـصر الأيـوبي، وكانت مناصـب القضـاء والخطابـة وإمامة المسـجد النبـوي الشريف مجتمعـةً بيد الشـيعة الإمامية من أهـل المدينة المنـورة.[4] فقد ذكر ابـن جبـير (ت٦١٤ هــ) في رحلتـه أنّـه ـ خـلال زيارتـه المدينة سـنة ٥٨٠ هــ ـ شـاهد في المسـجد النبـوي بدعـاً يمارسـها خطيب وإمـام الحرم، «وهـو على مذهب غير مـرضيٍّ» في زعمـه،[5] ولابـدّ أنّه يقصد مذهـب الشـيعة الإمامية.

وذكـر ابـن العديم الحلبي (ت٦٦٠ هــ) حكايةً يظهـر منها أنّ الشـيعة الإمامية كانت تجتمـع في يوم عاشـوراء من كلّ سـنة لقـراءة المـصرع ـ أي مقتل الإمام الحسـين عليه السلام ـ عند

---

١. صبح الأعشى٤ :٣٠٦ .

٢. تاريخ ابن خلدون٤ : ١٦ .

٣. ذيل العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي : ٢٧ .

٤. ولعلّـه يمكننـا أن نعـدّ مـن هـؤلاء: الشريـف عبيـد الله بن إبراهيـم بن عبـد الوهاب الحسـيني الذي وصفـه الحافـظ أبـو طاهر السّـلَفي (ت ٥٧٦هــ) بـ: «خطيـب المدينة والقـبر والمنـبر». يُنظر: معجم السـفر : ٢٢٤، نظـنّ أنّـه عـمّ نُمَيلـة جـدّ سـنان بـن عبـد الوهـاب بن نميلـة قـاضي المدينـة في بداية العـصر المملوكـي الـذي تنسـب إليـه أسرة آل سـنان المدنيّين .

٥. رحلة ابن جبير : ١٧٩ .

قبة العباس بن عبد المطلب بمقبرة البقيع،[1] وهي القبة التي تضمّ قبور أربعة من الأئمة الاثني عشر، هم: الإمام الحسن بن علي، والإمام زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق عليهم السلام. ولم يحدّد ابن العديم تاريخاً لأحداث الحكاية، ولكن بما أنّه نقلها من صاحب الحكاية بواسطة واحدة، فنظنّ أنّها ترجع إلى نهاية القرن السادس أو بداية القرن السابع.

وفي سنة ٦٥٤هـ، عندما تعرّض المسجد النبوي الشريف لحريق كبير ـ وهو أول حريق هائل في تاريخ المسجد ـ أنشد أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) شعراً، علّل فيه الحريق أنّ النار طهّرت المسجد من آثار الروافض![2] ما يدلّ على الوجود الكبير للشيعة الإمامية بالمدينة المنورة خلال هذا العصر. وقد أكّد ذلك مؤرخ المدينة نورالدين السمهودي (ت ٩١١هـ) بقوله: إن الاستيلاء على المسجد و المدينة كان في ذلك الزمان للشيعة ، و كان القاضي و الخطيب منهم.[3]

كما ذكر أيضاً الرحّالة المغربي أبو عبد الله العبدري في رحلته إلى الحج التي قام بها سنة ٦٨٨ هـ، أي في بدايات العصر المملوكي، حيث ذكر عند وصفه لمنطقة بدر أنّ «أكثر سكان بدر ضعفاء، وهم رفضة، وكذلك أكثر أهل المدينة، على ساكنها أفضل

---

١. بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم ٢ : ١٠٢١ـ١٠٢٢ .

٢. ذيل الروضتين ، أبو شامة المقدسي: ٢٩٨؛ و عنه في نصحيحة المشاور: ٣١٣؛ كما ذكره الفيروزآبادي في المغانم المطابة ٢:٤٥٢ باختلاف في بعض الألفاظ. و أورد أيضاً شعراً آخر بهذا المعنى. و قد ردّ بعض شعراء الشيعة على هذه الأشعار بأشعار أخرى، منها ما نقله الحسن بن شدقم في زهر الرياض، و نقله أيضاً ضامن بن شدقم في تحفة الأزهار. كما أنشد الشاعر المصري أبو الحسين يحيى بن عبدالعظيم المصري المعروف بابن الجزّار (ت ٦٧٩هـ) الذي عاصر حريق المسجد النبوي، شعراً عبّر فيه عن اعتقاده بأن النار لم تبق في المسجد بقية من بناء بني أمية. و للاطلاع على هذه الأشعار يراجع أعلام مدينة المنورة: ٥٤٤ – ٥٤٨.

٣. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ٢:٣٧٤ .

الصلاة والسلام».[1]

فهذه الشواهد التاريخية كلّها تدّل على أنّ المدينة المنورة كانت ذات أغلبية شيعية خلال القرنين السادس و السابع الهجريّين.

ونرى أنّ استقرار إمارة الأشراف من أسرة آل مهنّا منذ بداية القرن الخامس الهجري كان له التأثير الكبير في تعزيز التشيّع بالمدينة المنورة. ويرى الباحثون أنّ انشغال كل من السلطان نور الدين محمود بن زنكي (الحكم:٥٤١ـ٥٦٩هـ) والسلطان صلاح الدين الأيوبي (الحكم:٥٦٩ـ٥٨٩هـ) بمحاربة الصليبيّين، كان عاملاً في استمرار الوضع المذهبي للمدينة على سابقه في العصر الأيوبي، من حيث انتشار التشيع وتعزيز مكانته.[2]

وكان الأمير عزّ الدين أبو فُلَيتة قاسم بن مهنّا الحسيني (الإمارة: ٥٥٨ـ٥٨٣هـ) على علاقةٍ حسنةٍ مع صلاح الدين الأيوبي. فقد نقل أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ) عن العماد الكاتب (ت٥٩٧ هـ) أنّ صلاح الدين كان يستصحب الأمير قاسم في غزواته، فما حضر الأمير مع السلطان على بلدٍ أو حصن إلّا فتحه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، «وكان بجنب السلطان جالساً، ولنظره عليه حابساً».[3] وذكر ابن فرحون أنّ قاسم بن مهنّا يحضر مع صلاح الدين الفتوحات، ويلازمه في الغزوات، فلم يكن أحد يجسر على الكلام في الإمامية في ذلك الزمان.[4]

ويبدو أنّ هذه العلاقات الإيجابية بين ملوك بني أيوب وأمراء آل مهنّا استمرت على حالها. وقد ذكر المؤرخون أنّ سالم بن مهنّا، وهو أخو الأمير عزّ الدين قاسم،

١. رحلة العبدري ١ : ٣٤٦ .
٢. المدينة المنورة في العصر المملوكي، عبد الرحمن المديرس : ١٩٠ .
٣. الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة المقدسي٤ : ٤٥ .
٤. نصيحة المشاور : ٣٤٠ .

سـافر إلى دمشـق مـع الملـك المعظّـم عيسـى الأيـوبي (الحكم:٦١٥ـ٦٢٤هـ)، ابـن أخي صـلاح الديـن، لمّـا قـام بالحجّ، فـمات سـالم في طريق الشـام إلى المدينـة سـنة ٦١٩ هـ.[١]

أمّـا المؤرخ ابـن فرحون فإنّه يرى أنّ انتشـار التشـيع الإمامي في المدينة المنـورة كان بيد أسرة عرفـوا بالقيشـانيّين، «حتـى قيـل: إنّ المدينـة لم يكن بها مـن يعرف مذهـب الإمامية حتـى جاءهـا القيشـانيون مـن العـراق، وذلـك أنّهـم كانـوا أهـل مـال عظيـم، فصـاروا يؤلفـون ضعفـة النـاس بالمـال، ويعلّمونهـم قواعـد مذهبهـم، ولم يزالـوا عـلى ذلك حتى ظهـر مذهبهم وكثر المشـتغلون به، وعضـده الأشراف في ذلك الزمـان، ولم يكن لهم ضِدٌّ، ولا في مـصر ولا في الشـام مـن يلتفـت إليهـم؛ لأنّ الملك العادل نـور الدين الشـهيد كان حاكـماً عـلى البلديـن، لكن همّـه الجهاد ولا يسـتقر له قـرار».[٢]

ويبدو لنا أنّ نسـبة القيشـاني هى نفسـها القاشـاني، وهي النسـبة إلى قاشـان أو كاشان، المدينـة العريقـة بالتشـيع الواقعـة في قلـب إيـران، جنـوبي مدينـة قم التـي تعـدّ العاصمة التاريخيـة للتشـيع الإمامـي في إيـران، ونعلـم أنّ كاشـان ازدهـرت بهـا الحيـاة العلميـة للشـيعة خـلال القـرن السـادس الهجـري، حيث ظهـر منها في هـذا العصر عـدد كبير من أعـلام الشـيعة، مـن أشـهرهم الأمير معـين الديـن مختـصّ الملك وزير السـلطان سـنجر السـلجوقي (الحكم:٥١١ـ٥٥٢هـ)، وأنـوشروان بن خالد الكاشـاني (ت٥٣٣هـ) وزير الخليفـة العبـاسي المسترشـد بـالله (الحكم:٥١٢ـ٥٢٩هـ)، والإمامـين العَلَمـين الجليلين السـيد ضيـاء الدين أبـو الرضـا الراوندي، والشـيخ قطـب الديـن الراوندي.

و أمّـا قـول ابن فرحون بأنّ أسرة القيشـاني جاءت مـن العراق، فنميـل إلى أنّ المقصود بالعـراق في قولـه هـذا هـو «عـراق العجـم»، وهـو الإقليـم الواسـع الـذي يضـمّ مدينـة كاشـان، وربـما يحتمـل أيضـاً أنّهـم انتقلوا إلى عـراق العـرب أولاً، ثـمّ هاجـروا إلى المدينة

١. الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني٤: ٣٦٢ـ٣٦٣؛ التحفة اللطيفة٣: ٧٤.

٢. نصيحة المشاور: ٣٣٩ـ٣٤٠.

المنورة. هذا ولم يحدّد ابن فرحون الفترة الزمنية التي قدمت فيها أسرة القيشاني/ القاشاني إلى المدينة، كما لم يزوّدنا هو وغيره من المؤرخين، بأسماء أعلام هذه الأسرة المقيمين في المدينة المنورة، واكتفى ابن فرحون بالقول: إنّ القيشاني «كان رئيس الإمامية وفقيهها»، وقد تزوّج ابنته سراج الدين الدمنهوري الشافعي (ت ٧٢٦ هـ).[١]

وقال عنه السيد حسن بن علي بن شدقم في (*زهر الرياض*): «القاشاني على ما ذكره مؤرّخو المدينة كان من علماء الشيعة مستقلاً بالفتيا، وإليه ترجع القضاة منهم في زمانه، وينتهون إلى رأيه، والدار المشهورة الآن بالمدينة بدار القياشين كانت لهم باقية على بنائهم القديم، ونسبتهم إلى كاشان العجم أو إلى غيرها.»[٢] فيبدو إذن أنّ «القياشين»، وقد أشار السمهودي (ت٩١١هـ) أيضاً إلى وجود دورهم في المدينة،[٣] تصحيف للقاشانيين، أو القاشيين، أو ربّما استعمل كاسم جمع لنسبة القيشاني.

وكان هناك أعلام آخرون من الشيعة، يختارون مجاورة الحرم النبوي الشريف خلال هذا العصر أو قبيل ذلك؛ وممّن عرفنا منهم: معين الدين عبدك بن الحسن الاسترآبادي، من أعلام القرن السادس على الأرجح، حيث وصفه منتجب الدين ابن بابويه الرازي بمجاور مدينة الرسول صلى الله عليه وآله،[٤] ومنهم الأديب والعالم النحوي اللغوي ابن السَّكون الحلّي، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن السكون الحلّي (ت٦٠٦هـ)، وقد ذكر المؤرخ ابن النجار (ت٦٤٣ هـ) في ترجمته أنّه سافر إلى مدينة النّبي صلى الله عليه وآله وأقام بها مدةً وصار كاتباً لأميرها.[٥]

ومن جهة أخرى، نلاحظ هناك ظاهرة تتمثّل بهجرة عدد من أعلام الشيعة المدنيين

١. نصيحة المشاور : ٣٣٩ .

٢. أعلام المدينة المنورة، حسين الواثقي : ٣٣٨ .

٣. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، السمهودي٣ : ١٨و٥٥و٥٦ .

٤. الفهرست، منتجب الدين الرازي، رقم ٣٠٣، : ٩١ .

٥. الوافي بالوفيات، الصفدي١١ : ١٣٢؛ نقلاً عن ذيل تاريخ بغداد لابن النجّار .

إلى العـراق خـلال القرنين السـادس والسـابع الهجريـين، حيث يبـدو أنّهم كانـوا يؤثرون الإقامـة ببغـداد والتواصـل العلمي مع علـماء الإمامية وغيرهم. ومن أشـهر هؤلاء يمكن أن نذكر السـيّد قُرَيش بن السُّـبَيع العلوي الحسـيني المدني المتوفى ببغداد سـنة ٦٢٠ هـ.[١]

وقـد ترجـم للسـيد قريـش بـن السـبيع عـدد مـن المؤرخـين؛ كابـن النجـار، وابـن الصابـوني، وابـن الدبيثـي، والذهبـي، والصفـدي، حيـث أجمعـوا عـلى ولادتـه بالمدينـة المنـورة، واختلفـوا في تاريخهـا بـين سـنة٥٣٩ و٥٤٠ و٥٤١هــ. وكان السـيد قريـش قد ذهـب مـن المدينـة إلى بغـداد، وأقام بهـا إلى أن تـوفي، وقضى أخريـات حياته بمشـهد باب التبـن، أي مشـهد الإمامـين الكاظمـين عليهما السلام، فدُفـن بـه بعـد موتـه.[٢]

وسـمع قريـش مـن المحدّثـين ببغـداد؛ كابـن البَطّـي (ت٥٦٤ هــ)، وابـن الخَشّـاب (ت٥٦٧ هــ)، وابن خُضَير (ت٥٦٢ هـ)، وابن النقـور (ت٥٦٥ هـ)، وأبي زرعة المقدسي (ت٥٦٦هــ). مـع أنّ الصفـدي قـال عنـه أنّـه: «كان يُظهـر التسـنّن، وأنّـه عـلى مذهـب أصحـاب الحديـث»،[٣] ولكنّنـا لا نشـكّ في تشـيّعه؛ لتوفّر الوثائـق المخطوطة التي تشـهد بذلـك. وقـد أحـصى الشـيخ حسـين الواثقـي عدداً مـن مشـايخه والـرواة عنه مـن أعلام الشـيعة من خـلال أسـانيد روايته لمصنّفات علماء الشـيعة،[٤] كـما أورد نـماذج من خطوطه

١. هـو أبـو محمـد قريش بن السـبيع بن مُهنّا بن السـبيع بن مهنّا بن السـبيع بـن مهنّا بن داود بن القاسـم بـن عُبيـد الله بـن طاهـر بـن يحيـى ابـن الحسـن بـن جعفر بـن عبيـد الله بن الحسـين بـن الإمـام زين العابديـن عـلي بن الحسـين بن عـلي بـن أبي طالب: .

٢. للتفصيل ينظر: أعلام المدينة المنورة ٣١٩ - ٣٢١.

٣. الوافي بالوفيات ٢٤: ٢٣٨ .

٤. قـرأ قريـش جميع كتـاب «الرجال» للشـيخ الطـوسي (النسـخة المخطوطـة رقـم: or.7965 في مكتبة بريطانيـا) عـلى الفقيـه أبي الـبركات الغَيـداق بن جعفـر الديلمـي؛ وقرأ هـو وزوجتـه وأولاده كتاب فضـل الكوفـة للشـجري (النسـخة المخطوطة رقـم ٣٨٢٩ في المكتبة الظاهرية بدمشـق) على الشـيخ المبـارك بـن عـلي؛ وروى عـن عبـد الله بن جعفـر الدوريسـتي الـرازي، من فقهـاء الإماميـة في القرن السـادس؛ وسـمع عنـه نظـام الديـن محمـد بـن هاشـم الهاشـمي الغـرافي كتـاب «الرجـال» للشـيخ

على نسخ مخطوطة للتراث الإمامي.[1]

ومن أعلام الشيعة المدنيّين في هذا العصر أيضاً السيّد الأمير أبو البقاء مُهنّا بن الحسن بن حمزة المدني العلوي الحسيني، المتوفى ببغداد سنة٦٤٢هـ. وقد ترجم له الذهبي قائلاً: «أقام ببغداد، ووَلِيَ نَظرَ الكوفة والحلّة، ونُفِّذ رسولاً إلى النواحي، وفُوِّضَ إليه وَقْف المدينة، ثمّ سار يحمل الكِسوة الشريفة».[2]

وهناك أعلام أخرى من الشيعة المدنيين، لم تزوّدنا المصادر التاريخية بمعلوماتٍ عنهم. وممّن عرفنا منهم: السيد يافث بن يافث المدني الحسيني الذي أجازه السيّد رضي الدين علي بن طاووس (ت٦٦٤هـ) ضمن إجازة مشتركة لعدّة أشخاص، قرؤوا عليه كتاب: «*التشريف بتعريف وقت التكليف*» في سنة٦٥٨هـ ببغداد.[3]

التشيع الإمامي بالمدينة في العصر المملوكي

تفيدنا المصادر التاريخية التي ألّفت عن المدينة المنورة خلال العصر المملوكي بتفاصيل مهمّة عن الحياة السياسية والاجتماعية للشيعة في هذا العصر. وأهم هذه المصادر هي «*نصيحة المشاور وتعزية المجاور*» لأبي محمد عبد الله بن محمد اليعمري التونسي المالكي المعروف بابن فرحون الذي يزوّدنا بأكثر التفاصيل المتوفرة عن أعلام الشيعة وحياتهم الاجتماعية في المدينة المنورة في بدايات العصر المملوكي، وخاصّةً في

الطوسي؛ وروى عنه شمس الدين السيّد فَخّار بن مَعدّ الموسوي؛ وروى عنه أيضاً ابن أبي الحديد أخبار عليٍّ عليه السلام في كتاب فضائله لأحمد بن حنبل، وهو رواها عن نقيب الطالبيّين أحمد بن علي بن المعمّر. يراجع للتفصيل: أعلام المدينة المنورة: ٣٢١ـ٣٢٥.

١. أعلام المدينة المنورة: ٣٢٥ـ٣٢٨.

٢. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي١٤: ٤٢٨.

٣. أعلام المدينة المنورة: ٤٧١ـ٤٧٢. والإجازة موجودة في المجموع المخطوط رقم: ١٢٧/ ٢٩ في مكتبة آية الله السيد الگلپايگاني بقم.

النصف الثاني من القرن السابع، والنصف الأول من القرن الثامن الهجري.

ولعلّ أشهر أسرة شيعية عرفناها في المدينة المنورة خلال هذه الفترة هي أسرة سنان بن عبد الوهاب الحسيني، وقد تولّى عدد من أعلام هذه الأسرة منصب القضاء بالمدينة في بدايات العصر المملوكي، قبل أن يخرج هذا المنصب من يدهم إلى فقهاء أهل السنة. وتظهر من أقوال المؤرخين قوة آل سنان ونفاذ رأيهم في المدينة المنورة. فقد قال ابن فرحون في آل سنان: إنّهم «يحكمون في بلادهم على جماعتهم وعلى من دُعي إليهم من أهل السنة، فلا يقدر أحدٌ على الكلام في ذلك؛ والتقدّم في الأمور لهم، وأمر الحبس راجعٌ إليهم، والأعوان تختصّ بهم، والإسجالات تثبّتُ عليهم».[1]

وجدّ هذه الأسرة هو عبد الوهّاب بن نُمَيلة بن محمد بن إبراهيم بن عبدالوهّاب بن مهنّا الأكبر الحسيني المدني، من الأشراف الوحاحدة، وقد وصفه السخاوي بـ«قاضي المدينة وخطيبها من الإمامية».[2] وابنه أبو هاشم شمس الدين سنان الذي تُنسب الأسرة إليه كان قاضي المدينة بعد أبيه، وقد وصفه عزّ الدين ابن شدّاد الحلبي (ت٦٨٤ هـ) بخطيب المدينة وقاضيها ووزيرها،[3] وقال عنه السخاوي: «قاضيها وابن قضاتها الذي لم يُعقّب منهم غير صاحب الترجمة»، وذكر أنّه الذي كتب إلى دمشق رسالةً عن الزلزلة وظهور النار في المدينة المنورة في جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤هـ.[4] وذكر ابن فرحون أنّه كان في خطبة صلاة الجمعة يذكر الصحابة ويترضّى عنهم على المنبر، ثمّ بعد ذلك يذهب إلى بيته فيكفِّر عن ذلك بكَبْش يذبحُهُ ويتصَدَّق به.[5]

---

١. نصيحة المشاور: ٣٤١ـ٣٤٢.

٢. التحفة اللطيفة٤: ٤٨٨.

٣. تاريخ الملك الظاهر، ابن شدّاد الحلبي: ٣٢٩.

٤. التحفة اللطيفة٣: ٢٣٩.

٥. نصيحة المشاور: ٣٣٩.

وأشـار ابـن شـدّاد الحلبـي في ذكر الوفـود التي وفـدوا على السـلطان الملـك الظاهر بيـبرس بعـد وصولـه إلى الحكـم إلى أنّـه وفـد عليـه مـن المدينـة الأمـير قاسـم بـن جمّاز صاحـب المدينـة، والأمـير محمـد بـن شـيحة أخـو جمّـاز، والأمـير مالـك بـن منيف بن شـيحة وولداه هاشـم وأبو منصور، والأمير قاسـم بن منيف وأخوه سـلطان، والقاضي شـمس الدين سـنان بن عبد الوهاب، فحبسـهم السـلطان، ثمّ أطلقهم وأحسـن إليهم وأنعـم عليهم.[1]

وكان للقاضي سـنان من الوَلَد: علي، وعيسـى، وقاسـم، ومهنّا، وهاشـم، ويعقوب؛[2] عُـرف عـدد منهـم بتوليتهـم منصب القضـاء بالمدينـة بعد أبيهم، منهم عيسـى بن سـنان، وقـد وصفـه السـخاوي بقـاضي الشـيعة،[3] وعـدّ أخـاه قاسـم بـن سـنان ممـن يقسـم من هـؤلاء الإخـوة.[4] وذكـر ابـن بطوطـة (ت٧٧٩ هــ) ممّـن كان في صحبتـه مـن الشـام إلى المدينـة قـاضي الزيديـة شرف الديـن قاسـم بن سـنان.[5] ونظـنّ أنّه أخطـأ في عـدّ المذكور قاضيـاً للزيدية.

ومنهم أيضاً علي بن سـنان، وقد وصفه السـخاوي بـ «أحد حـكّام الإمامية بالمدينة»،[6] وذكـر ابـن فرحـون أنّـه لم يكـن يُعقَـد بالمدينـة عقد نـكاح بغير إذن عـلي بن سـنان، وكان المجـاورون وأهـل السـنة إذا أرادوا عقـد نـكاح أو فصل حكومـة على مذهبهـم يأتون أبا عبـد الله ابـن فرحـون ـ والد المـؤرخ ابن فرحون ـ ليعقـد لهم أو يصلح بينهـم، فيقول لهم:

---

١. تاريخ الملك الظاهر : ٣٢٩ .
٢. التحفة اللطيفة٣ : ٢٤٠ .
٣ التحفة اللطيفة٥ : ٣٧٩ .
٤. التحفة اللطيفة٥ : ٤١٤ .
٥. تاريخ الملك الظاهر : ١٢٧ .
٦. التحفة اللطيفة٥ : ١١٥ .

لا أفعل حتى يأتيني كتاب ابن سنان.[1]

وعدّ السيد حسن بن علي بن شدقم في كتابه: «*المستطابة في نسب سادات طابة*»، هاشم بن سنان وأولاده عزّ الدين حسناً وسناناً وفخر الدين عيسى ويعقوب ونجم الدين يوسف من قضاة المدينة المنورة.[2] وترجم السخاوي لحسن بن علي بن سنان، وعدّه من قُضاة الإمامية.[3] كما ترجم لشخص اسمه «هاشم بن علي بن سنان»، وذكر أنه «قُتل في معركةٍ بـ«ذروان» في صفر سنة٧٢٧هـ، وكان حميّةً لطفيل بن منصور أمير المدينة».[4]

أمّا أشهر أعلام هذه الأسرة على الإطلاق فهو نجم الدين مهنّا بن سنان بن عبدالوهاب (ت٧٥٤هـ) الذي يُعدّ من أبرز علماء الإمامية بالمدينة في عصره. وقد بالغ مؤرخو المدينة في مدحه؛ فقد ذكر ابن فرحون عن موقعه بين أسرة آل مهنّا أنّه: «كان هو القاضي في الحقيقة من بين سائر قَرابته، وبه يُناط الحَلُّ والعقد،[5] وإليه ترجع محاكمات الشيعة وأنكحتهم وعقودهم، وغير ذلك».[6] ووصف علاقاته مع المجاورين للحرم النبوي بما يلي: «كان من أعظم الناس موالاةً للمجاورين واختلاطاً بهم، ... وكان يتحبّب إلى المجاورين، ويمدحهم بالقصائد الحَسَنة، ويستقضيهمُ الحوائج،

---

١. نصيحة المشاور: ٣٤٠ـ٣٤١.

٢. يُراجع: أعلام المدينة المنورة: ٤٢ و١٥٤ و٣١٩ و٤٧٢ و٤٧٣.

٣. التحفة اللطيفة٢: ٣٠٨. وقد ذكر السخاوي في ترجمته أنّه «يُلقَّب عُزيراً»، ولكن ذكر ابن فرحون أنه الملقّب عزيزاً. يُنظر: نصيحة المشاور: ٣٥٤ (ط مركز دراسات المدينة)، حيث رجّح المحقق في المتن، ما ضبطه السخاوي، على ما ورد في الأصل المخطوط.

٤. التحفة اللطيفة٨: ٧٤.

٥. في المطبوع من كتاب نصيحة المشاور، تحقيق مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة: «نياط»، وما أثبتناه من النسخة المطبوعة للكتاب بتحقيق علي عمر: ٢٤٧.

٦. نصيحة المشاور: ٣٣١.

ويحضُرُ مواعيدَهم ومجالس الحديث».[1]

كما بالغ الفيروزآبادي (ت٨١٧ هـ) أيضاً في مدحه بقوله: «ذو الفضيلة الحفيلة، والآداب الجميلة، والمحاضرة الحلوة، والمحاورة التي لا يَعتري مُحبّها السَّلوة، قلّ ما رُئيَ شيعيٌّ على طريقته، أو إماميٌّ جُبل على خليقته. كان في موالاة أهل السنة إلى الأمد الأقصى، ولا يدع في حُسن نَمالأة المجاورين وحميد شيمته نقصاً، يتجاهر في محبّتهم بما يُنبئ عن حسن عقائده، ويتظاهر بذلك فيمدحهم بالمدائح البليغة من غُرَر قصائده، ويُوافقهم في حضور مواعيدهم وسلوك مناهجهم، ويتعرّض دائماً لاستعراض خدمهم واستقضاء حوائجهم».[2]

وذكر ابن فرحون أنّه «كان يستعمل التقيّة كثيراً. وكان إذا نسخ كتاباً ومرّ به ذكر أبي بكر وعمر يترضّى عنهما بالخطّ تقيّةً».[3] وأشار بذلك الفيروزآبادي أيضاً بقوله: «لا يدع الترضّي عن الشيخين في مقالته وكتابته، ويسلك مسلكاً يقطعُ الإنسان بخلوص مودّته لأهل السنّة وحِبابته، وكثيراً ما كان يُصرِّحُ بالذّمّ البليغ لجماعته وصحابته.»[4]

ولنجم الدين مهنّا بن سنان إجازتان من العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ) وإجازة من ولده فخر المحقّقين(ت٧٧١هـ). وله أيضاً رسائل ومؤلفات، منها: «*المسائل المدنيّات*»، وهي أسئلة عقائدية وفقهية وتفسيرية وأدبية أجاب عنها العلامة الحلي وولده فخر المحقّقين؛ ومنها أيضاً: «*أحسن الخلال المختصرة من كتاب الخصال*»، وهو تلخيص كتاب «*الخصال*» للشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)؛ ومنها مناظرة بينه وبين إبراهيم بن أبي الغيث المعروف بابن حسام العاملي حول إكرام السادة الأشراف؛ وقد فصّل الشيخ

---

١. نصيحة المشاور: ٣٣١.

٢. المغانم المطابة في معالم طابة، الفيروزآبادي٣: ١٣٠٤.

٣. نصيحة المشاور: ٣٣١ـ٣٣٢.

٤. المغانم المطابة٣: ١٣٠٥.

حسين الواثقي الكلام عن رسائله ومؤلفاته،[1] كما أعدّ كتابه للطبع: «القاضي السيد مهنّا بن سنان الحسيني المدني: حياته و آثاره».

وكان عدد من رؤساء المدينة في العصر المملوكي الأول من الشيعة المدنيّين، ممّن عرفنا منهم: «نور الدين علي بن الصّفي». فقد ترجم له ابن فرحون قائلاً: «كان من رؤساءِ أهل المدينة وخيارهم، وكان يُوالي المجاورين، ويخدمُهم في قضاء حوائجهم، مع جلالة قدره وعلوّ كلمته ومحبّة الأمراء له».[2] وذكره في موضع آخر باسم «نور الدين بن الصَّفيّ»، واصفاً إيّاه بـ «فقيه الإمامية في وقته ورئيسهم».[3]

كما ترجم له السخاوي مرتين، ذكره في الأولى باسم نور الدين علي بن الصفي، ونقل ترجمته عن ابن فرحون،[4] وذكره في الثانية باسم عليّ بن يوسف بن عزيز المدني، ونقل ترجمته عن ابن صالح الكناني(ت٧٨٥ هـ)، من كتابه المفقود في تاريخ المدينة، قائلاً: «كان فقيهاً ذا جاهٍ ومال ودربةٍ ودرايةٍ، حَسَن الملتقى والهيئة، بَشوشاً قاضياً لحاجةِ سائله من أهل السّنة، مُعظَّماً عند أهل المدينة والمجاورين وغيرهما، حاكماً يرجع إليه الوالي في الصلح بين الناس».[5]

وقد وصفه أيضاً الآقشهري(ت٧٣٩ هـ) بـ «القاضي المشاور صَفيّ الأشراف، كثير الألطاف، بقية الأسلاف، نور الدين أبو الحسن علي بن الشيخ الفقيه المرحوم صفي الدين يوسف بن عزيز المدني الإمامي»؛[6] ونقل عنه نصّ ما أملاه عليه في زيارات المسجد النبوي الشريف، حيث يتضمّن هذا النص زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحبَيْه!

---

١. يُنظر: أعلام المدينة المنورة: ٤٥٠ـ٤٥٥.
٢. نصيحة المشاور: ٣٢٣.
٣. نصيحة المشاور: ٢٦٢.
٤. التحفة اللطيفة٥: ١١٦ـ١١٧.
٥. التحفة اللطيفة٥: ٢٠٢.
٦. الروضة الفردوسية والحضرة القدسية، الآقشهري١: ٢٣٤.

وزيـارة السـيدة فاطمة الزهـراء عليها السلام، والأدعيـة التي تُقرَأ عنـد رأس النبـي صلى الله عليه وآله وعند مقام جبرئيل.[1]

وذكـر ابن فرحون شـخصاً آخر اسـمه يعقـوب بن الصفي، يبـدو أنّه أخو نـور الدين عـلي بـن الصفـي، وعـدّه مـن كبـار الإماميـة، وذكـر أنّـه «كان يقـف في وسـط الروضـة النبويـة، ويقول بأعـلى صوته:

إذا كان رفضاً حبّ آل محمد فليشـهد الثقلانِ أنّي رافضي

فيفزع من ذلك أهل السنة، وكان له في مثل هذا التعصب أمثاله وله أعوان».[2]

ومن أسَر الشـيعة بالمدينـة المنورة: الأسرة «العيّاشـية»،[3] قال ابن فرحـون عن أصولهم وتحوّلهـم إلى التشـيع: إنّـه «كان جدّهـم مغربياً سـنّياً، تزوّج مـن بنات المدينـة، ومات عن أولادٍ صغـار، فنشـأوا في مذهـب أمّهـم، ثمّ كثـروا وانتـشروا، وتمذهبوا بمذهب الشـيعة وغلـوا فيـه».[4] ويظهـر مما ذكـره السـخاوي في ترجمـة زكي الديـن محمد بن محمـد الكِناني الشـافعي (ت٨٨٢ هــ) مـن أنّـه قُتل عـلى يد بعـض «العَيَـاشي»،[5] بقاء هـذه الأسرة حتى نهايـة القرن التاسـع الهجري عـلى الأقل.

وممّـن عرفنـاه مـن أعلام هـذه الأسرة «يوسـف الشُرَيْشـير»،[6] حيـث يظهـر جلياً من

---

١. الروضة الفردوسية١ : ٢٣٤ـ٢٣٩ .

٢. نصيحة المشاور : ١٥٣ .

٣. «العَيّاشـية» وردت في النسـخ المخطوطـة والمطبوعـة لنصيحـة المشـاور بشـكل «العبابيـة» تصحيفـاً، وذكرهـا صحيحـاً السـخاوي في التحفـة اللطيفـة٧ : ١٧٧ نقـلاً عـن ابـن فرحون .

٤. نصيحة المشاور : ٢٨١ .

٥. التحفة اللطيفة٧ : ٤٠ .

٦. هكـذا ورد اسـمه في المصـادر التاريخيـة، و لا نـدري ان كان «الشريشـير» تصحيفاً لنسـبة «الشريشي» – نسـبةً إلـى مدينـة شريـش في الأندلـس – أم لا. و ورد فى المطبوع مـن تحفة الأزهار ٢:٤٣٦ باسـم «يوسـف الشريشري».

وصف ابن فرحون له بـ«شيخ الشيعة وفقيههم»،[1] أنّه كان من فقهاء الشيعة بالمدينة في القرن الثامن. وقد ذكر ابن فرحون عند كلامه عن محاولة الأمير جمّاز بن منصور (الإمارة:٧٥٩هـ) لرجوع الإمامية إلى ما كانوا عليه من القوة والسلطة في المدينة المنورة أنّه أذن ليوسف الشريشير أن يحكم بين الغرباء.[2] ويظهر من هذا النصّ أنّه كان حياً في سنة٧٥٩هـ.

ومن أعلام الإمامية في القرن الثامن الهجري أيضاً «ابن أبي النصر»، ذكره أيضاً ابن فرحون، وعبّر عنه بالقُوَيضي ـ تصغير القاضي ـ ووصفه بـ «مفتي الإمامية وشيخهم»، ويظهر من قوله إنّه كان معاصراً للأمير جمّاز ما يدل على بقائه إلى سنة٧٥٩هـ.[3] ولم نعثر عن هذا الرجل على شيء آخر غير إشارة السمهودي إلى وجود قبر عُرف بابن أبي النضر، وكان عليه بناء، غربي قبة أئمة أهل البيت عليهم السلام بمقبرة البقيع،[4] يُرجّح جداً أنّه نفسه المذكور في كتاب: «*نصيحة المشاور*».

وممّا يُلاحظ أنّ مؤرخّي الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، وبما أنّهم ينتمون إلى مذاهب أهل السنة والجماعة، ولا سيما ابن فرحون ومن تبعه كالفيروزآبادي، كانوا ينظرون للشيعة نظرةَ حقدٍ وكراهيةٍ، وكثيراً ما كانوا يحاولون أن يصوّروا الشيعة على أنّهم أصحاب بدع ومنكرات، ويروون ما يتضمّن نقيصتهم والحطّ منهم، وينقلون أحياناً قصصاً وحكايات تتضمّن عجائب وخوارق للعادة ورؤى في المنام يُراد منها ذمّ الشيعة.

منها ما حكاها تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢ هـ) عن «الشُّرَيْشير»، حيث عدّها من

١. نصيحة المشاور : ٢٨١ .
٢. نصيحة المشاور : ٣٦٥.
٣. نصيحة المشاور : ١٢٠ .
٤. وفاء الوفا٣ : ٣٠٢ .

كبـار الرافضـة بالمدينـة، ولابدّ أنّه فقيه الشـيعة «يوسـف الشريشـير» المذكور أعـلاه، بأنّه «دُفـن بالبقيـع، ثـمّ بعد مُـدّةٍ رُؤيَ بعضُ أهـل الخير الغرباء يقـرأ على قبره ويـلازم القراءة عليـه، فَلِيـمَ على ذلـك، فقال لهم: كان لي شـيخٌ توفّي بغير المدينـة فرأيتُه في المنـام، فقال لي: أنـا نُقلـتُ إلى قـبر الشريشـير بالمدينة، ونقـل الشريشـير إلى قبري. فأنـا ألازم القـراءة على هـذا القبر لهـذا المعنى»![1]

ومثـل هـذه الحكايـة مـا ذكرهـا ابـن فرحون عـن رجل مـن الشـيعة كان يُعـرف بابن هيـلان، ذكـر عنه أنّـه «كان مُسرفاً على نفسـه شـديداً في تشـيّعه، وكان يوماً يهـدِمُ حائطاً، فذُكِـر عنـه أنّـه صـدَر منـه كلامٌ في حـقّ الصّحابـة، فسـقط عليـه الحائـط فهلـك، فدُفـن بالبقيـع. فلـمّا كان اليـوم الثـاني مـن موتـه أصبح القـبر خالياً منـه، ليـس في اللّحْـدِ أحدٌ، ولا حـولَ القـبر نبـشٌ ولا أثرٌ، وقد زال الـتُّرابُ الّذي دُفـن به القبرُ حتّى انكشـف اللّبنُ، وليـس للـتراب أثـرٌ ولا عنـه خـبرٌ، وقد خـلا مِن عنـد رأسِـهِ ثـلاثُ لَبناتٍ لا غـيرُ».[2]

كـما عـدّ ابـن فرحـون في كتابـه تقاليـد وممارسـات للشـيعة الإمامية ممـا اعتبرهـا بدع وضـلالات لهـم. فقـد ذكـر أنّ «الشّرفـاء مـن آل سـنان وغيرهـم كانـوا إذا أظـلّ الحـاجُّ يُسـارعون إلى الحجـرة بصناديـقَ وكـراسيَّ يَنصبونهـا حول الحجـرة الكريمـة، يتّخذونها مقامـاتٍ يجلِسـون عليها للتزويـر،... لا يقدر أحدٌ أن يشـاركَهم في مناصبهم، ولا ينفصل عنهـم الزائـر إلّا بـشيءٍ، وإن كان معه شـمعٌ أو مـاءُ وردٍ أو هديـةٌ أو نذرٌ، فهـم الآخذون لـه، يجعلونـه في صناديقهـم بدَعـاً مَقرونـةً بجاهِ الـوُلاة مـن الشُّرَفاء».[3]

وذكـر أنّ المقصـورة الكبـيرة التـي زادوهـا عـلى الحجـرة الشريفـة وقايةً من الشـمس إذا غربـت، كانـت بدعـةً وضلالةً يُصلّي فيها الشـيعة الإماميـة، «لأنّها قَطَعـت الصُّفوفَ،

---

١. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تقي الدين الفاسي١ : ٥٣٥ .

٢. نصيحة المشاور : ٢١٧ـ٢١٨ .

٣. نصيحة المشاور : ٥٤ .

وَاتَّسَمتْ بمَن ذكر من الصُّنوف». وذكر أنّها كانت مواطن تدريس الشيعة الإمامية، وخلوة علمائهم، وكان الشريف عزازاً ـ ويبدو أنّه من رجال الشيعة ـ يقف على بابها، ويؤذّن بأعلى صوته من غير خوفٍ ولا فزع: «حَيَّ على خير العمل».[1]

وممّا اعتبره ابن فرحون من بدع الشيعة في شهر رمضان، ما ذكره أنّه أدرك «قُرّاءَ الإمامية وأئمّتَها إذا دخل شهرُ رمضانَ أخذوا من القُبّةِ شمعاً وشمعداناتٍ على عددهم، ينصبونها بعدَ صلاة العشاء الآخرة في مجالسهم، ويدعون في كتبهم، ويرفعون أصواتَهم حولَ الروضة، والناسُ في الصلاة لا يعلمون صلاتَهم من رفع أصواتهم، ولا يسمعونَ قراءة إمامهم لكثرةِ قُرّائهم، ويجتمع عليهم من الناس خلقٌ كثير، ويتخلّلُون تلكَ الأدعيةِ بسجَداتٍ لهم مُؤقَّتة».[2]

وفيما يتعلق بأعلام الشيعة المجاورين للحرم النبوي في هذا العصر، يمكن أن نذكر عزّ الدين أحمد بن عبد الكريم الحمصي المعروف بابن جلال الحمصي (ت٦٨٧ هـ). وقد ووصفه السيد مهنّا بن سنان في رسالته: «*الإيضاح والتبيين بفضل ربّ العالمين*» بالفقيه العلامة وذكر أنّه أقام بالمدينة إلى أن توفّي بها.[3] كما أقام محمّد بن أبي بكر الهَمَذاني الدمشقي السكاكيني (٦٣٥ ـ ٧٢١ هـ) بالمدينة المنوّرة مُدّة طويلة عند أميرها منصور بن جَمّاز،[4] (الإمارة: ٧٠٠ ـ ٧٢٥ هـ)، فلابُدّ أنّ إقامته بالمدينة كانت خلال العقدين الأول والثاني من القرن الثامن الهجري.

تحوّل أهل المدينة من الإمامية إلى أهل السنة في العصر المملوكي

اشتهر المماليك بتعصّبهم لمذاهب أهل السنة وشدّتهم على أصحاب المذاهب

١. نصيحة المشاور: ٥٢.

٢. نصيحة المشاور: ٥٥.

٣. أعلام المدينة المنورة: ٣١ـ٣٣.

٤. معجم الشيوخ ـ المعجم الكبير، شمس الدين الذهبي ٢: ٣١٨؛ التحفة اللطيفة ٦: ١٠٨.

الأخرى، وانتهجوا سياسة أسلافهم من بني زنكي وبني أيوب في بناء المدارس الدينية لفقه المذاهب الأربعة، والتضييق والاشتداد على فرق الشيعة وأتباع الأقليات الدينية الأخرى. وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن السابع والسنوات الأولى من القرن الثامن عدة هجمات عسكرية من قبل المماليك على الفرق الدينية القاطنة في جبال لبنان، عُرفت بفتوح الجُرد وكسروان.

ومنذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري، أي بعد تأسيس الدولة المملوكية، بدأت محاولات لعدد من أعلام وفقهاء أهل السنة لمحاربة التشيع الإمامي بالمدينة المنورة. ويزوّدنا ابن فرحون بتفاصيل كثيرة تقدّم لنا صورة وافية عن كيفية التحول المذهبي بالمدينة من التشيع إلى التسنن، حيث يكشف لنا عن محاولات رجال أهل السنة في هذا المجال في ظل دعم السلطة المملوكية وحمايتها لهم؛ بالإضافة إلى خروج بعض أمراء المدينة الأشراف من التشيع لصالح أهل السنة وتعزيز مكانتهم بالمدينة المنورة.

ولعل أولى هذه المحاولات ما قام به الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المصري، المعروف بابن حِنّا (ت٦٧٧ هـ) عند قدومه إلى المدينة، حيث إنّه وباعتباره وزيراً للسلطان المملوكي،[1] مارس ضغوطاً على الشيعة جعلهم يضطرون إلى استعمال التقية. وتفصيل ذلك ـ كما ذكره ابن فرحون ـ أنّ الصاحب ابن حِنّا عند قدومه وإقامته بالمدينة، «كثّر من قراءة المواعيد، وقام على آل سنان والقياشين، فهابوا مكانه من السلطان، وأذعنوا واستعملوا التقيّة... وكان يأتيه من الينبع قوافل بالدقيق والقمح والأرز وأنواع الحبوب، فيعطي منه الخدام والمجاورين، ويمُدّ رؤساء الإماميّين وكبار

١. تولّى بهاء الدين ابن حنّا منصب الوزارة في العصر المملوكي لمدة ١٨ سنة، ابتداءً من سنة ٦٥٩ هـ وانتهاءً بموته، حيث كان وزيراً للسلطان الملك الظاهر بَيْبرس (الحكم: ٦٥٨ـ٦٧٦هـ)، ثمّ لابنه الملك السعيد بركة خان (الحكم:٦٧٦ـ٦٧٨هـ).

الشرفاء المقيمين، حتى أشهدوا على أنفسهم أنّهم سُنّة، ولا يحكمون بأحكام البدعة لأنّه كان الحكّام منهم والفقهاء منهم، ولم يزالوا كذلك حتى سافر الصاحب عنهم، فرجعوا إلى حالهم، ولكن بعد هضم جانبهم وكسر شوكتهم، فاستمرت المواعيد والقراءات والاستماع والسماعات».[1]

وفي سنة٦٨٢هـ قدم إلى المدينة سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري الخزرجي(ت٧٢٦ هـ)، وكان قد تولّى خطابة المسجد النبوي الشريف، وأخَذَها من آل سنان، فكان أول خطيب لأهل السنة بالمدينة، حيث استمرّ بالخطابة إلى موته. وتعرّض سراج الدين في أول أمره للأذى من الشيعة. ثمّ تزوّج بنت القيشاني رئيس الإمامية وفقيهها، فلمّا صاهرهم «انكفّ عنه الأذى قليلاً، وصار يخطُب ويُصلّي من غير حكم ولا أمر ولا نهي».[2]

ومنذ أيام شيخ خُدّام الحرم النبوي شبل الدولة كافور المظفّري المعروف بالحريري، وقد تولّى المشيخة سنة٧٠٠ هـ، كثر المجاورون وطلبوا من الملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكي (الحكم: ٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ) أن يكونَ لأهل السنّة حاكمٌ يحكم بينهم ويحملهم على مذهبهم، فقُلّد بذلك القاضي سراج الدين، «فاستمرّ الحال على ذلك، يحكُمُ بين المجاورين وأهل السنّة، وآل سنان يحكمون في بلادهم على جماعتهم وعلى من دُعي إليهم من أهل السنة، فلا يقدر أحدٌ على الكلام في ذلك».[3]

ومن علماء السنة الذين كان لهم دورٌ في مواجهة التشيع وانحساره بالمدينة، القاضي شرف الدين محمد بن محمد بن أحمد اللخمي الشافعي المصري المعروف بابن الأميوطي (ت٧٤٥ هـ)، وقد قال عنه ابن فرحون: «كان في القاضي شرف الدين شدّةٌ

١. نصيحة المشاور: ٥٥ ـ ٥٦.
٢. نصيحة المشاور: ٣٣٤ ـ ٣٤٠.
٣. نصيحة المشاور: ٣٤١.

عـلى الأشراف، وكان لـه هيبـةٌ عظيمـة، سـقاهم المُـرّ وأذاقهـم الصـبر. وأمّا سـطوتُه على الإماميـة وتوبيخـه لهـم في المحافل وسـبُّهم على المنـبر فأمرٌ مشـهورٌ لا يحتـاج إلى وصف، ... وكان متمسّـكاً بالسـنّة، يتّبـع أشـدّها، ويحمل نفسـه على أشـقّها».[1]

وكان لابـن الأميوطـي مؤلَّـفٌ اسـمه: «*الجواهـر السَّـنيَّة في الخطب السُّـنِّية*»، ذكر ابـن فرحـون أنّـه «قـلّ أن يخلُو منها خطبـةٌ إلّا وفيهـا ذكرُ البدعـة وأهلهـا، وتوبيخُهم بـما هـم عليـه». ومـن سـيرته في معاداة الشـيعة أنّـه: «نـزل مرّةً مِـن على المنـبر لضرب رجـل مـن الإمامية»، وأنّـه «كان يصيح عليهـم [أي الإماميـة] وهو على المنـبر، ويأمر بجرّهـم عنـده فيضربُهـم». ومنـذ يوم عيـد الأضحى سـنة ٧٣٦ هـ، منـع الإمامية من أن يصلّـوا صـلاةَ العيد في مسـجد مصلّى الإمام عـلي عليه السلام، وألزمهم بالدخـول مع أهل السـنة في مسجدهم.[2]

أمّـا ابـن فرحـون نفسـه، فقد تـولّى قضـاء المدينـة في سـنة ٧٤٥ هــ نيابةً عـن القاضي تقـي الديـن عبـد الرحمن بـن عبد المؤمـن الهوريني الشـافعي، فجهـد جهداً كبـيراً في كسر شـوكة قُضـاة المدينة من الشـيعة الإمامية وإقصائهم عـن القضاء وإعـراض الناس عنهم، وهـو يـشرح السـيرة التـي انتهجها في اسـتمالة أهـل المدينة إلى نفسـه وإبعادهـم عن قضاة الإماميـة بقوله: «فسـلكتُ مع الناس سـبيلَ السياسـةِ وسـدّدتُ الأحـكامَ، وجريتُ على الصُّلـح بـين الخُصـوم، فـمال إليّ أهـلُ المَدينـةِ، ورأوْني لا آخُـذُ منهـم شـيئاً في حُكـم ولا إثبـاتٍ ولا وراقـةٍ، بـل رُبّـما أعطِي من عنـدي من أتحقَّـقُ ضرورَتَه مـن الغُرمـاء، فأحبّني أهـل المدينـة ومالوا عن قُضـاة الإمامية، واعتزلوهم وتركـوا المُحاكَمَةَ عندهـم... ولم أزل معهـم كذلـك حتّـى أخمـل الله ذكرهـم وماتوا وهـم أحيـاء، ولم يَبْقَ لهـم في البلـد أمرٌ ولا نهـيٌ إلّا في الـشيء التّافِهِ والأمـر النادر».[3]

---

١. نصيحة المشاور: ٣٤٨.

٢. نصيحة المشاور: ٣٤٩.

٣ نصيحة المشاور: ٣٥٤.

ويتابع ابن فرحون القول إنّه منذ سنة٧٤٧ هـ، بدأ بالتشديد على الإمامية في نكاح المتعة والتنكيل بفاعليها، وحمل الناس على مذهب مالك بن أنس، وتعزير من تكلّم في الصحابة، «فلم يزدِ الناس إلّا طاعةً وقبولاً».[١] كما أشار هو نفسه إلى نشاطه في تدريس المذهب المالكي ودوره في إعادة ظهور وانتشار هذا المذهب بالمدينة المنورة.[٢] وانتهى الأمر بذلك إلى محاولة فاشلة لاغتياله سنة ٧٦٣هـ.

وبالإضافة إلى محاولات فقهاء أهل السنة، كان لعدد من أمراء الأشراف بالمدينة أيضاً دورٌ في انحسار التشيع ودعم أهل السنة، حيث بدأ عدد منهم منذ بدايات القرن الثامن تقريباً، بالخروج عن التشيع والانتقال إلى مذاهب أهل السنة، ربّما تقرباً بأصحاب السلطة الملوكية لتوليتهم إمارة المدينة. وربما يُعدّ الأمير وُدَيّ بن جَمّاز بن شيحة بن هاشم بن قاسم الحسيني (الإمارة: ٧٣٦ـ٧٤٣ هـ)، أول أمير تصدّى لمواجهة التشيع، فقد وصفه ابن فضل الله العُمري (ت٧٤٩ هـ) بقوله: «مُقيم السنّة ومُعْلِيها، ورافضُ الرافضةِ ومُقْصِيها»،[٣] ما يُظهر دوره في ذلك.

وقد زوّدنا القلقشندي بنصّ مرسوم من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكي بتولية الأمير وُدَيّ بن جَمّاز بإمارة المدينة مشاركةً مع ابن أخيه الأمير سيف الدين،[٤] والجدير بالذكر أنّ الفرمان من إنشاء ابن فضل الله العمري، حيث كان يتقلّد رئاسة ديوان الإنشاء في عهد الملك الناصر، وما يهمّنا هنا أنه يحثّ فيه الأمير على محو بدع الطائفة الإمامية والتضييق والتشديد عليهم، وممّا ورد فيه أنّه: «لا يَدَعْ للإمامية إماماً يقتدي به منهم قومٌ شِرار، ولا قاضياً يقضي بينهم... ولا يُفْتح لهم بفتوى على

١. نصيحة المشاور: ٣٥٥.
٢. نصيحة المشاور: ١٥٠.
٣. الدرر الكامنة٤: ٤٠٧.
٤. لم يرد في النسخة اسم الأمير، ولعلّ المقصود هو طفيل بن منصور بن جَمّاز (ت ٧٥٢هـ).

مذاهبهم فم».[1] كما زوّدنا القلقشندي أيضاً بنصّ مرسوم آخر بتولية أحد الأمراء بإمرة المدينة، تتضمّن توصيته بإزالة البدع ومواجهة الروافض، «مِن رفع أيدي قضاتهم ومنعهم»، وإلزام أهل المدينة بكلمة السنة.[2]

أمّا الفيروزآبادي فقد عدّ الأمير سعد بن ثابت بن جَمّاز بن شيحة الحسيني (الإمارة: ٧٥٠ـ ٧٥١ هـ) أول أمراء المدينة الأشراف ممّن دعموا أهل السنة، حيث وصفه بأنّه: «أول مَن قمع الله تعالى به البدعة وأركانها، ورفع به قواعدَ السنة وبنيانها، ... وأخمد نار الشيعة وأطفأها».[3] وبالغ في مدحه ابن فرحون أيضاً بسبب مواقفه هذه قائلاً: «كان في دولته من أحسن الأمراء سيرةً، ... ناصراً للسُنّة، قامعاً للبدعة، ... مُستَجلِباً به رضَى السّلطنة».[4]

وكان أول ما بدأ به الأمير سعد بعد استقراره في الإمارة، كما ذكر الفيروزآبادي، منع آل سنان وعلماء الإمامية من التعرّض للأحكام الشرعية وعقد الأنكحة، وردّ الأمر إلى أهل السنة تقرّباً لقلوب السلطنة المملوكية، «ونادى في المدينة وأسواقها جهاراً نَهاراً أن لا يحكمَ في المدينة إلّا القاضي الشافعي،... ثمّ إنّه منع قُضاة الشيعة أن يدخلوا معه الحُجرة الشريفة».[5]

وكانت هذه المحاولات تتخلّلها بين الحين والآخر محاولات أخرى للأمراء الذين بقوا على تشيعهم، في دعم الشيعة الإمامية وإعادة الأمور إليهم. فقد حاول الأمير جَمّاز بن منصور بن جَمّاز بن شيحة خلال مدّة ولايته القصيرة التي لم تدم أكثر من

١. صبح الأعشى١٢ : ٢٣٧ـ٢٤٣ .
٢. صبح الأعشى١٢ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .
٣. المغانم المطابة٣ : ١٢٠٩ .
٤. نصيحة المشاور : ١٠٣ .
٥. المغانم المطابة٣ : ١٢٠٩؛ وأيضاً في: التحفة اللطيفة٣ : ١٠٢ـ١٠٤ .

تسع أشهر خلال سنة ٧٥٩ هـ، رجوع الإمامية إلى ما كانوا عليه، فأذِن لفقيه الشيعة يوسف الشريشير أن يحكم بين الغرماء، «فظهرت كلمتهم، وارتفعت رايتهم»، وأظهر لابن فرحون وللمجاورين الجفاء والغلظةَ في الكلام؛ كما ذكر ابن فرحون نفسه. وقد أودت هذه السياسة التي انتهجها الأمير جمّاز بحياته، فكان مصيره أن «قُتِل على يد فدائيّين، جُهِّزا مع الركب الشامي لذلك».[١]

وكان ابنه الأمير هبة بن جمّاز بن منصور بن جمّاز بن شيحة الحسيني (الإمارة:٧٧٣ ـ ٧٨٢ هـ) انتهج سياسة مخالفة لسياسة أبيه، وانتقل إلى المذهب الشافعي، ويذكر الفيروزآبادي أنّه: «لما علمت الدولة المصرية بذلك، سلكَتْ في تقديمه وتعظيمه أحسنَ المالك، واختاروه للولاية والتأمير، واصطفوه على كلّ شريفٍ وأمير، وأحمدوه في نقل مذهبه ووُرودِه المنهل العذب النمير! فخلع السلطان عليه خِلعةً مُنيفة، وقلّده إمارة المدينة الشريفة». فكان انتقاله المذهبي سبباً لولايته وإمارته على المدينة من قبل المماليك.[٢]

ويتابع الفيروزآبادي القول عن سيرة الأمير هبة بن جمّاز في معاضدة أهل السنة أنّه: «لمّا باشر الولاية، نشرَ أعلام السنّة النبويّة نشراً جميلاً، وبلّغَ المجاورين أمانيَّهم فيما كانوا يرومونه تأميلاً، وحسن ما مهّده ابنُ عمّه من المعدلة برفع قواعد السنّة تتميماً وتكميلاً». وفي عصره اتفق أن صار كلّ من السلطان والقاضي وشيخ خُدّام الحرم بالمدينة المنورة شافعيّين، وهذا ممّا لم يُعهد في عصر من الأعصار، كما يرى الفيروزآبادي.[٣]

وفي القرن التاسع الهجري استمر الانقسام في مواقف أمراء الأشراف بالمدينة بين

١. نصيحة المشاور: ٣٦٥ـ٣٦٦؛ التحفة اللطيفة٢: ٢١٧.
٢. المغانم المطابة٣: ١٣١١.
٣. المغانم المطابة٣: ١٣١١ـ١٣١٢.

مـن يميـل إلى الشـيعة و يحـاول دعمهم و مسـاندتهم و إعـادة تعزيز مكانتهـم ، و بين من يميـل إلـى أهـل السـنة و يقوم بقمـع الشـيعة و التشـديد عليهم. فقـد ذكـر المؤرخون في سـيرة الأمـير عجـلان بـن نُعَـير بن هبـة بن جمّـاز الحسـيني أنّـه أقام شـخصاً من الشـيعة قاضيـاً، اسـمه الصَّيقـل، وكان يُرسـلُ إليه غالـب الأحكام.[1] كـما ولّى أخـوه الأمير ثابت بـن نُعَـير شرطـة المدينة شـخصاً اسـمه عـلاء الدين علي بـن محمّـد القائـد (ت٨٢٨ هـ)، مـن أهل جبـل عامل، ذكـروا عنـه أنّه «كان يُنسَـب للتشـيّع».[2]

ومـن جهـة أخـرى، ذكـر المؤرخـون في سـيرة الأمـير زُهَـير بـن سـليمان بـن هبـة بن جمّـاز الحسـيني (الإمـارة: ٨٦٥ ـ ٨٧٤ هــ)، أنّـه كان ينظر لأهل السـنة، ويقمـع المُبتَدِعة ـ ولابُـدّ أنّهـم قصـدوا بالمبتدعـة طائفة الشـيعة الإماميـة ـ، وهكذا كانت سـيرة جـدّه هبة بـن جمّـاز، فكانـت الشـيعة تكرهه لهـذا السـبب.[3] كما ذكـروا عن ابنـه الأمير قُسَـيطل بن زهـير (الإمـارة:٨٨٣ ـ ٨٨٧ هــ) أيضـاً أنـه كان يميل لأهل السـنة.[4] و ذكـر وا أيضاً عن الأمـير فارس بن شـامان الحسـيني (الإمـارة : ٩٠١ – ٩٠٣هــ) أنّه قام بقمع الشـيعة. و كان قـد تـأدّب مع أهل السـنة.[5]

وهكـذا اسـتمرّ التضييـق عـلى طائفـة الشـيعة الإماميـة بالمدينـة حتـى نهايـة العـصر المملوكـي. وممّـا وردنـا مـن أخبـار هذه المضايقـات ما ذكـره السـمهودي من أنّـه في دولة السـلطان الملـك الظاهر جقمق المملوكي (الحكـم:٨٤٢ ـ ٨٥٧ هـ)، وردت مراسـيمه إلى شـيخ الحـرم فارس الرومـي الأشرفي،[6] بمنع إدخال جنائز الشـيعة إلى المسـجد النبوي إلّا

١ إنباء الغمر بأبناء العمر، ابن حجر العسقلاني٣ : ٣٧٣ .

٢ التحفة اللطيفة٥ : ٢٠٦ـ٢٠٧ .

٣. التحفة اللطيفة٣ : ٢٤ .

٤. التحفة اللطيفة٥ :٤٤٣ .

٥. التحفة اللطيفة٥ :٤٤٣

٦. ترجمته في: التحفة اللطيفة٥ : ٤٠٢ .

الأشراف العلويّين، فكان لا يدخل المسجد إلّا جنائز الأشراف وأهل السنة. وحاول بعضُ أهل المدينة إدخال بعض الشيعة غير الأشراف، فقام في وجهه بعض أمراء الترك ومنعه من ذلك.[1]

و كانت نتيجة هذه الضغوط أن تحولت طائفة الشيعة الإمامية من الأكثرية السكانية بالمدينة في بداية العصر المملوكي، ألى أقلية في نهاية هذا العصر. ولكن بالرغم من ذلك فقد استطاع الشيعة الحفاظ على وجوده في المدينة المنورة خلال العهد العثماني، و كان لهم حياة علمية و أدبية في هذا العصر، كان يمثّلها عدد من أعلام أسرة «بني شَدقَم» الأشراف المدنيّين. و استمر التشيع الإمامي بالمدينة إلى يومنا هذا، حيث تُعرف الأقلية الشيعية الموجودة بها اليوم بالنخاولة.

المصادر والمراجع

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا، أحمد بن علي، تقي الدين المقريزي، تحقيق: جمال الدين الشيّال، القاهرة: وزارة الأوقاف، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد، البَشّاري المقدسي، ليدن: بريل، ١٩٠٦م.

أعلام المدينة المنوّرة من بني شدقم وغيرهم، حسين الواثقي، قم، ط١، ١٤٣٩هـ.

إنباء الغمر بأبناء العمر، محمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: وزارة الأوقاف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

بغية الطلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد، ابن العديم الحلبي، تحقيق: سهيل زكّار، دمشق: دار القلم العربي، ١٩٨٨م.

تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار

١. وفاء الوفا٢ : ٢٨٧ .

الفكـر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

تاريخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعلام، محمد بن أحمد، شـمس الديـن الذهبي، تحقيق: بشّـار عوّاد معروف، بيروت: دار الغرب الإسـلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

تاريـخ مدينـة دمشـق، علي بـن الحسـن، ابن عسـاكر الدمشـقي، تحقيق: علي شـيري، بـيروت: دار الفكر، ١٤١٥هــ/ ١٩٩٥م.

تاريـخ الملـك الظاهـر، محمـد بـن عـلي، ابـن شـدّاد الحلبـي، تحقيـق: أحمـد حطيـط، بـيروت، مؤسسـة الريـان، ٢٠٠٩.

تحفـة الأزهـار وزلال الأنهـار، السـيد ضامن بن شـدقم المـدني، تحقيق: كامل سـلمان الجبـوري، تهران: مـيراث مكتوب، ط١، ١٤٢٠هــ/ ١٩٩٩م.

التحفـة اللطيفـة في تاريـخ المدينـة الشريفة، محمـد بن عبد الرحمـن السـخاوي، المدينة المنـورة: مركز بحـوث ودراسـات المدينة المنـورة، ط١.

جمهـرة أنسـاب العـرب، عـلي بـن أحمـد، ابـن حـزم الأندلـسي، تحقيـق: عبد السـلام هـارون، القاهـرة: دار المعـارف.

الـدُرَر الكامنـة في أعيـان المائة الثامنـة، محمد بن عـلي، ابن حجر العسـقلاني، بيروت: دار الجيل، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

ذيل العبر، محمد بن أحمد، شمس الدين الذهبي، تحقيق: محمد رشيد عبد المطلب.

رجـال الطـوسي، محمد بـن الحسـن الطـوسي، تحقيـق: جـواد القيّومي، قم: مؤسسـة النـشر الإسـلامي، ١٤١٥هـ.

رجـال النجـاشي، أحمد بن عـلي النجاشي، تحقيق: السـيد موسـى الشُـبَيري الزنجاني، قم: مؤسسـة النشر الإسـلامي، ط٦، ١٤١٨هـ.

رحلـة ابـن بطوطـة، محمـد بـن عبـد الله، ابـن بطوطـة المغـربي، بـيروت: دار صـادر، ١٤١٢هــ/ ١٩٩٢م.

رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد، ابن جبير الأندلسي، بيروت: دار صادر، (لا. ت).

رحلة العبدري، محمد بن محمد العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دمشق: دار سعد الدين، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة المقدسي، تحقيق: إبراهيم الزيبق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الروضة الفردوسية والحضرة القدسية، محمد بن أحمد الآقشهري، تحقيق: قاسم السامرائي، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، محمد بن أحمد، تقي الدين الفاسي، تحقيق: أيمن فؤاد سيّد ومصطفى محمّد الذهبي، مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ط٢، ١٩٩٩م.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القَلْقَشَنْدي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دارالكتب العلمية، (د. ت).

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

فضائل مصر وأخبارها وخواصها، الحسن بن إبراهيم، ابن زولاق، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ت).

الفهرست، محمد بن إسحاق النديم، تحقيق: أيمن فؤاد سيّد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

الفهرست، علي بن بابويه، منتجب الدين الرازي، تحقيق: جلال الدين محدّث ارموي، قم: كتابخانه عمومي آية الله العظمي مرعشي نجفي، ١٣٦٦ش.

لسان الميزان، محمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الفتّاح أبوغدّة،

بـيروت: دار البشـائر الإسـلامية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

المدينـة المنـورة في العـصر المملوكـي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م): دراسـة تاريخيـة، عبـد الرحمـن المديرس، مركـز الملك فيصـل للبحوث والدراسـات الإسـلامية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

معـالم العلـماء، محمد بـن علي، ابـن شهرآشـوب، تحقيق: السـيد محمد صـادق آل بحر العلوم، بـيروت: دار الأضـواء، (د. ن).

معجـم السـفر، أحمد بـن محمد، أبـو طاهر السِّـلَفي، تحقيق: عبـد الله عمر البـارودي، بـيروت: دار الفكـر، ١٩٩٣هـ/ ١٤١٤هـ.

معجم الشـعراء، محمد بـن عمران المرزباني، تحقيـق: ف. كرنكو، بـيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

معجـم الشـيوخ ـ المعجـم الكبـير، محمـد بـن أحمـد، شـمس الديـن الذهبـي، تحقيق: محمـد الحبيـب الهيلـة، الطائـف: مكتبـة الصديـق، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

المغانـم المطابـة في معـالم طابة، محمـد بن يعقـوب الفيروزآبـادي، المدينة المنـورة: مركز بحوث ودراسـات المدينـة المنورة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

مناقـب آل أبي طالـب، محمـد بـن عـلي، ابـن شهرآشـوب، تحقيـق: يوسـف البقاعي، بـيروت: دار الأضـواء، ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

نصيحـة المشـاور وتسـلية المجـاور، عبـد الله بن محمـد، ابن فرحـون المالكـي، تحقيق: عـلي عمر، القاهـرة: مكتبة الثقافـة الدينيـة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

نصيحـة المشـاور وتعزيـة المجـاور، عبـد الله بـن محمد، ابـن فرحـون المالكـي، المدينة المنـورة: مركـز بحـوث ودراسـات المدينـة المنـورة، ١٤٣٤هـ.

الـوافي بالوفيـات، صـلاح الديـن خليـل بـن ايبـك الصفـدي، ج٢٤، باعتنـاء: محمد

عدنـان البخيـت ومصطفـى الحيـاري، بـيروت: المعهـد الألمـاني للابحـاث الشرقيـة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

الورقـة، محمّـد بـن داود بـن الجـرّاح، تحقيـق: عبد الوهـاب عـزام وعبد السـتّار أحمد فـرّاج، دار المعـارف، ط٣.

وفـاء الوفـا بأخبـار دار المصطفـى، عـلي بـن عبـد الله السـمهودي، تحقيـق: قاسـم السـامرائي، مؤسسـة الفرقـان للـتراث الإسـلامي، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

أوروبيّون في الحرمين من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين

أ.د. عبد الله عقيل عنقاوي

أثارت جزيرة العرب انتباه أوروبا منذ العصور القديمة؛ وحاول الأوروبيون اقتحامها خلال العهد الروماني ثمّ البيزنطي، ولم يكتب ولم يحالفهم النجاح في ذلك؛ وحين ظهر الإسلام وخرجت جيوش الفتح لتنشر الإسلام في آفاق الأرض ازداد اهتمام أوروبا وتطلعها للوصول إلى جزيرة العرب بصفة عامة وأراضي الإسلام المقدّسة بصفة خاصة.

ومع أنّ الحروب الصليبية قد هيّأت المناسبة التي التقت فيها أوروبا بالشرق العربي إلّا أنّ الجزيرة العربية ظلّت بمنأى عن الصراع؛ فقد حرص الأيوبيون ثم المماليك على إبقاء البحر الأحمر ممرّاً مائياً مقفلاً أمام الملاحة الأوروبية سواء منها الحربية أم التجارية. ولم تفلح مغامرة رينولد (ارناط) أمير الكرك الصليبي في الوصول إلى أراضي الحرمين. وذلك حين جهّز أسطولاً في ميناء العقبة انحدر به في مياه البحر الأحمر للوصول إلى موانئ الحجاز ومهاجمة المدينة المنورة، فقد سارع السلطان صلاح الدين الأيوبي بإرسال أسطول إسلامي تمكّن من اللحاق بالأسطول الصليبي عند أحد الموانئ القريبة من المدينة المنورة وأنزل به هزيمة ساحقة ووقع أفراد الحملة بين قتيل وأسير، وقضى على أحلام (رينولد) في مهدها.

ظلّت أراضي الحرمين بعد حملة (رينولد) سراً مغلقاً بالنسبة لم تطّلع عليه أوروبا لعدّة قرون حتى سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م حين استطاع أحد نصارى أوروبا النفاذ إلى الحرمين متخفّياً في ثوب إسلامي لينقل إلى أوروبا تقريراً عن مشاهداته في أراضي الإسلام المقدسة، فكانت رحلته الأولى في سلسلة رحلات جاءت على فترات متقطعة منذ مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وحتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

فمنذُ أن قام لودفيكو فارثيما (Lodorico varthema) برحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بصحبة قافلة الحج الشامي سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م متنكراً في هيئة شخص مسلم، توالت الرحلات الأوروبية التي من هذا النوع إلى الأراضي المقدسة من حين إلى آخر، وكان هناك قاسم مشتركٌ بين هؤلاء الرحالة، وهو التنكّر في ثوب إسلامي، وتدوين مشاهداتهم وملاحظاتهم الشخصية في مؤلّفات نشرت جميعها في أوروبا في حياتهم أو بعد مماتهم.

أمّا أهدافهم من القيام بهذه الرحلات، فهي أهداف معلنة وأخرى خفيّة، فالهدف المعلن هو المعرفة وحبّ الاستطلاع والكشف العلمي. فمثلاً فارثيما (Varthema) يقول: لو سألني أيّ إنسان عن سبب رحلتي، فمن المؤكّد أنّني لن أستطيع تقديم سبب أفضل من الرغبة الجامحة في المعرفة، وهي الدافع الذي حرّك الإنسان ليرى العالم ومعجزات الإله فيه. فقد صرّح فارثيما هنا بالهدف المعلن من رحلته. أمّا الهدف الخفيّ فنعرفه في نهاية رحلته الطويلة التي أخذته إلى الحجاز فاليمن ثمّ الهند، ليصل أخيراً إلى البرتغال حيث قابل الملك البرتغالي (مانويل) الذي قلّده درع الفروسية. ومن هناك عاد فارثيما إلى موطنه روما.

وأعتقد أنّ من السهولة بمكان أن نستنتج أنّ فارثيما لم يكن حاجّاً عادياً، بل جاسوساً للملك البرتغال الذي كانت أساطيله في ذلك الوقت تجوب المحيط الهندي، بعد أن

تمكّـن القائـد البرتغـالي فاسـكو دي جاما سـنة ١٤٩٨ م من اكتشـاف طريـق رأس الرجاء الصالـح والوصـول إلى الهنـد. وتنبّهـت بعدها دولـة المماليك المنهـارة لحمايـة الحرمين من هـذا الزحف الصليبـي الجديد.

لقـد أخفـى جميـع هـؤلاء الرحالـة شـخصياتهم وديانتهـم الحقيقيّـة وتنكّـروا في زيٍّ إسـلامي وأجـادوا اللغـة العربيـة، وبرعـوا في أداء العبـادات والطقوس الإسـلامية التي مكنتهـم مـن العبـور إلى الحرمين دون أن ينكشـف أمرهـم. وعلى الرغم مـن وجود بعض الأخطـاء التـي ظهـرت في مؤلفاتهـم عـن بعـض الشـعائر الدينيـة والأوضـاع العامّـة في الحرمـين، سـواء أكانت عن قصد أم كانـت نتيجة لجهلهم ببعض الأمـور المتعلّقة بالعقيدة أو العـادات، إلّا أنّ مؤلفاتهـم لا تخلـو من قيمـة علمية، بل لابدّ من الرجـوع إليها، ونحن نتحـدّث عـن أدب الحج.

فمـن خلال مشـاهداتهم قدّمـوا لنا وصفـاً تفصيلياً دقيقـاً لأحوال مكة العامـة الدينية والسياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية في فـترات متعاقبة من تاريخها، كما قدّمـوا لنا صوراً حيّـةً عن الحج ومراسـمه والأمـور الأخرى التـي ترتبط به في عصـور مختلفة.

وسـنحاول أن نعـرض باختصـار نـماذج مـن هـؤلاء الرحّالـة الذيـن شـاركوا في أداء الحـج في قـرون مختلفـة، وهـم كالآتي:

الاسم	الجنسية	الوقت الذي أدّى فيه الحج
لودفيكو فارثيما	إيطالي	مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي
جوزيف بيتز	إنجليزي	نهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي
دومنغوباديالبليخ	إسباني	أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ بداية القرن التاسع عشر
الدون روتر	إنجليزي	أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين الميلادي

يحيـط الغمـوض بشـخصية لودفيكـو فارثيـما؛ فكلّ مـا يعرف عنـه أنّه إيطـالي الأصل مـن مدينـة بولونـا سـافر مـن البندقية بحـراً سـنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م إلى مـصر ومنها إلى

بـلاد الشـام حيـث تنقـل فيهـا واسـتقر أخـيراً في دمشـق. وفي هـذه المدينـة تعلّـم فارثيما اللغـة العربية في بضعة أشـهر حسـب قوله، ومـن ثَمَّ انضـمّ إلى قافلة الحج الشـامي وقت خروجهـا المعتـاد في شـهر شـوال. ويتجـلّى الغمـوض في هذه المرحلـة من مغامـرة فارثيما ـ أو يونـس كـما سـمّى نفسـه أثنـاء رحلتـه ـ فلم يمض بـين إبحاره مـن البندقيـة وخروج قافلـة الحج من دمشـق سـوى بضعة أشـهر مما يجعـل من المسـتحيل عليه أن يتقـن العربية في هـذا الوقت القصـير إلى جانب إتقانه الدقيـق للطقوس والتعاليـم الدينيّة بصورة تجعله بعيـداً عـن اكتشـاف حقيقته، وهـي نقطة جديـرة بالملاحظة. ويمكـن أن يسـتنتج منها أنّ فارثيـما قـد أعدّ إعـداداً جيـداً قبل مغادرتـه أوروبـا إلى الشرق.

ويمـضي فارثيـما في غموضه فيقـول: إنّه تعرّف في دمشـق على بعض العسـكر المماليك الذيـن سـاعدوه في الوصول إلى أحـد الأمراء المماليك الـذي ضمّه إلى الجنـد المرافق لقافلة الحج الشـامي؛ لحراسـتها في ذهابهـا وإيابها، وبذلـك أتيحت له الفرصة للقيـام بأداء الحج دون أن ينكشـف أمـره؛ وبـصرف النظـر عـن روايـة فارثيـما عن الظـروف التي سـاعدته عـلى الانضـمام إلى القافلـة التـي تدعو إلى الشـك في صحّتهـا لغرابتهـا؛ فقد تمكـن فارثيما مـن السـير مـع قافلـة الحـج الشـامي إلى الحرمـين، ودَوّنَ رحلته التـي نـشرت بالإيطالية وترجمـت إلى عدد مـن اللغـات الأوروبية.

وممّـا يلاحـظ عـلى فارثيـما الميـل إلى المبالغـة في ذكـر الأرقـام والإشـارة بعـرض بعض الأسـاطير التـي يوردهـا كحقائق، فعنـد إشـارته إلى قافلة الحجِّ الشـامي التـي خرج معها ذكـر أنّ عـدد حجّاجهـا أربعـون ألـف حاجٍّ وعـدد جمالها خمسـة وثلاثـون ألفاً؛ أمّـا قافلة الحـج المـصري التـي شـاهدها بعـد وصولـه إلى مكة فعـدد جمالها سـتون ألـف جمل.

وقبـل وصولـه إلى المدينـة المنـوّرة بيومـين تقريبـاً مـرّت القافلـة بجبل محيطـه من ١٠ إلى ١٢ ميـلاً، وفي هـذا الجبـل يسـكن أربعـة آلاف أو خمسـة آلاف شـخص مـن اليهـود، وهـم عـراة تماماً يـتراوح طـول الواحد منهم بين خمسـة إلى سـتة أقـدام، أصواتهم شـبيهة

بأصوات النساء، ولونهم يميل إلى السواد، لا يأكلون إلّا لحم الغنم، وهم مختونون يجهرون بيهوديتهم، وعندما يتمكنون من القبض على أحد المسلمين يسلخون جلده حياً، وبطبيعة الحال كانت القافلة تمرّ بالقرب من خيبر التي ربما سمع فارثيما بأنّها كانت موطناً لليهود. فهو هنا يضفي على الحقيقة ثوباً من الأسطورة.

على أنّ هناك بعض الحقائق التي تهمّنا في رحلة فارثيما، فعند وصوله إلى المدينة المنوّرة أشار ـ وربما لأول مرّة ـ إلى المرور بقوله: (في أول يوم دخلنا المدينة، وعند بوابة الحرم اضطرّ كلُّ فردٍ منّا صغيراً أو كبيراً إلى أن يرافقه شخص أخذ بيده وقاده إلى حيث قبر محمدﷺ)، ويخطئ فارثيما عند وصفه للمسجد النبوي حين يشير إلى أنّ الحجرة التي تضمّ القبر النبوي الشريف تضمّ إلى جانبه قبور أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين.

وتنبّه فارثيما عند وصوله إلى مكة إلى الصراع الدائر بين الشريف بركات وأخيه الجازاني أبناء محمد بن بركات على إمارة مكة، وأشار إلى الأحوال المضطربة في مكة؛ والحقيقة أنّه قبل وصوله بقليل استطاع الجازاني أن يقتحم مكة بعسكره ويقتل ـ حسب رواية عبدالعزيز بن فهد القرشي ـ الرجال والنساء والصبيان، وينهب البيوت ويسبي العبيد والإماء، بل الكثير من أمّهات الأولاد وأولاد الناس أيضاً. ولم يستطع أمير مكة بركات التصدي له، بل لقد كافأه السلطان المملوكي الغوري الذي كان عليه أن يسعى إلى دعم الاستقرار في الحرمين بأن نصّبه أميراً على مكة بدلاً من أخيه بركات.

لقد أعجب فارثيما ببيوت مكة، وقال: إنّها تشبه بيوت روما في بنائها، وقدّر عددها بستّة آلاف بيت، وقدّر قيمة المنزل الجيّد منها بأنّها تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة آلاف دوكات من الذهب، وهي عملة بندقية. ولم يغب عن ملاحظاته الوضع الاقتصادي في مكة، فأشار إلى أنّها تقع في أرض قاحلة، وأنّ مؤونتها تأتيها من خارجها من بلاد الهند وفارس ومصر وبلاد الشام، وأنّ كميّة كبيرة من المجوهرات والتوابل ترد إليها من

الهنـد، ولـذا فقـد وجد مكـة تتمتع بنشـاط تجاري كبـير في موسـم الحج. ويصـف فارثيما المسـجد الحـرام والكعبـة المشرفة، وهي البنـاء السـابق للبناء الحـالي، ويشـير إلى أنّ أروقة الحـرم الشريـف تضـمّ ما بـين أربعة إلى خمسـة آلاف شـخص مـن الرجال والنسـاء الذين يبيعـون جميـع أنـواع العطـور والروائح، وأغلبهـا للحفاظ على أجسـاد الموتـى... ويخطئ فارثيـما كغـيره مـن بعـض الرحالة الذيـن أتوا بعـده، فيجعل الرجـم والذبح رمـزاً لطاعة إسـحاق لأبيه إبراهيم.

وعـلى أيّ حـال فمع وجود بعـض الأخطاء المقصـودة وغير المقصودة فيـما نقله فارثيما عـن المدينتـين المقدّسـتين، لا يشـكُّ بقيمـة الرحلـة كمرجـع تاريخـي يسـاعد عـلى معرفة أوضـاع الحـجّ في أواخـر العـصر المملوكي، وأحـوال مكة في ذلـك العهد.

الرحلة الثانية هي رحلة جوزيف بيتز:

تشـكل الرحلـة الثانيـة ـ وهـي رحلـة جوزيـف بيتـز ـ حالـة خاصـة، وهـو شـاب إنجليـزي مـن مدينـة اكسـتر بإنجلـترا، اختـار البحـر وهو في السـنة الخامسـة عـشرة من عمـره، وعمـل بحـاراً في سـفينة تجارية أبحرت بـه في سـنة ١٦٧٨ م في رحلـة تجارية. وفي طريـق عودتهـا، وقرب الشـواطئ الأسـبانية تعرضت السـفينة لهجوم من سـفينة جزائرية حيـث وقـع جميـع بحـارة السـفينة الإنجليزيـة في الأسر، اقتيد الجميـع ليباعوا في أسـواق النخاسـة في الجزائـر. وتنقـل بيتـز من سـيد إلى آخر حتى سـنة ١٠٩٨ هـ/ ١٦٧٨ م حين اصطحبـه سـيّده الأخـير معـه لأداء الحجّ. ومـع أنّ بيتز اضطرّ ـ حسـب قولـه ـ إلى إعلان إسـلامه تحـت التعذيـب، فقـد عـاد إلى نصرانيته بعـد تحريـره وعودتـه إلى إنجلـترا. ومع أنّ ثقافـة بيتـز لم تكـن في مسـتوى يؤهله لأن يكـون دقيقاً في ملاحظاتـه إلّا أنّـه تميّز بحسٍّ مرهـف وذكاء ثاقـب بحيـث جـاءت كتاباتـه عمّا شـاهده في رحلـة حجّه أقـرب إلى الدقة والحقائـق التاريخيـة من سـابقه. فقد كتب عـن مكة أنّ أهلهـا ينامون في أسـطح المنازل أو

عـلى كـراسي أمام منازلهـم أو حوانيتهـم، وهذه حقيقة شـهدناها في طفولتنا. كما أشـار إلى أنّ المـاء كان متوفـراً بغـزارة أثناء إقامته في مكـة، ولاحظ أنّ مكة تفتقـر إلى النباتات ولكنّ سـوقها يحفـل بأنـواع الخـضراوات والفواكـه الطازجـة، مثـل العنـب والبطيـخ والشـمام وغيرهـا، ولم يغفـل عـن الإشـارة إلى مصدر هـذه الفواكه والخـضراوات وهو مـكان غنيٌّ بالثـروة الزراعيـة ـ حسـب قوله ـ يبعـد عن مكة يومـين أو ثلاثة، ويقـول: إنّ ذلك المكان ـ إذا لم يكـن مخطئـاً ـ يسـمّى الحبشـة، وهو الذي تـأتي منه الأغنـام أيضاً، ويبـدو أنّ بيتز قد خلـط هنـا بـين الفاكهـة والخـضراوات التي تـأتي من الطائـف والأوديـة المحيطـة بمكة، وبـين الأغنـام التي ربـما كانت تسـتورد من الحبشـة أو السـودان.

لم يفـت بيتـز أن يسـجّل عنـد وصوله إلى جـدّة مقابلـة المطوّفـين للحجاج، فقـد قال: إنّـه ومـن معه مـن الحجاج قوبلـوا بأدلّاء قدمـوا من مكة ليقـودوا الحجاج في أداء شـعائر الحـجِّ عنـد وصولهم إلى بيت الله الحرام والمشـاعر، كـما لم يفته بعد أن وصـف البيت الحرام والكعبـة المشرفـة أن يشـير إلى كسـوة الكعبـة التـي كانـت تصنع في مصر وترسـل سـنوياً مـع قافلـة الحـج المـصري. ولكنّـه يخطـئ حـين يشـير إلى أنّ الكسـوة المذكـورة تحمل من مـصر إلى مكـة على نفس الجمل الـذي يحمل المحمـل، أي أنّها توضع بداخلـه، فالواقع أنّ كلاً منهـما يحمـل عـلى جمل خـاص بـه. وأعجب كيف اسـتطاع بيتـز وهو في خدمة سـيّده أن يعلـم مـا يحـدث بالنسـبة للكسـوة القديمـة بعد وصـول الكسـوة الجديدة، فقد أشـار إلى أنّ الكسـوة القديمـة يسـتولي عليهـا أمـير مكـة، ويجعلها قطعـاً صغيرة تبـاع للحجاج الذيـن يحرصـون عـلى شراء قطعة منها مهـما صغرت. وتصـل قيمة القطعـة الصغيرة منها إلى عـشر شـلنات، والحقيقـة أنّه قـد كان الشـيبيون هم من يسـتولي على الكسـوة القديمة ويقومـون ببيعهـا في حـين يسـتولي شريـف مكـة عليها في بعـض السـنين ليقـوم بإهدائها ويعـوض الشـيبيين عنها ببعـض المال.

ويعطـي بيـتر تقديـراً مقبولاً لعـدد الحجاج في موسـم حج عـام ١٠٩٨ هـ فيقـول: إنّ

الذيـن وقفـوا في عرفـات ذلك العام يقـدّر عددهم بسـبعين ألف حاجٍّ. ولم تغـب عن باله حركـة البيـع والـشراء بعـد عـودة الحاج من منـى، فيقـول: إنّ الحجـاج يبقون بعـد انتهاء الحـج لمـدة عـشرة أيـام إلى اثنـي عـشر يومـاً، يقام خلالهـا سـوق عظيمة يبـاع فيهـا أنواع كثـيرة مـن البضائـع المجلوبة مـن الهند، من بينهـا الذهـب والأحجار الكريمـة إلى جانب البضائـع الواصلـة من الصـين وغيرها مـن الأماكن.

وأخـيراً لم يغفـل بيتـز حتى عن الإشـارة إلى أجرة الجمـل الذي يحمل الحـاج في عودته مـن مكـة إلى مـصر قائـلاً إنّ هـذه الأجـرة تعـادل قيمـة شراء الحمـل وتبلغ مابين خمسـة وسـتة جنيهـات اسـترلينية. وبطبيعة الحـال ربّما فضل الحاج أن يسـتأجر بدلاً مـن الشراء؛ لأنّ المقـوّم في حالـة الإيجـار يكـون مسـؤولاً عـن تهيئـة جمل بديـل في حالة مـوت الجمل المؤجـر أو عجزه.

أمّا الرّحّالة الثالث :

هـو (أي دومنغـو باديا لبليخ) عـلى النقيض تماماً من بيتـز، فقد كان بيتز مملـوكاً مرافقاً لسـيّده في الحـج في حـين اصطحـب الرحالـة الأسـباني دومنغـو باديـا لبليـخ أو علي بيك العباسي ـ كما سـمّى نفسـه ـ حاشـية مـن الخدم ووصـل إلى مكة قادماً من الإسـكندرية في موسـم حج ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م.

أجـرى عـلي بيـك قبل البـدء برحلتـه، اتصـالات مع بعـض الشـخصيات البـارزة في باريـس ولنـدن وأجـاد تنكّـره في أراضي الإسـلام بدرجة أنّه اسـتطاع إقناع السـلطات في مكـة بأنّـه واحـد من أبنـاء البيت العبـاسي، وهـو الأمر الـذي يؤكد الغـرض الحقيقي من رحلتـه وهـو ماقيل مـن أنّه جاسـوس لنابليـون لإجراء دراسـة وتقديـم تقارير عـن نموّ واتسـاع الدولـة السـعودية الأولى وموقف الدولـة العثمانيـة العدائي منها.

اسـتقبل عـلي بيـك اسـتقبالاً حافلاً في مكـة، وكانـت سـجادته تفرش ـ حسـب قوله

في المسجد الحرام خلف الإمام مباشرة، بل لقد أتيح له بناءً على شخصيته المزيفة أن يدخل الكعبة المشرفة (وهو أمر انفرد به بين سائر الرحالة الغربيين) يوم غسلها مع شريف مكة وشيوخ القبائل والضيوف أصحاب الشخصيات البارزة. يقول علي بيك في ذكره لهذه المناسبة: «دخل الشريف الكعبة محمولاً على أكتاف بعض الناس ورؤوس البعض الآخر يصحبه كبار شيوخ القبائل... وكنت واقفاً بعيداً عن الباب تجنباً للازدحام حين أشار إلى سيد زمزم (ويقصد رئيس الزمازمة) بالتقدم تنفيذاً لأمر الشريف... وكان شريف مكة يكنس أرض القاعة بنفسه، وما كدت أدخل حتى قدموا لي عدداً من المكانس الصغيرة، أمسكت ببعضها بكلتا اليدين، وفي تلك اللحظة صبّوا كثيراً من الماء على البلاط فأخذت أكنس بكلتا يدي...». وبعد الانتهاء من الغسل يضيف علي بيك: (وعندئذٍ مَنَحَني السلطان لقب خادم بيت الله الحرام). وإذا أجزنا رواية علي بيك عن مشاركته في غسل الكعبة، فماذا يمكن القول عن المنحة التي أسبغها عليه الشريف، وهو لقب خادم بيت الله الحرام؟ وهو لقب لم يكن يخلع إلّا على الخلفاء والسلاطين الذين يتولون أمر الحرمين الشريفين.

وعلى أيّ حال فقد تميّز علي بيك عن سابقيه بأنّه كان عالماً جغرافياً وجيولوجياً، وكان مزوداً بآلات قياس دقيقة استطاع بواسطتها تحديد مواقع الأماكن المختلفة التي زارها، سواء التي تقع على البحر الأحمر أو المدينتين المقدّستين. كما أنّه قام بفحص آبار مكة الواقعة حول الحرم، وقرّر أنّ جميع هذه الآبار بما في ذلك بئر زمزم تأتي من مصدر واحد.

وعلى الرغم من استدراكه بالقول بأنّ الآبار الأخرى لا تنيل شاربها بركة السماء ـ حسب قوله ـ كبئر زمزم إلّا النتيجة التي توصّل إليها تبدو كأنّها محاولة للتشكيك في مياه بئر زمزم، وبالرغم محاولات علي بيك المستمرة في كتابه إظهار إيمانه القوي بالإسلام وتمسّكه الشديد بعقيدته إلّا أنّه يميل أحياناً إلى السخرية في وصفه لبعض

الطقـوس الإسـلامية، فعن جمـرة العقبة يقـول: «وبما أنّ دهاء الشـيطان قد دفعـه إلى إقامة بيتـه في مـكان ضيق جداً لا يتجـاوز عرضه أربعاً وثلاثـين قدماً، وتقـوم في الطريق المؤدية إليـه صخور ضخمة يجـب اجتيازها لتأمين رشـق الحجارة، وبما أنّ جميـع الحجاج يريدون إتمـام هـذا العمل المقـدس حـال عودتهم إلى منـى، فإنّ المـكان تسـوده بلبلة غريبـة». على أنّ القيمـة الحقيقيـة لرحلـة علي بيـك العباسي تتجـلى في مشـاهدته لدخول الإمام سـعود بـن عبـد العزيـز بن محمد بن سـعود مع جيشـه مكـة المكرمة في هـدوء وطمأنينـة يحملون في أيديهـم رماحـاً، لكنّهـم لم يكونـوا يرفعـون بيـارق ولا يحملـون طبولاً، ولا شـعارات عسـكرية، وكانـت تصدر عن بعضهـم صرخـات... وأنّ الناس لم يفهمـوا للوهلة الأولى المعنـى الإصلاحـي لهدم المـزارات وتقويـض أضرحة الأوليـاء التي كان المؤمنـون يؤدون إليهـا واجـب الإجـلال...، لقـد قيـل: إنّ عـلي بيـك حاول العـودة إلى مكـة مـرّة ثانية في موسـم عـام ١٨١٨م، ولكـنّ المنية فاجأته وهـو على بُعد مائـة وعشرين ميلاً من دمشـق، وهنـاك شـكٌّ في أنّ عميـلاً إنجليزياً قام بتسـميمه.

أمّا رحّالة الرابع هو الدون روتر :

ويمكـن أن نعتـبره آخـر الرحالـة المتخفـين في ثـوب إسـلامي الذيـن تركـوا وراءهم سـجلاً مكتوبـاً برحلتهـم؛ وروتر إنجليـزي غير معروف تمامـاً، وحتى عندمـا تحدّث عن نفسـه في مقدمـة كتابـه لم يذكـر شـيئاً عـن شـخصيته أو عـن بدايـة رحلتـه أو غرضـه من الرحلـة؛ فقـد اسـتهل كتابـه بقوله: «في شـهر مايو سـنة ١٩٢٥م كنت في القاهـرة وحينئذٍ عزمـت عـلى الرحلة إلى مكـة لأداء الحج الإسـلامي هناك، وعند إتمامـه أزور المدينة حيث قـبر محمـدﷺ... إنّ الحرب الآن مسـتعرة في جميع مملكة الحجاز وإنّ قوات السـلطان ابن سـعود قد اسـتولت عـلى الطائف، وتقدّمـت في ملابس الإحرام ودخلت مكة واسـتولت عليهـا دون إراقـة قطرة دم أو حـوادث عنف».

بهـذه العبـارات ابتـدأ روتـر كتابـة مقدمـة الرحلـة، ونحـن نتسـاءل هنـا ما بـال هذا

الإنجليزي المجهول الهوية المتمسّك بنصرانيته، يخاطر بنفسه في ظروف عصيبة خاصة؟ وأنّه سمع أثناء إقامته بمصر أنّ الحكومة المصرية قد حصلت على فتوى من العلماء بجواز عدم الحجِّ في هذا العام لاضطراب الأحوال الأمنية للحجاج نتيجة لظروف الحرب. وبناءً على هذه الفتوى فقد أعفت الحكومة نفسها من تنظيم الحجِّ المصري وترتيبات سفره.

لقد واجه روتر في رحلته مشاقاً عظيمةً وأخطاراً جساماً، فقد كانت جميع موانئ الحجاز الشمالية بما فيها ميناء جدة مقفلة في وجه حركة الملاحة؛ مما اضطر روتر إلى القيام بحركة التفاف أخذته إلى أقصى جنوب الحجاز. فقد استقل قارباً بخارياً من السويس رحل به إلى القصير قبور سودان فمصوع. ومن هنا استقل سنبوكاً أو قارباً صغيراً نقله إلى أحد موانئ عسير الجنوبية وهو القحمة. ومن هذا المكان واصل روتر طريقه براً بواسطة الجمال في صحبة بعض القوافل الصغيرة من القحمة إلى البرك فالقنفذة فالليث ثمّ إلى مكة المكرمة.

نشرت رحلة روتر بعنوان: (The Holy Cities Of Arabia) في مجلدين في لندن سنة ١٩٢٨م. واستطاع أن يقدّم لنا في المجلدين عرضاً متكاملاً للمجتمع المكي في مطلع القرن العشرين، بل وقدّم أيضاً عرضاً جيداً لأحوال تهامة عسير وجنوب الحجاز. فلم يترك شاردة ولا واردة في الحياة اليومية لأهل مكة إلّا والتقطها ووجد لها حيزاً في كتابه، فتحدث عن الزواج والطلاق وتعدّد الزوجات، وعادات المكيّين في إقامة الحفلات في مختلف المناسبات، ووصف الأزياء الرجالية والنسائية وأدوات الزينة للنساء، والمطبخ المكي وأنواع الطعام وأسلوب الطبخ والدور وأثاثها. ولم يغفل الرق والسحر والشعوذة، بل والموت والعادات المتبعة في الجنازة والدفن والعزاء. لقد حاول روتر أثناء إقامته بمكة التي امتدت لبضعة أشهر أن يندمج في المجتمع المكي؛ فحضر شتى المناسبات الاجتماعية، ووصفها وصفاً دقيقاً مفصّلاً، حتى بلغ به الأمر

أن ينقـل حرفيـاً ما جـرى في جلسـات متكاملة من حديـث ونقاش بين المكيـين الحضور، وبلهجتهـم الخاصـة التي يسـتعصي فهم بعـض اصطلاحاتها عـلى كثير من شـباب اليوم. وهـذا دليـل على تمكّنه وسـعة اطلاعـه باللغـة العربيـة واللهجات...

لقـد قدّم روتـر في كتابه وصفاً دقيقاً لحج عـام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م. كـما أنّه إلى جانب وصفـه الدقيـق لمكة وصـف لنا بعض المـدن والقـرى الواقعـة جنوبها التي كانـت مجهولة إلى وقـت قريب.

عـلى أنّ رحلـة روتـر تـزداد أهميـة بوصفه شـاهد عيـان على التطـورات الجديـدة التي شـهدتها المنطقـة في هذا الوقـت، وهي: انتقـال الحجاز بصـورة عامة والحرمـين الشريفين بصفـة خاصـة إلى أيـدي الملـك عبـد العزيـز آل سـعود، ممـا سـهل لروتـر أن ينتقـل مـن الجنـوب إلى الشـمال وأن يسـافر إلى الطائف عـبر طريق السـيل ويعود عن طريـق الهدا... أشـار في كتابـه في ذلـك في أكثر من مناسـبة.